

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



# سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةُ اَلْاِسْلَامِيَّةِ جَامِعَةِ

العدد الثامن والستون • السنة السابعة عشرة • شتاء سنة ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم. ص.ب: (٨٩٤ = ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الانترنت

[www.ahlulbaytportal.com](http://www.ahlulbaytportal.com)

Tahrir-thaqalayn@hotmail.com :

info@ahl-ul-bayt.org :

## محتويات العدد

### □ كلمة التحرير

\*

.....

### □ من أريج القيادة الحكيمة

\*

: .....

\*

.....

\*

: .....

\*

.....

### □ دراسات فكرية ودينية

\*

.....

\*

.....

\*

.....

\*

.....

سِالَةُ الثَّقَلَيْنِ  
مَجَلَّةُ لِسَانِ الْإِسْلَامِ جَامِعَةُ

سنة  
١٤٤٠

( )



المجمع العالمي للإسلام والتنمية

المشرف العام  
الشيخ محمد حسن اختري

تصدر عن  
المعاونية الثقافية - إدارة المجالات

رئيس التحرير  
الشيخ معين دقيق

مدير التحرير  
الشيخ علي محسن

/

:



\*

:

عليه السلام

\*

:

\*

:

□ وجهة نظر

\*

:

\*

:

□ قراءة في كتاب

\*

.....


□ شعر

\*

:

## وصدقت نبوءة رايس رياح التغيير آتية، ولكن...

□ بقلم: رئيس التحرير

في ٢٦ يوليو ٢٠٠٦، في خضمّ حرب إسرائيل على لبنان، تلك الحرب التي ما زالت إشعاعاتها تؤثر ليس فقط على لبنان، أو على ما يُسمّى بدول الطّوق، بل على العالم أجمع بلا أيّ مبالغة... 

في تلك الحرب التي نشطت فيها الدبلوماسية الأمريكية المتمثلة آنذاك بـ (كوندوليزا رايس) مبشرةً أذئاب السياسة الأمريكية في العالم العربي بشرق أوسط جديد، وأنّ هذه الحرب هي: آلام مخاضٍ لولادة شرق أوسط جديد، رسمت السياسة الخارجية الأمريكية معاملة على أساس أنّه عالمٌ خالٍ من كلّ ما يمتّ إلى العزّة والكرامة والإباء والجهاد بصلة...

عالمٌ يخلو فيه الجوّ لإسرائيل الربيبة الأمريكية المدلّلة؛ لكي تعيث في الأرض فساداً...

عالمٌ يخلو من حزب الله، وحماس، وحركة الجهاد الإسلامي، وحركات المقاومة في العراق وأفغانستان و.... غيرها من سلسلة الحركات المناهضة

للاستكبار والتسلط على مقدّرات البلاد والعباد...

عالمٌ تضعف فيه دول الممانعة المتمثلة بالجمهورية الإسلامية وسوريا...  
عالمٌ تقسّم فيه ربوع البلاد العربية والإسلامية، بدءاً من السعودية وانتهاءً  
بالسودان، ومروراً بالعراق وأفغانستان وإيران....  
تقسيمٌ سوف يكون عبارة عن عملية تطبيع مع الدولة الصهيونية التي تعاني  
من شذوذها البنيوي؛ باعتبارها جسداً غريباً غرس غرساً في المنطقة العربية...  
وكما قال شمعون بيريز يوماً: «لقد جرّب العرب قيادة مصر للمنطقة مدّة  
نصف قرنٍ، فليجربوا قيادة إسرائيل إذن»، وهذه هي الرؤية التي طرحها برنارد  
لويس منذ السبعينيات، وتبنّاها المحافظون الجدد، وتدور السياسة الأميركية في  
إطارها.

ويبدو أنّ الولايات المتحدة بعد أن ذاقت الفشل الذريع في العراق  
وأفغانستان، قرّرت أن تعهد لـ «إسرائيل» بتنفيذ مخطّطها الاستعماري الجديد،  
بحيث تقوم بتدمير لبنان في بنيته المقاومة، وتحويله إلى بلدٍ ديمقراطي على  
الطريقة التي أرادتها أمريكا للعراق، أي: يدور في فلك المصالح الأمريكية.  
وبعد لبنان تتساقط قطع الدومينو العربي الواحدة تلو الأخرى، كما تنبأ برنارد  
لويس.

وقد أكّد وليام كريستول (من المحافظين الجدد) أنّ هذه فرصة للولايات  
المتحدة لأن تأخذ زمام المبادرة مرّة أخرى في المنطقة.

وفي مقالٍ بعنوان: «الولايات المتحدة متواطئة مع إسرائيل في تخطيط لبنان»  
يقول المعلق الأمريكي بول كريغ روبرتس: «إنّ ما نشاهده في الشرق الأوسط  
هو تحقّق خطة المحافظين الجدد في تخطيط أيّ أثرٍ للاستقلال العربي الإسلامي،

والقضاء على أيّ معارضةٍ للأجندة الإسرائيلية».

وإليك تلك المعالم الرئيسية التي أرادوها لهذا الشرق الأوسط الجديد، والذي بنظرهم سوف يخرج من رحم العدوان الإسرائيلي على لبنان، فيما عُرف بحرب تمّوز، أو (الحرب السادسة).

أولاً: إنّ هذا التصرّو لهذا المولود الجديد ينطلق من اعتقاد أصحابه أنّ التاريخ متوقّف تماماً بهذه المنطقة، وأنّ الشعب العربي سيظلّ مجرّد أداة بيد معظم حكامه الذين باعوا ضمائرهم وأوطانهم وشعوبهم بطريقة عمياء للولايات المتحدة الأمريكية. فهذا الشرق العربي والمسلم مجرّد مساحة غنية، من دون أن يكون لها تاريخ ولا تراث مشترك، تقطنها جماعات لا يربطها رابط، وليس لها ذاكرة تاريخية، ولا إحساس بالكرامة.

والذي ساعدهم على تكوين هذا الاعتقاد: ما رأوه في بعض الدول العربية، من انجرافٍ واسع نحو الملذات، وصيرورة العربي في بعض هذه الدول المشار إليها مجرّد إنسان همّه الأوّل تأمين متعه، وحاجاته من المادّة البراقة التي أغروه بها منذ بداية عصر التفجّر التكنولوجي وإلى وقتنا الحاضر؛ بحيث صار العربي بنظرهم مجرّد إنسانٍ مستهلكٍ لمنتجاتهم المتنوّعة التي صار البلد العربي (بازاراً) لترويجها.

ثانياً: إنّ (رالف بيترز) - وهو ضابط متقاعد يحمل رتبة مقدّم، وكان يعمل بالاستخبارات العسكرية الأميركية - وضع مخططاً لإعادة تقسيم الشرق الأوسط في مقالٍ نُشر بمجلة القوات المسلحة الأميركية في حزيران ٢٠٠٦<sup>(١)</sup>، ولا تعود أهمية هذا المقال إلى عمقه، أو إمكانية تحقّقه، وإنّما لأجل أنّه يبيّن ما يدور في خلد دعاة الشرق الأوسط الجديد.

حيث ينطلق (بيترز) ممّا يسمّيه الظلم الفادح الذي لحق بالأقليات حين تمّ تقسيم الشرق الأوسط أوائل القرن المنصرم، في ضمن اتفاقية (سايكس بيكو)،

مشيراً إلى أنّ هذه الأقليات عبارة عن جماعات وشعوب قد تمّ خداعها حين التقسيم الأوّل، وعدّ على رأسهم المسيحيين، والأكراد، والبهائيين، والإسماعيليين، والنقشبنديين.

ثالثاً: بحسب مقال (بيترز)، فإنّ ثمة كراهية شديدة بين الجماعات الدينية والعرقية بالمنطقة تجاه بعضها البعض، وأنّه لذلك يجب أن يعاد تقسيم الشرق الأوسط انطلاقاً من تركيبته السكانية غير المتجانسة، القائمة على الأديان والمذاهب والقوميات والأقليات، نظير الدولة الصهيونية القائمة على الدين والقومية وامتزاجهما.

رابعاً: إنّ الخارطة التي يتمّ الحديث عنها، يدخل فيها تقسيم العراق إلى ثلاثة أجزاء: دولة كردية في الشمال، ودولة شيعية في الجنوب، ودولة سنية في الوسط ستختار الانضمام إلى سوريا مع مرور الزمن.

وفي عقل راسم هذه الخارطة تُعدّ السعودية - بشكلها الحالي - دولة غير طبيعية، ويقترح أن يقطع منها مكّة والمدينة؛ لغرض إنشاء دولة إسلامية مقدسة، بحيث يترأسه مجلس يمكن أن نطلق عليه اسم (فايكان إسلامي أعلى).

ويقطع من شأها أرض تضمّ إلى الأردن، ومن جنوبها قطعة تضاف إلى اليمن.

وأما شرقها فلم يسلم من مقصّ هذا المخطط؛ إذ اقتطع منها حقول النفط لمصلحة دولة شيعية عربية.

وأما المملكة الهاشمية الأردنية، فتحتفظ بحدودها مع ما ينضمّ إليها من السعودية، ومن الطبيعي أن يرتبط مستقبل الضفة الغربية بها.

وأما الإمارات، فيطلق عليها السيّد (بيترز) اسم «الدولة المدنية»، تشبهاً لها بالمدن اليونانية القديمة، ويقترح إضافة أجزاء منها مع الدولة العربية الشيعية،

التي يجب أن تلتفت حول الخليج الفارسي، لتصبح قوّة توازن مقابل الدولة الشيعية الفارسية - على حدّ تعبيره - لا حليفاً لها.

ويتكرّم هذا الرسّام بالإبقاء على (دبي) كما هي؛ لتبقى مسرحاً للأغنياء الفاسقين.

وتحتفظ كلّ من عُمان والكويت بأراضيها.

ومن المفترض أنّ إيران - وفقاً لهذا المشروع الجهنمي - ستفقد الكثير من أراضيها لصالح آذربيجان الموحدة، وكردستان الحرّة، والدولة الشيعية العربية، وبلوشستان الحرّة؛ لكنّها في الوقت نفسه تكتسب مقاطعات من أفغانستان من جهة هرات. وتصور (بيترز) أنّ إيران في هذه الخريطة الجديدة سوف تعود بلداً فارسياً من جديد، كما كان قبل انتشار الإسلام فيها.

وأما لبنان، فالمخطّط له أن تقوم دولة مسيحية، أو موالية، تكون حدودها الجنوبية نهر الليطاني، وستكون الدولة الصهيونية على استعداد لتوقيع معاهدة مع هذه الدولة<sup>(١)</sup>.

خامساً: النفع المتوقّع لأمريكا من هذا التعديل الجديد لخريطة المنطقة: هو إيجاد فرصة لنشر الديمقراطية على الطريقة الأمريكية، والوصول إلى منابع النفط في منطقةٍ يقدّر لها - حسب الرسم الجديد - أن تحارب نفسها.

إنّ المخططات التي يحيكها أعداء الأُمّة والدين، لهي في الواقع ناشئة من حقيقة نفسية واجتماعية، نابعة من غطرسة القوّة، فيتصوّرون أنّهم يمكنهم أن يفعلوا ما يشاؤون، طالما أنّ موازين القوى في صالحهم، وطالما أنّ استعداداتهم العسكرية تفوق استعدادات الخصم.

وإلى هذه الحقيقة يشير الباري عزّ وجلّ قائلاً: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٌ ۚ﴾ (١) أَن رَّاهُ



أَسْتَعِثَّ ﴿٧﴾ [العلق: ٦، ٧]، ولكنهم ينسون: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨]، ينسون أو يتناسون أنَّ الأمور كلها ترجع إليه، وأنَّ الإنسان مهما قدر فلا يستطيع أن يغلب إرادة الله، وإرادة أوليائه الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاته.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ لَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

إنَّ مخطَّط (بيترز) و (بخور) وكلَّ المخطَّطات الأخرى المماثلة نابعة من غطرسة القوَّة، التي تتناسى إرادة الشعوب، وتاريخها، وأمجادها، ومن خلف كلِّ ذلك إرادة الله تعالى.

( )

عندما وعدت وبشَّرت رئيسة الدبلوماسية الأمريكية أولئك الذين خانوا أمَّتْهم وأوطانهم بالترجُّع على العروش الواهية التي تصنعها لهم مطابخ السياسة الأمريكية المتمثلة بصقورها الجدد، عندما وعدتهم صدقوها، فتأمروا على شعوبهم، وعلى حركات المقاومة في أوطانهم، وباعوا ضمائرهم للشيطان.

ولكنَّا الآن، وفي تاريخ كتابة هذا المقال (٩ / ٢ / ٢٠١١)، نتساءل: هل ما زالت أمريكا والدولة الصهيونية وكلَّ المتأمركين والمتصهينين من المتسيين إلى أبناء أمتنا، هل ما زالوا غارقين في الأحلام المتورمة الخاصَّة بالشرق الأوسط الجديد؟!!!

هل صدقت نبوءة رايس، وتمخَّضت حرب تموز عن شرق أوسط جديد؟!!

إنَّ كان الجواب بالإيجاب، فأَيُّ شرق أوسط قد تحقَّق؟!!

الجواب عن هذين السؤالين ليس بحاجةٍ إلى حنكةٍ سياسيَّة، ولا إلى استشواف للمستقبل على طريقة المنجِّمين الذين شاعوا في هذه الأيام خصوصاً في بداية كلِّ عامٍ جديد. بل يكفي في تلقِّي الإجابة الشافية والوافية استقراء

الأحداث التي مرّت بها منطقة الشرق الأوسط لنعرف هل حصل التجديد؟ وما هو نوعه؟

ولا بدّ لنا أن نبدأ من لبنان، ذلك البلد الذي تمّ الإعلان منه عن بداية رياح التغيير على الطريقة الأمريكيّة، ورؤية مخاض ولادة لشرق أوسط جديد.

فماذا حصل في لبنان؟!

نذكر الأحداث سريعاً وبشكل مختصر:

بعد حرب لم يشهد لها تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي مثيلاً، دامت ثلاثة وثلاثين يوماً لم تحقّق فيها إسرائيل الحدّ الأدنى من أهدافها، بل لم تستطع أن تتحمّل الضغط الأمريكي عليها بالاستمرار في الحرب لأيام قليلة أكثر من (٣٣) يوماً.

وفي مقابل ذلك تحقّقت أهداف للمقاومة الإسلامية لم يكونوا يوماً يحلمون بها، وندرجها سريعاً في ضمن النقاط التالية:

١. تمّ الكشف عن الوجوه الحقيقية لجملة من الحكّام والساسة ومن يدور في فلّكهم، ليس في لبنان فحسب، بل في كلّ المنطقة، وأصبحوا عراة من أوراق التوت أمام شعوبهم والرأي العام العالمي.

٢. حصل جرّاء النقطة السابقة التفاف جماهيريّ كبير حول الحركات المقاومة في المنطقة.

٣. عاد (حزب الله) وفي فترة قياسيةّ جداً إلى أقوى ممّا كان عليه قبل حرب تموز، تسلّحاً، وتجذّراً في نفوس الشعوب الأبية.

٤. تغلغل في نفوس العالم المستضعف أنّ القضاء على دويلة إسرائيل الغاصبة ليس فقط أمراً ممكناً، بل ربما يكون أقرب إلينا من لمح البصر.

٥. على مستوى الوضع الداخلي اللبناني، استطاع حزب الله - رغم المؤامرات المتعددة، بدءاً من تأمر بعض أذنان السفارة الأمريكية، وانتهاءً بالمحكمة الدولية - استطاع تقوية المعارضة التي تتألف من كلّ الطوائف اللبنانية، وأن يفرض ما أفرزه اتفاق الدوحة، وصولاً إلى حلّ الحكومة التي كانت تصير بالبلاد إلى تكريس فتنة طائفية ومذهبية تحت غطاء قرار المحكمة الدولية لكشف الحقيقة، ونحن الآن نعيش على أعتاب تشكيل حكومة يغلب عليها طابع الممانعة للخطّ (الصهيوي - أمريكي).

بعد حرب تموز وتداعياتها التي عادت بالنفع والعزة والإباء على الأمة، حاولت إسرائيل أن تتأّر لنفسها جزاء العار الذي لحق بها في مستنقع الحملة على لبنان، فشنت حرب إبادة على أهل غزة في أواخر عام ٢٠٠٩، استمرت ثلاثة أسابيع، خرج منها الغزافيون: أبراجهم وبنائاتهم متهدمة، ولكن رؤوسهم شاخحة.

وكالحرب السابقة لم يغنم الصهاينة أيّاً من أهدافهم المرسومة، بل كان الأمر أيضاً معاكساً، فأنكشفت أوراق التوت ثانية عن النظام الفرعوني في مصر، وازداد المصريون وعياً وأوصلهم إلى ما نعيشه في هذه الأيام على أعتاب سقوط نظام ترّبع على عرش الدّلة للصهاينة والغرب أكثر من ثلاثين عاماً.

بعد أن خرجت سوريا من لبنان تنفيذاً للقرار ١٥٥٩، ومحاولة خطّ الانبطاح والهرولة - على حدّ تعبير نزار قباني - أن يلصق بها تهمة اغتيال رئيس

وزراء لبنان الأسبق رفيق الحريري، راهن الجميع - بما فيهم القوى الغربية وإسرائيل وأذناهم من حكام التبعية والقوى والأحزاب المتأمركة - على أن سوريا في طريقها السريع إلى الانفكاك عن خطّ الممانعة، تأثراً منها بالقرارات الدولية، وخوفاً من رياح التغيير المتمثلة بشرق أوسط جديد.

ولكن سرعان ما خسر المراهنون، وبقي النظام السوري ملجأً لفصائل المقاومة الفلسطينية من جهة، وداخلاً في الرباط المقدس مع حليفته الاستراتيجية، أعني: الجمهورية الإسلامية الإيرانية من جهة ثانية، وحاضناً شعبياً قلّ نظيره للفكر المقاوم الذي يتمثل في حزب الله لبنان وقيادته الحكيمة من جهة ثالثة، وبدأت علاقاته تأخذ طابعاً جدياً مرّنا مع جملة من الدول الأوروبية التي لا ترضيها العجرفة الأمريكية من جهة رابعة.

:

على الرغم من المقاطعات المختلفة التي تفرض أمريكا ممارستها على المجتمع الدولي في حقّ الجمهورية الإسلامية، على الرغم من كلّ ذلك تزداد الجمهورية الإسلامية صلابَةً وقوَّةً وإباءً وعزماً، بل وتقدّماً في جميع ميادين العلم والتقنية والجهوزية الدفاعية والهجومية.

وما زالت تمدّ الأحرار في العالم بالإلهام من أشعة ثورتها النافذة في القلوب، وما انفكّ شعبها يزداد على مرّ الزّمن احتضاناً لثورته وقيادته الحكيمة، وما برحت للمستضعفين أملاً وملجأً وملهماً...

وهذا الجار المجاور للجمهورية الإسلامية، والذي يرتبط معها بوشائج دينية وأخوية منذ القديم، على الرغم من الحرب التي كانت مفروضة من قبل

النظام الصدامي، ومن ورائه قوى الشرّ في الشرق والغرب، هذا العراق يستعدّ بجهود أبنائه المخلصين على أن يخلع عنه ثوب التبعية لأمريكا، التي ما جاءت إلى الخليج إلا لأجل السيطرة على مقدراته، وانكشف خداع مبررات السلاح النووي لمن كان يترأس عليهم مضروب نعل (منتظر الزيدي) فضلاً عن سائر الشعوب الأخرى.

وبدأت قواتها المسلحة والأمنية تسيطر شيئاً فشيئاً على أمن البلاد، التي عاث فيها فساداً أولئك المرتهنون لمخطط الفتنة الذي تعمل أمريكا على إذكائه ليلاً ونهاراً.

وفي الضفة الأخرى، بدأت الشعوب العربيّة تستمع إلى نداء وجدانها الكامن في جنانها، ووصلتها - وإن متأخرة - استغاثة المظلوم في حرب لبنان وغزة، فتحرّكت بصورة عفوية، بجميع شرائحها وأحزابها، وفعاليتها الدينية والعلمانية والسياسية والنقابية والطلابية وغيرها...

فكانت شيفرة الانطلاق سقوط بو عزيزي في تونس محترقاً بسيط الظلم والجوع، ومن التحق به من رفاق درب الاستضعاف في مصر، فتولّد من الشرارة بركان فرّ منه الطاغية زين العابدين بن علي متنكراً بنقاب، وأخذ فرعون مصر دوراً في صفّ الالتحاق به عن قريب إنشاء الله.

ووصل البركان إلى اليمن، الذي كانت أمريكا قد بدأت وفي أكثر من مناسبة تنوّه بشراكة مع نظامه، فأعلن - بذلّة - لاءاته الثلاث (لا للتمديد، لا للتوريث، لا لتصفير العداد).

ولم يكن نظام المملكة الهاشميةّ ببعيد عن هذا الرعب الذي عصّف بأكثر أنظمة الشرق الأوسط التي كانت أمريكا - ولأمد قريب - تصنّفها في سياق

أنظمة الاعتدال، لكونها ترقص على موسيقى تعزفها لها مراكز الاستخبارات وصناعة القرارات في أمريكا والغرب.

وقد تطول القائمة إذا أردنا أن نعدّد الإخفاقات الأمريكية المتعددة في هذه المنطقة التي بشرت (رايس) بولادة خريطة جديدة فيها، تسير على وفق الأجندة الصهيونية - أمريكية.

وباعتقادي أنّ هذا السرد السريع المتقدّم أصبح وافياً للإجابة الشافية عن السؤال المطروح في بداية المقال.

وعلى وجه الاختصار نقول:

صدقت نبوءة (كوندليزا رايس)، فهذه رياح التغيير وصلت إلى القيروان، وبلاد الكنانة، وبدأ الرعب من وصولها إلى سائر بقاع الشرق الأوسط يدعو الحكام إلى المسارعة في إجراء الإصلاحات والتغييرات.

ولكنّ هذه النبوءة كانت للأمريكان على طريقة قول الشاعر:

ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه  
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن  
هذا، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً...

\* \* \*

الهوامش:

(١) نقلاً عن مقال لبيان الحوت، تحت عنوان «الشرق الأوسط الجديد مشروع أمريكي محكوم بالفشل».

(٢) وقد قام عبقرّي آخر (جاي بخور) في صحيفة ידיعوت أحرونوت (٢٧ / ٧ / ٢٠٠٦) بتقديم خطة أخرى لإعادة صياغة الشرق الأوسط، والخطة - كما يقول أ.د. عبد الوهاب المسيري - لا تعدو أن تكون شكلاً من أشكال الأحلام المتورمة، ولكنها مع هذا تعطينا فكرة عمّا يدور في خلد

قادة هذا المشروع. ويزعم (بخور) أنَّ حرب تموز تدافع عن (جوهر) الغرب، دون أن يذكر لنا ما هو هذا الجوهر، وهل الهدف من هذه الحرب هو إقامة السلام وتحقيق العدل؟ أم فرض الهيمنة ونهب الشعوب؟! وقد بدأ المقال بالقول بأنَّه يجب عدم العودة للشرق القديم، الذي يصفه الكاتب بأنَّه توجد فيه دولة «ذات نظام مجنون، تتسلَّح بسلاح ذريٍّ وتسلَّح رفيقاتها»، وهذا بطبيعة الحال لا يقصد منه إسرائيل. والعراق غارق في حربٍ أهلية، ومنظمات راديكالية تسيطر على حكومات ونظم حكم، وهذه بدورها تمنح جماعات مخربين مسلَّحة دعماً قوياً وعلاقة متسامحة. ثمَّ يستأنف هذا العبقرى الحديث قائلاً: ثمة حاجة إلى تغيير جوهرى، فلم تنجح هذه الدول في منح مواطنيها حياة ثقافية كاملة، ومعظم شعوبها فقيرة، وهي دول تتسم كلها بالطغيان، وإذا ما تمت محاولة ديمقراطية في بعضها فإنَّ النتيجة تكون تولي نظم إرهابية إسلامية، أو فوضى. (لاحظوا التناقض في كلامه). ولعلاج هذا الوضع يقترح (بخور) أن يقسم العراق إلى ثلاث دول، بحسب مقياس طائفي: سنية في الوسط، وشيعية في الجنوب، وكردية في الشمال. كما يجب إنهاء نظام سوريا وإعادة الأكرية السنية إلى الحكم. وعلى الأردن أن يتحمل المسؤولية عن الضفة الغربية، وهذا ينشأ كيان فلسطيني واحد، فينتشر الفلسطينيون إلى الشرق، لا إلى الغرب في اتجاه الدولة الصهيونية. أما مصر، فتصبح مسؤولة عن قطاع غزة، وهو شيء - حسب تصوُّره - أصبح يحدث في الواقع أكثر فأكثر. ويجب إعاقه إيران بواسطة نظام عقوبات شامل، ويجب أن يقوم في لبنان نظام دولي جنوب الدولة وشرقها؛ لمنع عودة الأصولية الشيعية أو غيرها. وهذا الرسم الجديد باعتقاده أنَّه يتناسب مع رغبة الشعوب وسترَّح به، والمعارضة الأساس تكون من الحكام وحدهم. فسكان العراق يشناقون إلى الاستقرار. ومن المؤكد أنَّ الأكرية السنية في سوريا تطمح إلى إنهاء سلطة القلَّة العلوية. وفي الأردن ٨٠٪ في الأصل من السكان فلسطينيون، والملك متزوج من فلسطينية، وأبناءؤه نصف فلسطينيين. وسيفرح سكَّان الضفة الغربية بإنشاء دولة فلسطينية كبيرة. وفيما يتعلَّق بمصر، من المعقول أنَّها تدرك اليوم أنَّ غزة الفائزة تعني سيناء الخطرة، وتهديد السياحة والاستقرار السياسي والاجتماعي كله. ثمَّ يختتم (بخور) حديثه بالقول: إنَّه إزاء تفشي الراديكالية الخطرة للتدين المتشدد الإسلامي يجب على العالم الغربي أن يستيقظ، وأن يفهم أنَّ الحديث ليس عن الشرق الأوسط أو إسرائيل فقط، بل عن جوهر وجوده. (انظر: [www.aljazeera.net/NR/exeres](http://www.aljazeera.net/NR/exeres)).

من  
أريج القيادة الحكيمة

## نصّ خطاب قائد الثورة الإسلامية

### في بدايات الثورة المصرية

بحضور جمع من المسؤولين، ومئات الآلاف من الشعب الإيراني، ألقى وليّ أمر المسلمين الإمام القائد السيّد علي الحسيني الخامنئي عليه السلام خطبةً في صلاة الجمعة الواقع في ٤/٢/٢٠١١ م الموافق لـ ٣٠/٢/١٤٣٢ هـ، وهو اليوم الذي جعله ثوار مصر الشرفاء أحد محطات ثورتهم، وأطلقوا عليه اسم يوم الرحيل.

توزّع خطاب الإمام القائد عليه السلام على خطبتين اثنتين، خُصّص شطر من الثانية منهما لمخاطبة الشعبين المصريّ والتونسيّ، وباللّسان العربيّ المين.

#### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوكّل عليه، ونصلّي ونسلّم على حبيبهِ ونجيبهِ وخيرته في خلقهِ، حافظ سرّه ومبلّغ رسالاتهِ، بشير رحمته ونذير نقمته، سيّدنا ونبيّنا أبي القاسم المصطفى محمّد، وعلى آله الأطيبين



الأطهرين المنتجين الهداة المهديين المعصومين المكرمين، سيّما بقيّة الله في الأرضين، ونصليّ ونسلم على أئمة المسلمين وحماة المستضعفين وهداة المؤمنين. أوصيكم عباد الله بتقوى الله.

أوصيكم جميعاً أيّها الإخوة والأخوات الأعزّاء والمصلّين الكرام ونفسي بمراعاة تقوى الله.

اليوم يوم استشهاد علي بن موسى الرضا أبي الحسن عليه آلاف التحية والسلام. وفي الأيّام السابقة أحبى شعبنا ذكرى رحيل نبيّ الإسلام المكرّم المعظم سيّدنا محمّد بن عبد الله ' وذكرى الاستشهاد المفجع لسبطه الأكبر الإمام المجتبيّ (عليه السلام).

أعزّيكم أيّها المؤمنون المصلّون وكلّ الشعب الإيراني وكافة الشيعة وجميع مسلمي العالم بهذه المصائب الكبرى والأحداث التاريخية المفجعة الأليمة. قال الله تعالى لنبيه ' : { يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ أَنْقَ اللَّهُ } [الأحزاب: ١]، فالتقوى وضرورة التقوى ومراعاة التقوى يُخاطب بها حتى الكيان المقدّس للرسول الأكرم '.

فلنتذكّر الله ولا ننساه، ولنراقب أعمالنا وسلوكنا وأقوالنا وحتى أفكارنا وتصوّراتنا. هذا هو معنى التقوى. إذا تحقّق هذا فسوف تنفتح كلّ الطرق المغلقة، وسيعين الله تعالى الشعب الملتزم بالتقوى في كلّ المراحل والأطوار. لعشرة الفجر، ويوم الثاني والعشرين من بهمن في هذا العام أجواء حماسيّة مختلف. فالشعب يشاهد بعد أعوام من الجهاد أن صوته وهتافه المظلوم والمقتدر يُسمع اليوم بقوة في بقاع أخرى من عالمنا الإسلاميّ.

إنّ للأحداث الجارية في شمال أفريقيا حالياً، في مصر وتونس وبعض البلدان الأخرى معنى آخر بالنسبة لنا نحن الشعب الإيراني.. ولها معنى خاصّ. هذا هو الشيء الذي كان يطرح دوماً باعتباره صحوة إسلاميّة بمناسبة انتصار

الثورة الإسلامية الكبرى للشعب الإيراني، وهو اليوم يُفصح عن نفسه. سأطرق اليوم في الخطبة الأولى لبعض الأمور حول ثورتنا، وفي الخطبة الثانية سأطرق بعض الشيء لقضايا مصر وتونس، ثم أستأذنكم أيها المصلّون الأعزّاء لأوجّه خطبةً باللغة العربيّة للمسلمين العرب في المنطقة كلّها إن شاء الله.

ما أريد أن أقوله حول ثورتنا.. أن هذا الحدث العظيم للشعب الإيراني - وهو مصدر دروس وعبر لنا - هو أولاً صورة لواقع العالم، لنرى ماذا كان يريد المستكبرون والمستعمرون والعتاة والقوى المهيمنة في العالم؟ وما الذي حصل؟ ما الذي أرادوه؟ وما الذي وقع على الصعيد العملي؟

ثم أذكر خصوصيتين من خصوصيات الثورة تتعلّق بفترتنا هذه. وفيما يرتبط بالشرط الأول المتعلّق بالوضع الراهن، ومقارنته بما أراده طغاة العالم وعتاته، أقول:

إنّ المنتصرين في الحربين العالميتين الأولى والثانية، وهم بعض البلدان الأوروبيّة وأمريكا، كانت لهم سياسة ثابتة لمنطقة الشرق الأوسط. فهذه المنطقة مهمّة من حيث الموقع العسكري؛ لأنّها نقطة اتّصال آسيا وأوروبا وأفريقيا، ومن حيث كونها أحد أكبر مخازن النفط في العالم، النفط الذي هو شريان حياة كلّ القوى الصناعيّة المتسلّطة على العالم، ومن حيث شعوب المنطقة؛ إذ فيها شعوب عريقة ومتجذّرة وذات سوابق تاريخيّة.

:

لذلك رسموا لهذه المنطقة سياسة معيّنة، وكانت هذه السياسة عبارة عن أنّه يجب أن تكون في هذه المنطقة بلدان ووحدات سياسيّة لها هذه الخصوصيات: فأولاً: يجب أن تبقى ضعيفة.

وثانياً: يجب أن تكون متعادية مع بعضها، ومتعارضة، وغير مجتمعة، ولا تستطيع الاتحاد، ومن هنا لاحظتم تتابع سياسة تقوية القومية العربية والقومية التركية والقومية الإيرانية طوال الأعوام المتتالية.

وثالثاً: يجب أن يكون حكام هذه البلدان عملاء ومطيعين وخاضعين للقوى الغربية من الناحية السياسية.

ورابعاً: يجب أن تكون هذه البلدان من الناحية الاقتصادية مستهلكة، بمعنى أن تنفق أموال النفط الذي ينتزع بالمجان تقريباً من أيديهم للاستيراد والاستهلاك حتى تزدهر المصانع الغربية.

وخامساً: يجب أن تكون متخلفة من الناحية العلمية، ولا يسمح لها بالتقدم علمياً.

وهذه النقاط التي أذكرها هنا، أذكرها بنحو مختصر، وإلا، يمكن أن يؤلف فيها كتب وأن تذكر تفاصيل كثيرة بشأن كل واحدة منها.

كيف حالوا في بلدنا إيران وفي بعض البلدان الأخرى دون تنمية العلوم وتعميقها، وكيف أرادوا أن تكون شعوب هذه المنطقة من الناحية الثقافية مقلدة محضة للأوروبيين، وأن تكون من الناحية العسكرية ذليلة وضعيفة وهشة، ومن الناحية الأخلاقية فاسدة ومنحطة، بمختلف أشكال الفساد، ومن الناحية الدينية سطحية تماماً، وقانعة بنوع من التدنّي الفردي، وربما الشكلي أيضاً.

هذه هي الصورة التي رسموها لأنفسهم عن هذه المنطقة، وخطّطوا سياساتهم على هذا الأساس.

وربما اجتمع الخبراء الإستراتيجيون الغربيون آلاف الساعات، ودرسوا هذه القضايا، وفكّروا، ووضعوا البرامج، وعيّنوا عناصرهم هنا في بلدان هذه المنطقة لينفذوا الأمور والأعمال بواسطتهم.

وفق هذا التحليل يمكن إدراك سلوك رضا خان بصورة صحيحة، ويمكن كذلك إدراك ما قام به مصطفى كمال في تركيا، وآخرون وآخرون. هذه كانت برامجهم وخططهم.

وقد نجحوا.. نجحوا في ذلك قبل انتصار الثورة الإسلامية، باستثناء فترات قصيرة من الزمن، وفي بعض المسائل المحدودة. في مصر - مثلاً - باستثناء عدة سنوات، تولّت فيها الأمور حكومة وطنية، وفي إيران بشكل آخر، وفي أماكن أخرى بأشكال أخرى.

ولكن على العموم، وحين ننظر للأمور بشكل مطلق، فقد تقدّم هؤلاء على كافّة المستويات، لولا هذه الحادثة الكبرى التي وقعت فجأة قبل الثورة، وهذا الانفجار العظيم الذي غيّر كلّ أوضاعهم، فقد ظهر في الشعب الإيراني رجل عالم متميّز حكيم فقيه مجاهد شجاع مخاطر نافذ الكلمة باسم الإمام الخميني، وقد كان ظهور هذا الرجل ووجوده وتربيته هذا الإنسان الكبير من فعل الله حقاً.

كان تقديراً إلهياً أن يقع مثل هذا الحدث. وقد كان الشعب الإيراني مستعداً فتقبّل الأمر ورحب به، وألقى بنفسه في الأهوال والمخاطر، ونزل إلى الساحات، وضحّى بنفسه وماله، ونجح في الامتحان، لذلك كانت الثورة الإسلامية، وتغيّرت كلّ هذه الحسابات، واضطربت، واختلّت.

ظهرت الثورة الإسلامية في إيران بقوة، واستمرت بقوة، ولم يكن الأمر بحيث تتصاعد حالة الهياج والحماس في السنة الأولى والثانية والثالثة ثم تنتهي الأمور، لا، بل لقد تواصل الأمر ووقف الإمام كالجبل الراسخ، ووقف الشعب وراء الإمام كالجبل الشامخ أيضاً. وبذلت جبهة الأعداء - إذ لم يكن

العدو واحداً، ولكنهم اجتمعوا في جبهة واحدة - كل ما استطاعت من الجهود والمساعي، وفعلوا كل ما كانوا يستطيعون فعله، ابتداءً من حروب الشوارع، إلى الحروب القومية، إلى الانقلاب العسكري، إلى فرض حرب السنوات الثماني، إلى الحظر الاقتصادي، إلى إطلاق آلة حرب نفسية هائلة طوال اثنين وثلاثين عاماً.. ومنذ اثنين وثلاثين عاماً والحرب النفسية ضد الشعب الإيراني وضد الثورة وضد الإمام قائمة.. ومارسوا الكذب وتوجيه التهم وبث الإشاعات، وسعوا لزرع الخلافات وتحريف السبل في الداخل.

كانت الأهداف التي يسعون إليها بالدرجة الأولى إسقاط الثورة ونظام الجمهورية الإسلامية. كان الإسقاط هدفهم الأول، وهدفهم الثاني أنه إذا لم يتحقق إسقاط نظام الجمهورية الإسلامية فسيسعون لمسح الثورة وتحويلها، فتبقى صورة الثورة، ويزول باطنها وروحها.

وكان الهدف الثالث، ولا يزال، هو أنه لو بقي النظام الإسلامي فيمكن دس عناصر من ضعيفي النفوس فيه، والاستفادة منهم، وجعلهم أطرافه الأصليين الذين يتعامل معهم في خصوص قضايا البلاد. وبالتالي يريدون أن يكون هناك نظام لا يمتلك القدرة الكافية، ويكون ضعيفاً ومطيعاً - المهم هو أن يكون عميلاً ومطيعاً - ولا يقف في وجه أمريكا. هذه هي أهدافهم.

وقد أخفقت هذه الأهداف وهذه المراحل لحد الآن ولم يستطيعوا تحقيقها. طبعاً هم بذلوا الكثير من المساعي وتابعوا ممارسات متنوعة - سوف أشير إلى بعضها خلال حديثي - ولم يدخروا أي جهد، لكنهم لم ينجحوا؛ لأن الشعب كان يقظاً. فنحن لدينا في المجتمع نخب جيدة، وشعبنا شعب صالح جيد، ولدينا أيضاً مسؤولون جيدون. ولم يستطع العدو لحد الآن - والحمد لله - تحقيق

شيء من أهدافه، فلقد واصلت الثورة طريقها وتقدّمت.

:

والآن نسأل: ما الذي حدث في هذه الثورة؟

الثورة التي حدثت في إيران أوجدت تغييرات تعتبر مهمّة من حيث العمق، فهي تغييرات أساسية. على أساس هذه التغييرات يمكن التقدّم بالمجتمع وإيجاد تغييرات واسعة. لقد أرسيت هذه الدعائم الأصلية بشكل متين ومحكم. أذكر هنا بعض التغييرات التي وقعت. وهي طبعاً مما يعلمه الجميع ونعلمه كلّنا، وهي أمور أمام أعيننا، ولكن، كما يلفت الله تعالى أنظارنا في القرآن الكريم إلى الشمس؛ إذ يقول: {وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا} [الشمس: ١]، مع أنّ الشمس شاخصة أمام أعيننا، لكنّه يقسم بها لنتنبه إلى أنّ هذه الظاهرة، وهذه الحادثة، وهذا الموجود له كلّ هذه العظمة.. نحن كذلك يجب علينا التنبّه لهذه الظواهر العظيمة المحيطة بنا. لذلك، فإنّ ذكر هذه الأمور ضروريّ ويجب أن نتوجّه وننتبه لها.

أولاً:

كان النظام الحاكم في البلاد قبل الثورة نظاماً محارباً للإسلام بشدّة. كانوا يسعون بجهد لاستئصال جذور الإيمان الإسلامي لدى الشعب، والأمثلة والشواهد والخواطر في هذا المجال كثيرة في بالي، ولكن لا فرصة لها هنا لاستعراضها. وجاءت الثورة لتكون على الضدّ من ذلك مئة وثمانين درجة، فجعلت الإسلام محوراً لإدارة البلاد، وأقرّت الأحكام والقوانين الإسلامية على أنّها المعايير والموازين لقبول القوانين أو رفضها، مضافاً إلى كونها المعايير لعمل الجهات التنفيذية في البلاد.

وثانياً:

كان البلد قبل الثورة يعيش التبعية من الناحية السياسية، أي: أن الحكومة ومحمد رضا (الشاه) نفسه والأجهزة المختلفة كانت مطيعة لأمريكا، وتنتظر إشارات أمريكا.

وهنا أيضاً الشواهد كثيرة، نجد شخصاً يقوم ويذهب من هنا إلى أمريكا (الدكتور أميني) من أجل أن يقنع الأمريكيان بأن يكون هو رئيساً لوزراء إيران. وعاد وصار رئيساً للوزراء. ثم بعد سنة أو سنتين ذهب الشاه - وكان غير راغب فيه - إلى أمريكا وأقنع الأمريكيان بأن يعزله عن رئاسة الوزراء، وعاد فعزله عن رئاسة الوزراء! كان هذا واقع بلدنا آنذاك. من أجل انتخاب رئيس الوزراء كان الشاه ورئيس البلاد بحاجة لموافقة الأمريكيان ورضاهم! وفي كثير من الأمور كان الشاه يدعو سفير أمريكا وسفير بريطانيا إلى قصره ليعرض عليهم القرار الذي يريد اتخاذه! وإذا خالفوا فإنّ القرار لا يجد طريقه للتطبيق العملي! هذه هي التبعية السياسية. كانوا مطيعين لأمريكا، وقبل الفترة الأمريكية أيضاً كانوا مطيعين لبريطانيا. البريطانيون أنفسهم جاءوا برضا خان إلى السلطة، وحينما وجدوا أنه لم يعد ينفعهم عزله عن السلطة وطرده من البلاد وجاؤوا بابنه إلى السلطة. كان هذا قبل الثورة.

فلما جاءت الثورة حققت للبلد استقلاله السياسي الكامل. في هذا العالم الكبير اليوم، وبين هذه القوى الكبرى، لا توجد أية قوة تستطيع أن تزعم أنّ إرادتها لها تأثير على إرادة مسؤولي البلاد أو الشعب الإيراني. وهذه النقطة بالذات - أي: الصمود والاستقلال والعزة السياسية - لها أكبر جاذبية في نفوس الشعوب. حين ترون أنّ الشعوب تحترم الشعب الإيراني الكبير، فإنّ الجانب الأكبر من هذا الاحترام يعود لهذا السبب.. الاستقلال السياسي.

وثالثاً:

قبل الثورة كان نظام الحكم ملكياً، والطرف المقابل لذلك هو الديمقراطية.

والشعب لا شأن له ولا دور في نظام الحكم الملكي. وأمّا في نظام الحكم الديمقراطيّ فالشعب هو الكلّ في الكلّ.  
ورابعاً:

كان الحكم وراثيّاً قبل الثورة. يموت واحد ويعيّن آخر مكانه. أي: أنّ الناس لم يكن لهم أيّ دور، كانوا مضطّرين للقبول شأؤوا أم أبوا. وفي الجمهوريّة الإسلاميّة، وبركة الثورة، فإنّ الدولة منتخبة، والناس هم الذين ينتخبون، وذوق الناس وإرادتهم هي الحاسمة.

وخامساً:

قبل الثورة كانت الحكومة ديكتاتوريّة استخباريّة.. ديكتاتوريّة صعبة سوداء، ثمّ جاءت الثورة فجعلت الأجواء حرّة.. أجواء النقد والإصلاح والتذكير والتنبيه، وحتى أجواء المخالفة والاعتراض فتحتها الثورة أمام الناس. هكذا كان الوضع طوال هذه الأعوام الاثنى والثلاثين الماضية، بما في ذلك أيضاً سنوات بداية الثورة.

وسادساً:

قبل الثورة كان اعتماد البلد في العلوم والتقنيات على الغرب تماماً. وقد قلت مراراً: إنّ بعض قطع طائراتنا العسكريّة حينما كانت تتعطلّ أو تستهلك، وكان يراد إصلاحها، لم يكونوا يسمحون للمهندسين الداخليين في القوّة الجوية بفتح هذه القطعة ليروا ما هي، ناهيك عن أن يفكّروا هم في تصليحها!! كانوا يضعون القطعة في طائرة ويأخذونها إلى أمريكا ليأتوا بغيرها مكانها، أو إذا كان المقرّر إصلاحها كانوا هم أنفسهم يصلحونها. لم تكن هناك صناعة، كانت الصناعة تجميعيّة محضة من دون أيّ ابتكار. ثمّ بعد الثورة، توفّرت الثقة العلميّة بالذات، وتحقّق الاعتماد الوطنيّ على النفس. وها هم كلّ هؤلاء العلماء البارزين والكبار في مختلف حقول العلم. لدينا اليوم علماء في داخل البلاد



أمثالهم في العالم معدودون وقليلون جداً، فقد تقدّم علماؤنا جيّداً، ومعظمهم من الشباب.

وسابعاً:

قبل الثورة لم يكن لإيران أيّ تأثير في القضايا العالميّة، وحتى في قضايا المنطقة. كان البلد مهاناً، ولم يكن بمقدوره ترك أيّ تأثير في القضايا المختلفة. وأمّا بعد الثورة، فقد تحقّقت للشعب عزّة وعظمة في أنظار شعوب العالم، وأصبح له تأثير في قضايا المنطقة إلى درجة بهرت الأعداء، وفرضت عليهم الاعتراف بذلك. لاحظوا اليوم المواقع الإلكترونيّة التي تورد الأخبار الأجنبيّة، يتحدثون فيها دوماً عن نفوذ إيران وتمكّنها وتواجدها وحضورها في قضايا المنطقة. يذكرون ذلك حتى بدوافع مغرضة أحياناً، ولكنهم يعترفون به على كلّ حال.

وثامناً:

على الصعيد الثقافيّ، كنّا قبل الثورة مقلّدين فقط، وأمّا بعد الثورة فقد عرفنا مخاطر الغزو الثقافيّ.

هذه هي الأمور الأساسيّة.

وحينما يتمّ إرساء مثل هذه الدعائم في بلد عندئذ يستطيع الشعب أن يكون متفائلاً بأنّه يستطيع أن يبني على هذه الدعائم صرح حضارة جديدة وعظيمة، وكلّ واحدة من هذه الخصوصيات تستقطب أنظار الشعوب بنحو من الأنحاء. تنظر الشعوب الأخرى فترى وتنجذب وتثني وتمدح، والأهمّ من كلّ شيء طبعاً هو حالة الاستقلال السياسيّ والصمود في مقابل عسف الأعداء.

أروي هنا رأياً لأحد علماء الغرب، مع أنّه ليس من دأبي أن أنقل شيئاً من أقوال الساسة الغربيّين وثنائهم. لكنّ عبارته هذه ملفتة، فهو يقول: شيئان إذا تداولهما المسلمون من يدٍ ليد وتعرّفت عليهما الشعوب المسلمة فسوف تتحطّم

جميع المحرّمات الغربيّة وتصبح باطلاً. فما هما هذان الشيئان؟ يقول هذا المفكرّ الغربيّ: أحدهما دستور الجمهوريّة الإسلاميّة، وهو الدستور الذي يوفّر نظام حكم جماهيريّ شعبيّ تقدّميّ عصريّ، وفي الوقت نفسه: دينيّ، أمام أنظار المسلمين في العالم. إنّه دستور يدلّ على أنّ بالإمكان تأسيس نظام حكم يتّصف بالحدّاتة والعصريّة والتقدّم ويكون دينياً تماماً.

هذا أحد الشيئين، والثاني: ملفّ النجاحات العلميّة والاقتصاديّة والسياسيّة والعسكريّة للجمهوريّة الإسلاميّة، وهو ما لو توفّر للمسلمين لوجدوا أنّه أمر ممكن وقد حصل. يقول: لو أنّ الشعوب المسلمة اطلّعت على هذه الإمكانية وأنّه قد تحقّق في إيران الإسلاميّة اليوم بنحو نسبيّ، ولو وُضع كلّ هذا أمام أنظارهم، فلن يعود بالإمكان الحؤول دون قيام سلسلة من الثورات. ولقد حصل هذا الشيء اليوم، وإن كانت بداية حدوثه منذ ثلاثين عاماً. فهي فكرة تتموضع تدريجياً وبصورة هادئة في أذهان الشعوب، وتنمو وتنضج لتبرز بهذا الشكل الذي تشاهدونه حالياً في شمال أفريقيا وفي المناطق الأخرى.

طبعاً لقد ارتكب الغربيّون أنفسهم أخطاء سياسيّة، وقد ساعدت هذه الأخطاء السياسيّة الجمهوريّة الإسلاميّة، فهم أخطأوا في خصوص الملفّ النوويّ الإيرانيّ، حيث ضخّموا القضية النوويّة الإيرانيّة من أجل أن يواجهوها، وأثاروا حولها الضجيج ومارسوا الضغوط، وقالوا: إنّ على الجمهوريّة الإسلاميّة التراجع عن قضيتها النوويّة.

ولكن اتّضح للناس في العالم طوال هذه الأعوام السبعة شيئان: أحدهما: هو أنّ إيران استطاعت تحقيق تقدّم لم يكن متوقّعاً في الملفّ النوويّ.

والثاني: هو أنّ إيران صمدت ولم تتراجع على الرغم من كلّ هذه الضغوط. وهذا لصالح الشعب الإيراني. والآن يعلم العالم كلّهُ أنّ أمريكا وأوروبا وأعوانهم وأتباعهم، بالرغم من كلّ الضغوط التي مارسوها لم يستطيعوا التغلّب على الجمهوريّة الإسلاميّة وفرض التراجع عليها. هذا ما انتشر وعمّ الأرجاء على أيدي أعداء الشعب الإيراني أنفسهم، أي أنّ هؤلاء ساعدوا على تعريف الشعب الإيراني.

وكذلك كان الحال في القضايا الأخرى، فقد أثاروا ضجيجاً هائلاً حول حظر تصدير البنزين إلى إيران، وكانت النتيجة: أنّنا كنّا ولا نزال من مستوردي البنزين. وقالوا: نريد منع دخول البنزين إلى إيران، وأثاروا الضجيج حول هذا الموضوع، وراح محلّلوهم يخبّرون أنّ البلاد ستضطرب، وأنّ الناس ستفعل كذا وكذا. ولكنّ هذا دفع المسؤولين هنا إلى أن يفكّروا بإنتاج المزيد من البنزين، واليوم - بحسب التقرير الذي عندي - فحتى الثاني والعشرين من بهمن - بتوفيق من الله - سوف تستغني بلادنا عن استيراد البنزين تماماً.. وستمكن بعد الآن حتى من تصدير البنزين إن شاء الله.

هكذا كان الحال أيضاً بالنسبة لخطر الأسلحة في فترة الحرب. وكذا في قضية خلق تيّار إسلاميّ متطرّف، خلقوا في جوارنا تيّاراً إسلامياً متطرّفاً من أجل إزعاج الجمهوريّة الإسلاميّة والإضرار بها، ولكنّه الآن أصبح آفةً عليهم، حتى أنّهم لا يستطيعون السيطرة عليه والحوّل دونه، ولا يدرون كيف يعالجون الأمر.

وكذا الحال بالنسبة لبثهم الخلافات الطائفيّة. وكذا الحال في فتنة سنة ١٣٨٨ (هـ. ش) حيث أثاروا الكثير من الضجيج والصخب، وقالوا: إنّ الجمهوريّة الإسلاميّة انتهت، والخلافات انتشرت، وحدث كذا وكذا... ولكنّهم نظروا فوجدوا أنّ الشعب الإيراني قد تغلّب على الأزمة، وقد كان التاسع من دي

والثاني والعشرين من بهمن العام الماضي من أيام الله بالمعنى الحقيقي للكلمة، فالقلوب بيد الله، وقد جاء الله تعالى بهذه القلوب إلى وسط الساحة، وأبدى الشعب الإيراني عظمته وأثبتها.

وهكذا.. كل ما فعلوا شيئاً انتهى بضررهم، وسيكون الأمر كذلك بعد الآن أيضاً. هذا واقع مشهود في العالم حالياً. فهم أرادوا شيئاً وما حصل كان شيئاً آخر.

:

وأما النقطة الثانية التي يجب أن أتعرض لها هنا فهي أننا لو أردنا تشخيص أهمية أية ظاهرة وتشخيص نجاحها فيجب أن ننظر كم استطاعت هذه الظاهرة أن تكون نموذجية ومثالاً يحتذى، وكم استطاعت الصمود والاستقامة والثبات والبقاء على مبادئها وكلامها. وهكذا هو الحال بالنسبة للثورات، فإذا أرادت الثورة التأثير على أذهان الآخرين وممارساتهم، والتحول إلى نموذج لهم فيجب أن تتحلّى بخصوصيات عدّة، أهمّها: الثبات والاستقامة والصمود؛ فإنّ الفلبرق الذي يقدر في مكان ثم ينطفئ لا يمكنه أن يعدّ نموذجاً ومثالاً، ولا يمكنه ترغيب الآخرين بأن يتبعوه، وقد استطاعت ثورتنا أن تكون ملهمة، وأن توفر نموذجاً ومثالاً، وقد كان هذا نتيجة الثبات والاستقامة والصمود على المبادئ والأركان الرئيسية التي أعلنها الإمام الخميني أهدافاً لهذه الثورة.

لقد استطاعت هذه الثورة أن تصمد، ويمكن أن نذكر أمثلة عدّة في هذا الباب، منها - مثلاً -:

(

قال الإمام منذ البداية: إنّ ثورتنا إسلامية، وتقوم على أساس الإسلام، وثار

ضحيج كبير في العالم، قالوا: الإسلامية لا تجتمع مع الديمقراطية، والإسلامية رجعية وتأخر، والأحكام الإسلامية لا يمكن تطبيقها .. و... وراح البعض في الداخل يكرّر هذه الأصوات، وكتبوا الكتب والمقالات، وبثّوا الإشاعات من أجل فرض التراجع عن الالتزام بالإسلام على الجمهورية الإسلامية. ولكنّ الجمهورية الإسلامية صمدت وثبتت، ولم تستسلم للضحيج والصخب. نعم، نحن إسلاميون، ونفخر بهذا، ونثبت أن هذا هو سبيل إنقاذ البشرية. هذا ما أعلنته الجمهورية الإسلامية بصوت عالٍ للعالم كله.

انظروا إلى مجتمعنا اليوم بعد ٣٢ سنة. السلوكيات اليوم إذا لم تكن أكثر إسلامية من اليوم الأوّل، فهي على الأقل، بنفس المستوى في اليوم الأوّل لانتصار الثورة. حتى الشباب الذين لم يروا الإمام ولم يعاصروا فترة الحرب ولا يتذكّرون شيئاً عن الثورة نرى أن التزامهم بمباني الإسلام أفضل وأقوى من بعضنا نحن الشيوخ. ومسؤولوا هذه البلاد يفخرون بالإسلامية.

طبعاً طوال هذه الأعوام الـ ٣٢ جرت محاولات عديدة، وقد كان هناك بعض الأشخاص - حتى داخل المنظومة الحكومية - يحاولون أن يسلكوا سبلاً ملتوية ليتعدوا تدريجياً، لكنهم لم يستطيعوا، بل ثبتت الجمهورية الإسلامية على مبادئها وإسلاميتها.. هذا نموذج.

(

أعلن الإمام الخميني منذ اليوم الأوّل أنّ الشعب يجب أن يدلي برأيه، سواء في أصل انتخاب الجمهورية الإسلامية، أو في تدوين الدستور، أو في قبول الدستور الذي تمّت المصادقة عليه في مجلس الخبراء، أو في انتخاب رئيس الجمهورية، أو في انتخاب المجلس.. ثبت الإمام.. ومضى على الثورة ٣٢ سنة، وإذا أحصينا الانتخابات والاستفتاءات التي أُقيمت لكان لنا ٣٢ مشاركة

انتخابية جماهيرية - بمعنى: أنه كان لدينا في كل عام عملية انتخابات واحدة كمعدل وسطي - توجهت فيها الجماهير نحو صناديق الاقتراع وأدلت بأصواتها وانتخبت.

إنّ انتخاب الشعب مهمّ جدّاً، وقد كانت طهران في فترة الحرب المفروضة على إيران تحت القصف والنيران، ولكن مع ذلك، لم تتعطّل فيها الانتخابات، ولا في المدن التي كانت تحت مرمى القصف الصاروخي لنظام صدام البائد خلال فترة الحرب. وفي إحدى دورات مجلس الشورى ضغطوا لتأخير الانتخابات لأسباب سياسية تتعلق بهم، لكنهم لم ينجحوا. لم يحصل تأخير حتى اليوم واحد في انتخابات الجمهورية الإسلامية ومشاركة الجماهير لحدّ الآن. هذه هي الديمقراطية.

قالها الإمام الخميني منذ اليوم الأوّل، وبقيت الجمهورية الإسلامية ثابتة على هذه الديمقراطية، ولم توافق على تجاوز الديمقراطية. واليوم، فإنّ مسؤولي البلاد، ابتداءً من خبراء القيادة الذين ينصبون القائد ويعزلونه، إلى رئاسة الجمهورية، إلى مجلس الشورى، إلى المجالس البلدية، هم جميعاً من المنتخبين من قبل الشعب. وقد تولّت الأمور تيارات متعدّدة، وليس تياراً واحداً فحسب، منذ اليوم الأوّل حتى الآن تولّى الأمور عدد من رؤساء الجمهورية، وكان لكلّ واحد منهم توجهاته وميوله السياسية، لكنّ المهمّ أنّهم بأجمعهم تولّوا الأمور بانتخابٍ من الشعب.

أعلن الإمام الخميني مبدأ العدالة منذ اليوم الأوّل، والعدالة الاجتماعية أصعب من جميع هذه الأمور والمهمّات. بل أقول: إنّ تكريس العدالة الاجتماعية أصعب من الحفاظ على الديمقراطية، وسائر المهمّات في الجمهورية الإسلامية.

إنّها عملية صعبة جدّاً. ولا نقول: إنّنا استطعنا إلى اليوم تكريس وتحقيق العدالة الاجتماعية بشكل كامل، لا، بل لا تزال المسافة بعيدة جدّاً. لا تزال المسافة كبيرة بين العدالة التي أرادها منّا الإسلام وما هو موجود اليوم في مجتمعنا، بيد أنّ المسيرة نحو العدالة الاجتماعية لم تتوقف، وهي مستمرة، وتتصاعد يوماً بعد يوم.

التحرّك باتجاه العدالة الاجتماعية أشدّ حالياً من الأعوام والدورات الماضية. ومن المصاديق المهمة للعدالة الاجتماعية التقسيم والتوزيع المناسب للفرص في البلاد. في الأنظمة الغافلة عن حقيقة العدالة الاجتماعية، يتمّ التشديد على طبقة خاصّة وعلى مناطق خاصّة من البلاد، ولكن في الجمهورية الإسلامية، كلّما مضى الزمن وتقدّمنا - وقد مضى لحدّ الآن ٣٢ عاماً - نجد أنّ هذا المعنى يتكرّس ويقوى أكثر فأكثر. فالقرى تدرج ضمن مناطق المراقبة والاهتمام، وكذلك المدن النائية. كلّ هذا البناء للمساكن في القرى والأرياف، وكل هذا المدّ للطرق نحو المدن البعيدة والقرى في البلاد.. طرق التواصل، والاتّصالات على اختلاف أشكالها، وتوصيل الطاقة الكهربائية والمياه الصالحة للشرب والهاتف وإمكانيات الحياة.. كلّ هذه الأمور تمّ توزيعها في مختلف أنحاء البلاد.

هذه الأسفار والزيارات التي يقوم بها المسؤولون للمحافظات والمدن، وبعض هذه المدن البعيدة لم يكن أهاليها يتصوّرون يوماً أن يشاهدوا مسؤولاً من الدرجة الثانية، ويرون اليوم أنّ مسؤولي البلاد رفيعي المستوى يزورونهم. وهذا شيء على جانب كبير من الأهميّة والقيمة. حينها يذهب المرء إلى تلك الأماكن ويشاهد ما فيها من مشاكل فسوف تتوفّر له المحفزات لمعالجتها، وهذا هو تحقيق العدالة الاجتماعية. فنحن - إذاً - نسير باتجاه العدالة الاجتماعية.

إنّ ما يشاهده المرء من حياة المسؤولين في العالم إنّما هو حياة باذخة وارشتراطيّة، الذين يصلون إلى الحكم ويتولون رئاسة الجمهورية أو مناصب

رفيعة تنقلب حياتهم رأساً على عقب. لكن الأمر ليس كذلك في بلادنا. طبعاً أمثالي يجب أن يطابقوا حياتهم مع أضعف وأفقر شرائح المجتمع، وأمّا حياة مسؤولي البلاد، فهي - والحمد لله - كحياة الطبقة المتوسطة من الناس، وبعضهم دون ذلك. وهذا شيء قيم جداً.

ونحن صامدون في هذا المجال أيضاً، وهي عملية صعبة، لكنّ الجمهوريّة الإسلاميّة استطاعت إنجاز هذه المهمّة الصعبة بنجاح. كان هناك الكثيرون يقولون منذ بداية الثورة: ما دامت الثورة قد انتصرت فلنكتفٍ ولنذهب وننهي الأمور مع الأمريكيّين! ومعنى هذا هو تخطئة شعار مقارعة الظلم في هذه الثورة. كانوا يشجّعون على هذا. وقد كان هناك على مرّ الزمن من يريدون ذلك، أن نذهب ونتماشى مع أمريكا، وأن ننضوي تحت مظلة ورعاية من هم أعداؤنا الأصليّون. ومعنى هذا الكلام: بيع القضية الفلسطينيّة وغضّ النظر عن جرائم أمريكا في العراق وأفغانستان وأمثال ذلك. ومعناه أيضاً: غصّ الطرف عن كلّ هذا الظلم الذي تمارسه أمريكا في العالم. ومعناه: عدم الاعتراض على هذه الأمور والقضايا.

إنّ تطبيع العلاقات يعني: أن لا يعود الشعب الإيرانيّ والمسؤولون الإيرانيّون قادرين على التصريح باعتراضاتهم وإطلاق كلامهم، وسيضطّرون تدريجيّاً في مرحلة مقبلة إلى قبول كلام أولئك.

وقد كانت هذه الاستقامة صعبة جداً، لكنها كانت مباركة واستجلبت الرحمة الإلهيّة، ولفتت أنظار الشعوب. إنّ صمودكم أيّها الشعب الإيرانيّ في هذه الأعوام الاثني والثلاثين على الشعارات الأصليّة للثورة كانت فيه بركة كبيرة هي أن ينظر لكم العالم الإسلاميّ اليوم بعين الإعظام والإجلال.



حينما يزور المسؤولون في بلادكم البلدان المختلفة، فإنهم يستقبلونهم بكلّ حفاوة وترحيب. وعندما يحسب المراقبون شعبية الشخصيات السياسية يقف مسؤولو بلادكم في المرتبة الأولى. لقد أصبح ما قام به الشعب الإيراني نموذجاً يحتذى به. وتلاحظون اليوم علامات ذلك. ولن تتضح هذه البركة الكبرى على حقيقتها إلا بمضي الزمن.

وهذه مصر اليوم يُسمع فيها أصداء أصواتكم. ومنذ أيام قليلة، تحدّث الرئيس الأمريكي الذي كان رئيساً لأمريكا في زمن انتصار ثورتنا، في مقابلةٍ معه، وقال: إنّ الأصوات التي تُسمع في مصر اليوم معروفة عندي! يريد أن ما يُسمع في القاهرة اليوم كان يسمع في طهران أيضاً أيام رئاسة جمهوريته. هذا ما يقوله العالم كلّه ويصدّق به، لذلك، فإنّ أيام عشرة الفجر في بلادنا لهذا العام مهمّة وحساسة وحاسية.

أذكر بعض النقاط حول الأحداث الجارية في مصر وتونس، إنّها أحداث مهمّة جدّاً، وهي زلزال حقيقيّ. إذا استطاع الشعب المصري بعون الله وتوفيقه أن يحقّق هذا الأمر، فإنّ ما سيكون بالنسبة للسياسات الأمريكية في المنطقة هو هزيمة لا تُعوّض. وربما كان الإسرائيليّون اليوم أشدّ قلقاً من المسؤولين الهاربين من تونس ومصر أنفسهم. إنّ الأعداء الصهاينة قلقون أكثر من الجميع؛ لأنّهم يعلمون أنّ حدث عظيم سيقع في هذه المنطقة لو أنّ مصر تخلّت عن تحالفها معهم، وتموضعت في مكانها الحقيقيّ. وحينئذٍ: سوف تتحقّق التخمينات التي كان إمامنا الجليل قد تنبأ بها. لذا، فالأحداث مهمّة جدّاً.

وفي التحليلات العالمية يحاولون تجاهل السبب الأصلي لهذه الانتفاضات، هم يشيرون فقط إلى الشؤون الاقتصادية وغير الاقتصادية، والتي شؤون مؤثّرة

بالطبع، غير أنّ العامل والسبب الرئيسي لهذه الحركة الجماهيرية العظيمة في تونس أولاً، ثمّ حين بلغت ذروتها في مصر، إنّما هو شعور الجماهير بالمهانة والإذلال نتيجة الوضع الذي أوجده رؤساؤهم، الجماهير أهينت، وقد شعرت بأنّها أهينت. وقد أذلّ (لامبارك) مصر هذا الشعب المصريّ.

لقد كان رئيس جمهورية تونس الهارب تابعاً لأمريكا تماماً، بل لدينا تقارير تفيد أنّه كان تابعاً لـ (السي آي أي) الأمريكي، أي: لأجهزة التجسس الأمريكية. لاحظوا كم من الصعب على الشعب أن يكون رئيسه - وخصوصاً إذا كان على تلك الحالة من التبخر والغرور والتكبر والسوء - خادماً رسمياً للأجهزة الأمريكية، فهو قد حكم الناس سنين طوالاً بكلّ شدة وحدة، وكان حكمه ضدّ مصالح الناس، ومن جملة ذلك ضدّ الدين. ومع أنّ تونس بلد مسلم وله تاريخ إسلامي طويل، ومفاخر ورموز في الثقافة الإسلامية، فقد كان الناس في زمن «بن علي» إذا أرادوا الذهاب للمسجد وجب عليهم الحصول على بطاقة خاصّة.. بطاقة الدخول للمسجد التي تمنحها الحكومة، وهي لم تكن تمنحها للجميع! لم يكونوا يسمحون للناس بالذهاب إلى المسجد. كانت الصلاة في المساجد ممنوعة حتى فرادى، ناهيك عن صلاة الجماعة.. وكانت إقامتها في العلن ممنوعة. كما أنّه منع الحجاب بشكل رسمي. لذلك كان من المحفّزات المهمة التي حرّكت الناس مطالبتهم بالإسلام. ومن هنا رأينا أنّه بمجرد أن هرب هذا الخائن من بلاده وتغيّرت الأوضاع ذهبت الفتيات الجامعيّات إلى جامعاتهنّ بالحجاب. وهذا دليل على الدوافع الإسلامية العميقة. وهذا ما يريد المحلّلون الغربيّون كتمانهم وإخفائه.

والحافز الآخر هو رفض التبعيّة لأمريكا، وهذا شيء على جانب كبير من الأهميّة. لا يرغب الأمريكيّون أن يقال: إنّ التبعيّة هي سبب نهضة الشعب في تونس أولاً، ثمّ في مصر، حيث بلغت النهضة ذروتها. هذه هي حقيقة القضية.

طبعاً حدث في تونس تغيير سطحيّ. هرب «بن علي»، لكنّ أجهزته بقيت تتولّى الأمور. نرجو أن يتفطن الشعب في تونس إلى موقعه جيّداً لئلا يستطيع العدو - لا سمح الله - أن يحدّعه.

وأما مصر.. فهي بلد مهمّ جداً.

مصر كانت البلد الإسلاميّ الأوّل الذي تعرّف على الثقافة الغربيّة، حيث كانت بدايات ذلك في أواخر القرن الثامن عشر، حدث ذلك لمصر قبل كلّ البلدان. كانت مصر أوّل بلد من بين البلدان الإسلاميّة تعرّف على الثقافة الأوروبيّة، كما كان أوّل بلد إسلاميّ وقف بوجه تلك الثقافة الأوروبيّة والغربيّة وأدرك معايها وقاومها. السيّد جمال الدين الكبير، ذلك الرجل الإسلاميّ الشجاع المناضل العظيم، وجد أنّ أفضل مكان لنضاله هو مصر.. ومن بعده جاء تلامذته: محمّد عبده، وغيره. الحركات الإسلاميّة في مصر لها مثل هذه السابقة. ولدى المصريّين شخصيّات كبيرة في المجال السياسيّ والمجال الثقافيّ، وكلّهم من أنصار الحرّيّة.

وبذلك أضحت مصر قائدة العالم العربيّ من الناحية الفكرية والسياسيّة، وبقيت البلدان العربيّة لفترة طويلة تنظر لمصر قائدة للعالم العربيّ.

لطالما كان الاستقلال وطلب الحرّيّة يموجان في ذلك البلد، ولكن لم تتوفّر لهذا الشعب فرص جيّدة إلا في فترات قصيرة. كانت مصر أوّل بلد أو أكبر بلد دخل الحرب إلى جانب سوريا من أجل القضية الفلسطينيّة في حين لم يدخل أيّ من البلدان الإسلاميّة الأخرى في هذه الحروب التي كانت مع «إسرائيل»، ووظّفت مصر جنودها وجيشها وشعبها للحرب، ولو لم يوفّقوا في ذلك.. مرّة في سنة ١٩٦٧ وأخرى في سنة ١٩٧٣. هكذا هي مصر. لذلك، فهي تعتبر ملجأ وملاذاً للفلسطينيّين، بل ملجأ للكثير من الثوريّين من البلدان الأخرى أيضاً.

مثل هذا البلد وقع لمدة ثلاثين عاماً في يد شخص ليس من طلاب الحرّية وأنصارها، وليس هذا فحسب، بل هو عدوّ للحرّية. كما أنّه ليس غير معادٍ للصهيونيّة فحسب، بل هو مواكب للصهاينة، ومتعاون معهم، وأمينهم، وهو بمعنّى من المعاني: خادهم.

البلد الذي كانت فيه راية الكفاح ضدّ الصهيونيّة ذات يوم تُلهم العالم العربيّ كلّهُ، وصل به الأمر إلى درجة أنّ الأعداء الإسرائيليين الصهاينة راحوا يعتمدون في كلّ أنشطتهم المعادية للفلسطينيّين على مساعدة هذا «اللامبارك». ففي قضيّة غزّة، لو لم يساعد «حسني مبارك» الإسرائيليين لما استطاعوا محاصرة غزّة. حوَصِر الفلسطينيون في غزّة، وهم على هذه الحالة منذ أربعة أعوام، وفي حرب الـ ٢٢ يوماً احترق رجالهم ونساؤهم وأطفالهم بنيران الإسرائيليين، وماتوا، وتهدّمت بيوتهم، ولم يسمح النظام في مصر لقوافل المساعدات بمدّ يد العون لهؤلاء الناس، لا القوافل التي تأتي من مصر فقط، بل حتى القوافل التي توافدت من البلدان الأخرى، والتي أرادت العبور من مصر، ومنها قوافل الشعب الإيرانيّ، لإيصال المساعدات لهم، لم يسمح لها حسني مبارك بذلك.

هذا هو الوضع الذي كان سائداً في مصر، وهؤلاء الناس الذين نراهم اليوم طُفِح بهم الكيل، فالشعب المصريّ يشعر بالذلّة والمهانة نتيجة مناصرة نظامه الحاليّ لـ «إسرائيل»، وبسبب تبعيّة وطاعته المحضة لأمريكا. وهذا هو السبب الأصليّ للنهضة والتحرك. هذا شعب مسلم، وقد انطلقت تحرّكاته من صلاة الجمعة ومن المساجد، وكانت الشعارات «الله أكبر»، والجماهير رفعت شعارات دينيّة. يريد الشعب المصريّ تطهير نفسه من هذا الذلّ، هذا هو السبب.

إنّ الغربيّين لا يسمحون لهذا التحليل بالانتشار بين الشعوب والرأي العامّ العالميّ، هم يركّزون فقط على المسائل الاقتصاديّة. وهي أيضاً حقيقة طبعاً؛ فإنّ خدمة شخص مثل «حسني مبارك» لأمريكا لم تستطع أن تتقدّم بمصر حتى

خطوة واحدة نحو الازدهار. وإن أربعين بالمئة من سكان مصر البالغين أكثر من سبعين مليون نسمة يعيشون اليوم تحت خط الفقر!

في مدينة القاهرة نفسها، كما ورد في تقارير دقيقة، يعيش مئات الآلاف من فقراء القاهرة في المقابر! هم مشردون يجوبون الصحاري يلوذون بالمقابر. الناس هناك تعيش محنة صعبة. أي: أن الأمريكيين لم يدفعوا حتى أجور هذه الخدمة، وسوف لن يمنحوه أجره اليوم أيضاً.

واليوم أيضاً متى ما هرب من مصر وخرج منها - بعون الله - فليكن على ثقة بأن البوابات الأولى ستُغلق في وجهه هي البوابات الأمريكية، هم لن يسمحوا له بالدخول، كما لم يسمحوا لـ «بن علي»، وكما لم يسمحوا لـ «محمد رضا».. هكذا هم.. ولينظر جيداً الذين تخفق قلوبهم لصداقة أمريكا وإطاعتها إلى هذه النماذج. هؤلاء مثل الشيطان، فالشيطان يسوّل للإنسان ويغويه ثم يضحك عليه ويدير له ظهر المجنّ، ولا يأبه له. وهكذا هم هؤلاء.. الأمريكيون لا يسعون إلا وراء مصالحهم بواسطة هؤلاء الأفراد الضعفاء الأذلاء.

طبعاً الأمريكيون حالياً مضطربون ومتخبطون بشدة، والإسرائيليون متخبطون أكثر منهم، يبحثون عن علاج لقضية مصر، وسوف لن يجدوا علاجاً لذلك، وإنما يعملون الآن على الخداع، فيتحدثون عن مناصرتهم للشعب المصري.

وقد كتبتُ هنا بعض النقاط التي أخطب بها الإخوة العرب أقرؤها:

السلام على أبناء الأمة الإسلامية في كل مكان.

على ساحة العالم الإسلامي اليوم إرهابات حادثة عظيمة مصيرية كبرى.. حادثة تستطيع أن تغير معادلات الاستكبار في هذه المنطقة لصالح الإسلام

ولصالح الشعوب..

حادثة تستطيع أن تعيد العزة والكرامة للشعوب العربية والإسلامية، وتنفض عن وجهها غبار عشرات السنين مما جناه الغرب وأمريكا بحق هذه الشعوب العريقة الأصيلة من ظلم واستهانة وإذلال.

إنّ هذه الحادثة الإعجازية بدأت على يد الشعب التونسي، وبلغت ذروتها بسواعد الشعب المصريّ الرشيد العظيم.

لقد انحبست الأنفاس في صدور العالم الغربيّ والعالم الإسلاميّ - ولكلّ واحد أسبابه - وهم يترقّبون ما سيحدث في مصر الكبرى.. مصر نوابغ القرن الأخير.. مصر محمد عبده والسيد جمال... مصر سعد زغلول وأحمد شوقي، مصر عبد الناصر والشيخ حسن البنا، مصر عام ١٩٦٧ و ١٩٧٣، يترقّبون مدى ارتفاع راية همّة المصريين.

فلو أنّ هذه الراية انتكست - لا سمح الله - فسيعقب ذلك عصر حالك الظلام، وإن رفرت على القمم، فإنّها ستطاول عنان السماء.

الشعب التونسي استطاع أن يطرد الحاكم الخائن المنقاد لأمريكا والمجاهر بعدائه للدين، ولكن من الخطأ الظنّ بأنّ هذه هي النتيجة المطلوبة.

النظام العميل لا يسقط بخروج المكشوفين من رموزه.

لو حلّ محلّ هذه الرموز بطائنها لم يتغيّر شيء، بل إنّ الشراك الذي يُنصب أمام الشعب.

في الثورة الإسلامية الكبرى في إيران حاولوا مراراً إيقاع شعبنا في مثل هذا الفخّ، لكنّ وعي الشعب وقائده الإلهي العظيم أدرك دسيسة الأعداء وأحبطها وواصل الطريق حتى نهايته.

وأما مصر، فإنّ مصر نموذج فريد؛ لأنّ مصر في العالم العربيّ بلد فريد. مصر أوّل بلد في العالم الإسلاميّ تعرف على الثقافة الأوروبية، وأوّل بلد أدرك

أخطار هجوم هذه الثقافة وتصدي لها. إنه أول بلد عربي أقام دولة مستقلة بعد الحرب العالمية الثانية، ودافع عن مصالحه الوطنية في تأميم قناة السويس، وأول بلد وقف بكل طاقاته إلى جانب فلسطين وعُرف في العالم الإسلامي بأنه ملجأ للفلسطينيين.

السيد جمال لم يكن مصرياً، لكنه لم ير في غير شعب مصر المسلم من يفهم همهم الكبير. إن الشعب المصري أثبت جدارته في ساحات النضال السياسي والديني، و سجل مواقفهم المشرفة على جبهة التاريخ. لم يكن محمد عبده وتلاميذه وسعد زغلول وأتباعه أشخاصاً عاديين. كانوا من النوابع الشجعان والواعين الذين يحق لمصر أن تفخر بهم وبأمثالهم.

إن مصر بهذا العمق الثقافي والديني والسياسي قد احتلت - بحق - مكان الريادة في العالم العربي.

إن أكبر جريمة ارتكبتها النظام الحاكم في مصر هي أنه هبط هذا البلد من مكانته الرفيعة إلى مرتبة آلة طيعة بيد أمريكا في لعبتها السياسية على صعيد المنطقة.

إن هذا الانفجار الذي نشهده اليوم في الشعب المصري هو الجواب المناسب لهذه الخيانة الكبرى التي ارتكبتها الدكتاتور العميل بحق شعبه.

إن الساحة توج اليوم بألوان التحليل بشأن نهضة الشعب المصري، وكلُّ يُدلي بدلوه في هذا المجال، غير أن كل من يعرف مصر يفهم بوضوح أن مصر تدافع اليوم عن عزتها وكرامتها.

مصر ابتليت بخيانات صادرت كرامتها.

إن شعباً في ذروة العزة قد أذلّوه إرضاءً لغرور أعدائه وتكبرهم.

إن موقف مصر من القضية الفلسطينية يشكل نموذجاً بارزاً لمكانة مصر.

فلسطين منذ عشرات السنين تشكل أبرز محور في مسائل المنطقة، ومسائل

هذه المنطقة متداخلة مترابطة، بحيث لا يستطيع أي بلد، أو أي شعب، أن يتصور مصيره بمعزل عن القضية الفلسطينية.

وليس ثمة أكثر من جهتين:

إما دعم لفلسطين ونضالها العادل.

أو الوقوف في الجبهة المقابلة.

أما شعوب المنطقة، فقد بيّنت موقفها منذ البداية تجاه هذا الاصطفاف، فحين يتّجه أي نظام حاكم إلى دعم القضية الفلسطينية، فإنّه ينال التفاف شعبه والشعوب العربيّة والمسلمة، ولقد جرّبت مصر ذلك في الستينات وأوائل السبعينات، لكنّه حين يقف في الصفّ الآخر، فإنّ الشعب يعرض عنه، وفي مصر ظهرت الهوة العميقة بين الدولة والشعب بعد اتّفاقيّة العار في «كامب ديفيد».

إنّ الشعب المصريّ استرخى النفس و النفيس لمساعدة فلسطين في الـ ٦٧ و ٧٣، لكنّه رأى بعد ذلك بأنّ عينيه أنّ حكّامه هرولوا على طريق العمالة والطاعة لأمريكا، إلى درجة جعلت مصر حليفةً وفيّةً للعدوّ الصهيونيّ الغاصب. إنّ سيطرة أمريكا على حكّام مصر قد بدّدت كلّ جهود هذا الشعب السابقة في دعم فلسطين، وبدّلت النظام المصريّ إلى عدوّ لدودٍ لفلسطين، وأكبر حامٍ للصهاينة المعتدين، بينما حافظت سوريا - شريكة مصر في حرب الـ ٦٧ و ٧٣ - على مواقفها المستقلّة، رغم ما واجهته من ضغوطٍ أمريكيّة هائلة.

وبلغ بالنظام المصريّ العميل أنّ الشعب المصريّ شاهد لأول مرّة في التاريخ أنّ حكومته تقف في حرب «إسرائيل» على غزّة إلى صفّ الجبهة الإسرائيليّة، ولم تمتنع عن المساعدة فحسب، بل كانت نشطة في دعم جبهة العدوّ.

سوف لا ينسى التاريخ أبداً أنّ «حسني مبارك» هو نفسه الذي وقف بقوة إلى جانب «إسرائيل» وأمريكا في حرب «إسرائيل» وأمريكا على غزّة، حيث قتل



النساء والرجال والأطفال خلال ٢٢ يوماً من القصف المتواصل، وفيما فرض قبل ذلك وبعده على غزّة من حصار ظالم أّية معاناة ومحنة عاشها الشعب المصري تلك الأيام.

شاشات التلفزيون نقلت لنا جانباً من مشاعر المصريين وهم يكون بسبب عدم فسح المجال أمامهم لمساعدة إخوانهم الفلسطينيين. لقد بلغ السيل الزبى بهذا الشعب، ولم يعد يحتمل أكثر هذا الوضع، وما نشاهده في القاهرة وبقية المدن المصريّة هو انفجار هذا الغضب المقدّس وهذه العقد المتراكمة في قلوب الرجال والنساء الأحرار المصريين خلال السنوات الطويلة جرّاء مواقف هذا النظام الخائن العميل المعادي للإسلام.

نهضة الشعب المصريّ المسلم حركة إسلاميّة تحرّريّة، وأنا باسم الشعب الإيرانيّ وباسم الحكومة الثوريّة الإيرانيّة أحيي الشعب المصريّ والشعب التونسي سائلاً الله سبحانه أن يمنّ عليكم بالنصر المؤزّر الكامل. إنني أشعر بالفخر والاعتزاز لنهضتكم.

أيها الإخوة والأخوات المصريين والتونسيين، لا شك أنّ نهضات الشعوب ترتبط بظروفها الجغرافيّة والتاريخيّة والسياسيّة والثقافيّة الخاصّة ببلدانها، ولا يمكن أن نتوقّع أن يحدث في مصر أو تونس أو أيّ بلد آخر ما حدث في الثورة الإسلاميّة الكبرى بإيران قبل أكثر من ثلاثين عاماً، ولكن هناك مشتركات أيضاً، وتجارب كلّ شعب تستطيع أن تكون نافعة للشعوب الأخرى.

وما نراه مفيداً أن نقدّمه من تجارب في الظروف الراهنة هي:  
أولاً:

إنّ نهضة الشعوب هي في الواقع حرب بين إرادتين: إرادة الشعب وإرادة أعدائه. وكلّ جانب كان أكثر وأقوى عزّة وأكثر تحملاً للصعاب فهو متّصر حتّى.

يقول سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠]، ويخاطب رب العالمين رسوله بالقول: {فَلِذَلِكَ فَادِّعُ <sup>ط</sup>وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَبِعْ أَهْوَاءَهُمْ} [الشورى: ١٥].

العدو يسعى بممارسة القوة والخداع أن يوهن من إرادتكم فاحذروا من ضعف إرادتكم.

ثانياً:

العدو يحاول بث اليأس من تحقيق أهدافكم، بينما الوعد الإلهي يقول: {وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} [الفصل: ٥]، فثقوا ثقة تامة لا يعترها تردد بوعد الله المؤكد حيث يقول عز من قائل: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠].

ثالثاً:

العدو يسوق إليكم قواه الأمنية المجهزة كي يبعث الرعب والفوضى بين الناس. لا تهابوهم.. أنتم أقوى من هؤلاء المأجورين. أنتم الآن في مرحلة تشبه المرحلة التي خاطب فيها الله سبحانه رسوله حيث قال: {إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ} [الأنفال: ٦٥].

أنتم تستطيعون بالاتكال على الله والاعتناد على الشباب الغيور أن تتفوقوا على كل عبث وفوضى وإرهاب.

رابعاً:

إن سلاح الشعوب المهم في مواجهة قوى الطغيان والحكام العملاء هو الاتحاد والانسجام. العدو يسعى بأنواع أساليب المكر أن يفتت تلاحمكم، ومن ذلك: إثارة مواضع الافتراق، ورفع الشعارات المنحرفة، وطرح وجوه غير

موثوقة لتكون بديلة للرئيس الخائن. حافظوا على اتحادكم حول محور الدين وإنقاذ البلد من شرّ عملاء العدو.. {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣].

خامساً:

لا تثقوا بما يلعبه الغرب وأمريكا من دور، وما يقومون به من مناوراتٍ سياسيةٍ في نهضتكم. هؤلاء كانوا قبل أيام يدعمون النظام الفاسد، وهم اليوم بعد أن يئسوا من الاحتفاظ به راحوا يعزفون على نغمة حق الشعوب. هؤلاء يسعون بذلك أن يُبدلوا عميلاً بعميل، وأن يسلطوا الأضواء على بعض الوجوه ليفرضوا عملاءهم عليكم. هذه إهانة لمشاعر الشعوب. ارفضوا ذلك ولا تقبلوا بأقل من استقرار نظامٍ كاملٍ مستقلٍّ وشعبيٍّ ومؤمن بالإسلام.

سادساً:

الظرف يتطلب من علماء الدين والأزهر الشريف بتاريخه النضالي المعروف أن ينهضوا بدورهم بشكل بارز، فحين يبدأ الشعب ثورته من المساجد ومن صلوات الجمعة ويرفع شعار «الله أكبر»، فإنّ المتوقّع من علماء الدين أن يتّخذوا موقفاً أبرز، وهو توقّع في محله.

سابعاً:

الجيش المصريّ الذي يحمل على صدره وسام المشاركة في حربين على الأقلّ مع العدو الصهيونيّ يتعرّض اليوم لاختبار تاريخيّ كبير. العدوّ يطمع أن يدفع به لقمع الجماهير. لو حدث هذا - لا سمح الله - فإنّه يشكّل ثغرة لهذا الجيش الفخور لا يمكن سدّها. إنّ الذي يرتعد أمام الجيش المصريّ يجب أن يكون العدوّ الصهيونيّ، لا الشعب المصريّ. ممّا لا شكّ فيه أنّ عناصر من الجيش المصريّ، الذي هو من الشعب ومن أبناء الشعب، ستلتحق بالجماهير إن شاء الله. عندئذ ستكرّر هذه التجربة الحلوة في مصر مرّةً أخرى.

ثامناً وأخيراً:

إنّ أمريكا التي دعمت الحكّام العملاء ثلاثين عاماً خلافاً لإرادة الشعب المصريّ ليست الآن في موقف يؤهلّها أن تدخل في قضية مصر في وساطة أو نصيحة. انظروا بعين الشكّ والتشاؤم في هذا الشأن إلى كلّ توصية وخطوة أمريكيّة ولا تثقوا بها.

أيّها الإخوة والأخوات، نستطيع أن نفهم بوضوح أنّ نهضة الشعب المصري يوجّهها جمع من نخب السياسة والحكّماء بالتشاور والتنسيق بينهم، ونتصرّع إلى الله تعالى أن يأخذ بأيديهم، غير أنّ الذي ذكرناه إنّما هو تجاربنا، وأنا باعتباري أخاً لكم في الدين وانطلاقاً من التزامي الدينيّ قدمت لكم تلك التجارب. يا أبناء الكنانة..

إنّ الأبواق الإعلاميّة للعدوّ سوف ترفع عقيرتها كما فعلت من قبل بالقول: إنّ إيران تريد أن تتدخل، تريد أن تنشر التشيع في مصر، تريد أن تصدر ولاية الفقيه إلى مصر، وتريد وتريد...

هذه أكاذيب ملأت آذاننا خلال ثلاثين عاماً، الهدف منها أن يفرّقوا بين الشعوب بعضها من مساعدة بعض، وردّها أيضاً المأجورون {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ١١٢]، إنّ هذه الأحابيل لن تثنينا إطلاقاً عن أداء ما حملنا الإسلام من مسؤوليّة، والله من وراء القصد.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم...

\* \* \*

## مميزات الثورة الإسلامية الإيرانية

في كلام قائدها دام ظلّه (\*)

### □ قائد الثورة الإسلامية

تكلموا في الثورة آلاف الساعات ابتداءً من إمامنا العظيم ﷺ، الذي كان الفاتح لهذا الطريق، والمتقدم الأول في هذا الصراط المستقيم، وانتهاءً بكل الذين تحرّكوا في هذا الطريق، وعملوا شيئاً في هذا السبيل، وكسبوا معرفةً وتحديثاً بحدّث. طبعاً تحدثوا في هذه الأحاديث عمّا هو مؤثّر ومفيد جداً.

وهنا أريد ذكر هذه الجملة الاعتراضية. وهي: نحن أبناء الشعب الإيراني بالرغم من أننا لمسنا الثورة بكل وجودنا، إلا أننا قليلاً ما قمنا بتحليلها وتقييمها. خلافاً للأجانب الذين ارتبطوا بهذه الثورة من بعيد أو قريب، والذين كان وما زال من بينهم ممن دخل هذا الميدان بأهداف سيئة. والآن فإنهم ينفقون الأموال التي لو قلنا إنّها تبلغ المليارات لم نبالغ في ذلك. وكل ذلك من أجل أن يوصلوا صوته إلى أبناء الشعب ويثبتوا أمراً - ولو من خلال تحاليلهم الكاذبة - قد نفتته الثورة، أي: أننا يجب أن نعترف أن تحليل الثورة هو أمر يبذل فيه

(\*) من خطبة الجمعة لسمّاحته في طهران ٣ / ٩ / ١٤١٥ هـ. ق.

الأعداء اليوم جهوداً أكثر مما نبذل فيه نحن. وهم يقومون بهذا العمل بهدف قلب نداء الثورة وإظهار الحقيقة خلافاً لما هي عليه؛ تلك الحقيقة التي وقعت أمام أنظار الشعب الإيراني وعلى يد أبنائه. وعلى هذا يجب جمع الأحاديث التي تحدّث بها أبناء الثورة عن ثورتهم وتبوييها، وأن ينجز عليها عمل ثقافي صحيح، والذي لم ينجز من قبل، أو أنّ ما أنجز كان قليلاً جداً. وأن لا يكون ذلك مانعاً أمام شبابنا ليفهموا الحقائق. فاستمعوا للأحاديث التي تحدّث بها شخصيات الثورة والناطقين باسمها، وتأملوا فيها جيداً.

وإنني اليوم أودّ التحدّث شيئاً ما عن جوانب من هذه الثورة. فإحدى النقاط التي قليلاً ما تمّ التعرّض لها في باب هذه الثورة هي أنّ ثورتنا العظيمة كانت ثورة استثنائية في نوعية الانتصار الذي حقّقته، يعني: أنّها ثورة شعبية بهذه الأبعاد الشعبية العظيمة، انتصرت من خلال تواجد أبناء الشعب في الشوارع وفي المدن والقرى وممارسة الجهاد ضد النظام الحاكم. فمثل هذه الثورة لم يكن لها نظير ولا سابق في الثورات المعاصرة على أقلّ تقدير. فجميع الثورات الأخرى التي وقعت في العالم حتى ذلك التاريخ (تاريخ انتصار الثورة الإسلامية)، ومنها الثورات اليسارية والماركسية في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا والمناطق الأخرى من العالم كانت من نوع آخر. فهذه الثورة لم تنتصر بواسطة مجموعة ثورية مسلّحة، طبعاً كان يوجد في إيران بعض الأحزاب التي كانت تقوم بالأعمال المسلّحة إلا أنّ تلك المجموعات والأحزاب كانت قد شلّت عن العمل تماماً حوالي عامي (١٣٥٤ - ١٣٥٥ هـ. ش)، وبإمكانكم أن تسألوا أولئك الذين كان لهم تواجد فعال في مجال الثورة في تلك الأيام، فقد شاهدنا ذلك بأمّ أعيننا. وعلى الشباب الذين لا يملكون معلومات مباشرة عن الأوضاع والظروف في تلك الفترة أن يسألوا الذين كانوا يعيشون في قلب الأحداث في تلك الأيام.

ففي الأعوام ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، وحتى ١٣٥٦ هـ. ش خرجت المجموعات التي كانت تقوم بالنشاطات المسلحة من ساحة المواجهة تماماً؛ سواء أولئك الذين كانت لهم أفكار ماركسية، أو الذين كانوا يحملون أفكاراً التقاطية، وقد تحول نشاطهم الى أن يفجروا قبلة في زاوية ما من هذه البلاد، أو القيام باغتيال شخص في مكان ما، وكل تلك الأعمال والنشاطات بالقياس إلى ما يقع اليوم في دولة كالدول العربية (ولا نريد ذكر أسماء). فأنتم تسمعون أن الإسلاميين في تلك الدول العربية يقومون ببعض الأعمال المسلحة، ولديهم مواجهات مع السلطات الأمنية هناك، وما كان يقع في إيران في تلك الفترة لا يساوي عشر ما يقع هذه الأيام في تلك البلدان العربية، فلاحظوا كم أن هؤلاء الإسلاميين قريبون من الانتصار، عند ذلك يكون بإمكاننا أن ندرك كم كان من الممكن أن تنتصر تلك المجموعات المسلحة في إيران، وأساساً كان تصوّر انتصار حركة مسلحة في إيران تصوراً مستحيلاً ولم تكن توجد إمكانية لوجوده.

وإضافة الى ذلك فإنّ الانقلاب العسكري لم يكن ممكناً الوقوع أيضاً، فبعض هذه الثورات أو ما يسمى بالثورات تبدأ بالانقلاب العسكري، بينما كان العسكريون في إيران يعيشون في إطار محدود تماماً حدد لهم من قبل الأمريكان في إيران. فكثير من العسكريين كانوا ناقلين على النظام الشاهنشاهي الظالم، ولا سيما الشاب والمراتب الأصغر، إلا أن أحداً لم يكن يجروء على التفكير في مواجهة النظام.

ولو أردنا أن نقيس وضع الجيش في إيران: افترضوا أنه كان يعيش في ظروف مماثلة لما يعيشه الجيش العراقي اليوم فهو أسير تماماً في قبضة النظام الحاكم في العراق، طبعاً كان العسكريون في إيران أشدّ أسراً منهم في العراق اليوم؛ لأن الرقابة عليهم لم تكن من قبل سلطة عليا فحسب، بل كان للأمريكان تواجد وإشراف مباشر في داخل الجيش، وكان يتواجد آلاف

الأمريكيون في أكثر المعسكرات ولا سيما المعسكرات المهمة والحساسة وفي بعض القوات أيضاً. على هذا لم يكن متصوراً أن يقع انقلاب عسكري في إيران. كما أن الأحزاب السياسية التي كانت توجد في إيران كانت عاجزة عن التحرك تماماً. فالأحزاب الوطنية التي تشاهدونها اليوم وهي تستغل الحرية والكرامة الموجودة لدى الجمهورية الإسلامية، وهؤلاء (السادة) الذين يتحدثون ضد الجمهورية الإسلامية بمصادرة الحريات، هؤلاء السادة كانوا موجودين في تلك الفترة أيضاً، ولم يصدر منهم في ذلك التاريخ أي تحرك - يمكن أن يسمى تحرك - في سبيل تحرير إيران. فقسم منهم كانت تربطه علاقات صداقة مع رجال البلاط، وكانوا مشغولين مع بعضهم في اللذات والشهوات، وبعضهم كان قد انشغل بالشعب هو الذي لا يثق بهم وبأحزابهم وليس ذلك من تقصير أحد، فهل منع أحد الناس من أن يثقوا بتلك الأحزاب؟

وأفضل تلك الأحزاب في تلك الفترة هي الأحزاب التي كان يوجد فيها شخصان أو ثلاثة يمتلكون شيئاً من الشجاعة، فكانوا يصدرون بياناً في قضية ما، وطبعاً هذا البيان لم يكن يوزع على مستوى واسع بل كان يتداوله مؤيدوهم فقط، مثلاً كانوا يعترضون على مسألة ما في بيانهم، ثم كانت تأتي السلطات وتعتقلهم وتلقيهم في السجون وبعد ذلك تطلق سراحهم، أو أنها كانت تطلق سراحهم بعد إجراء مقابلة معهم، أو أن تنتهي فترة سجنهم فيطلق سراحهم، فكان أمثال هؤلاء من أفضل تلك الأحزاب.

ومن ناحية أخرى لم يكن عمل هذه الأحزاب يثير تحركاً شعبياً في أوساط الشعب الإيراني؛ لأن الشعب الإيراني شعب متدين ويؤمن بالعلماء. وهذه هي النقطة التي أدت فيما بعد إلى الانفجار العظيم للشعب ضد النظام الشاهنشاهي الفاسد.

ثم دخل الساحة مرجع تقليد يتفق الجميع على صلاحه، عالم دين ذو شأن



عظيم كل من عرفه عرفه بالصلاح؛ حتى أن أعداءه كانوا يعترفون بأنه إنسان صالح، كل ما في الأمر أنهم كانوا ينسبون إليه بعض العيوب، مثلاً يقولون: إنه لم يُعر لنا أهمية في المسألة الفلانية، أو أنه يؤمن بالنظرية الفلسفية الفلانية، إلا أنه إنسان صالح وذو تقوى على مستوى عال وله مكانة علمية رفيعة، والأهم من كل ذلك أنه دخل ساحة المواجهة مسدداً بالتسديد الإلهي. وعلى طول خمسة عشر عام استطاع أن يحرك معه عدداً من تلامذته وزملائه على مستوى مراجع الدين الآخرين.

وحين شاهد الناس أن العلماء هم المحركون للثورة بدأوا يدخلون ساحة المواجهة شيئاً فشيئاً في بداية الأمر، ثم أخذوا يدخلون بأعداد كبيرة، وفي نهاية المطاف دخل عامة أبناء الشعب إلى ساحة المواجهة.

ففي عام ١٣٥٦ هـ. ش قامت السلطات الشاهنشاهية بإبعادي إلى مدن مختلفة من البلاد، وحينما عدت من المنفى في أواسط أو أواخر عام ١٣٥٧ ذهبت إلى مشهد المقدسة، وما شاهدته في مشهد لم أكد أصدقه، وعلى الرغم من سماعنا للأخبار حينما كنا في المنفى، إلا أن الحقيقة على الأرض كانت حقيقة عظيمة، فقد كانت التظاهرات متواصلة في مشهد ليل ونهار، وأن الناس هناك كانوا قد اعتادوا على الخروج في التظاهرات، وفي كل مكان كان الأمر كذلك. فطهران كانت هي المحور، ومن ثم المدن الكبيرة والصغيرة وحتى القرى والأرياف كانت تقام فيها التظاهرات والمسيرات.

افترضوا أن الدعوة كانت تعلن إلى القيام بتظاهرة من قبل الإمام - الذي كان في باريس تلك الأيام - أو من قبل العلماء الكبار في طهران أو المدن الأخرى، فكان الناس يخرجون على أثر ذلك إلى الشوارع كالسيل العارم، ومن ثم أخذت دوائر الدولة تلتحق بالشعب تدريجياً والتحق الموظفون. ثم أخذ منتسبوا الجيش بالتحقق بركب الثورة، وحتى المسؤولين في النظام السابق

أخذوا يلتحقون بصفوف الثورة أيضاً، وهذا هو معنى انهيار نظام من الأنظمة، فقد انهار النظام الشاهنشاهي.

ففي اليوم الذي هرب فيه الشاه من إيران كان النظام منهكاً ومنتهكاً، وقد رأى (الشاه) بأنه لا فائدة من البقاء في إيران، فصنعت القوى الاستعمارية من إنسان مسكين وسيء الصيت (شاهبور بختيار) صنماً، وكان مخططاً أن يبقوه في السلطة عدة أيام، وقد بقي في تلك السلطة أربعين يوماً فقط. وحينما عاد الإمام إلى البلاد انتهى كل شيء بإشارة صغيرة منه. فبسبب تواجد الشعب في ساحة المواجهة كان النظام قد انهار وتمزق من الداخل.

فلماذا دخل الناس إلى ساحة المواجهة بهذه الصورة؟ لقد كان دخول الشعب من أجل الدين، من أجل أن الشعار كان شعاراً إسلامياً، من أجل تواجد العلماء في الساحة ومن ثقة الشعب بهم. ففي أواسط الشعب كان يوجد عدد كبير ممن يقدم العون والمشورة للعلماء؛ حتى أنهم في بعض المدن كانوا يرشدون العلماء إلا أن عامة الناس شاركوا في الثورة؛ لأنهم كانوا يرون العلماء في المقدمة، وفي القمة كان يقف الإمام الذي كان مرجعاً للتقليد وعلى مستوى ديني رفيع، كما كانوا يشاهدون في كل مدينة العلماء المحترمين وهم يتقدمون صفوف الثورة، وهكذا وقعت هذه الثورة العملاقة.

حسناً، كانت هذه الثورة ثورة استثنائية، ثورة قامت نتيجة لتواجد أبناء الشعب وتضحياتهم، وهذا التواجد كان ناشئاً من العقائد الدينية لأبناء الشعب، حتى أن السياسيين أنفسهم الذين كانت لهم معنا اجتماعات في تلك الأيام، وحتى تلك المجموعات المسلحة واليساريين والشيوعيين الذين كانوا جميعاً تربطهم معنا علاقات وصداقات؛ سواء كان ذلك في داخل السجون أو خارج السجون، كل هؤلاء كانوا يعترفون بأنه لم يكن من الممكن أن يقع في إيران ما وقع إلا بقيادة شخص كالإمام، وطرح هذه الشعارات الدينية. هذه

حقيقة وقعت أمام أعين الجميع، وكل من له مستوى علمي لا يمكنه أن يقول غير هذا.

وفي الأيام الأولى لانتصار الثورة لم يقل أحد غير هذا، باستثناء بعض الزمر الوقحة الذين أخرجتهم الثورة. وتواجد الشعب في ساحة الثورة من السجون التي كانوا قابعين فيها لسنوات طويلة (٤ أو ٥ سنوات). وبمجرد خروجهم من السجن قاموا برفع أعلامهم أمام الجماهير، فقامت الجماهير بتمزيق تلك الأعلام ورميها بعيداً، ومن ذلك الحين أضمرُوا العداوة لأبناء الشعب وابتعدوا عنهم وأخذوا يفجرون القنابل في بيوت الناس ومحلاتهم التجارية وفي الساحات العامة في طهران والمدن الأخرى. فباستثناء هؤلاء المعاندين الذين لم يكونوا على استعداد لقبول الحق، فقد كان أيّ إنسان ينظر بعين الإنصاف إلى هذه الثورة كان يرى تلك الحقائق واضحة أمامه.

طبعاً إلى جانب هذا أقول: إنّ هناك عوامل وأسباب كثيرة ساعدت على انتصار الثورة، فكل من تكلم بكلمة فقد ساعدت كلمته بمقدار كلمة في انتصار الثورة، ولكن مساعدة الثورة بكلمة واحدة ومائة كلمة وكتاب شيء وتحريك أمواج الثورة شيء آخر. وأساساً لا يمكن القياس بين الاثنين، فلا يكون هؤلاء كذلك الرجل الذي ألقى رجل جرادة في قدر طعام مائة نفر، ثم قال: أنا صاحب الطعام. فيعتبروا أنفسهم من المحركين للثورة ومن قادتها. طبعاً جميع أبناء الشعب كانوا هم أصحاب الثورة، أولئك الذين وضعوا أرواحهم في مواجهة العدو، فهل يوجد شيء أكبر من هذا؟ افترض أنني ألقى ألف محاضرة وخطاب، فهل لهذه المحاضرات والخطب قيمة بقدر نفس الإنسان؟ هذا الإنسان الذي تقدم وقدم نفسه وسبقنا، فلو أردنا أن نتحدث بإنصاف، ويجب أن نتحدث هكذا وبهذه الصورة.

أما المسألة الأخرى التي تأتي عقب هذه المسألة فهي: أنّ مثل هذه الثورة

العظيمة انتصرت إذن بقوة الشعب وإرادته وبقادة أو قيادة اعتمدت بشكل كامل على عواطف الشعب، والشعب كان يحبها ويعشقها، فإذا كان يجب أن تقوم به هذه الثورة؟

إنَّ أوَّل عمل هذه الثورة هي إلغاء الامتيازات الظالمة التي حصل عليها الأجانب طوال هذه السنوات في هذه البلاد، وهذا شيء طبيعي. فكلَّ محبِّ لوطنه كان ناقماً من أن يرى بريطانيا (مثلاً) جاءت وسيطرت على النفط الإيراني، وكلَّ محبِّ لوطنه كان يصيبه الحزن حينما يعلم بذلك.

فكثير من رجال الدولة في الفترات السابقة وأعضاء مجلس الشورى الوطني في دوراته الثلاث الأولى - قبل أن يسيطر رضا شاه - الذين كانوا ممثلين حقيقيين ومنتخبين من قبل الشعب، كانوا معارضين لمنح الامتيازات للدول الأجنبية، وحتى أنَّ كثيراً من الشخصيات الوطنية الحقيقية لم يكونوا على استعداد لمنح الامتيازات للأجنبي، إلا أنهم لم يكونوا يجراًون على إبراز ذلك؛ لأنَّ الشعب لم يكن يساندهم بسبب عدم وجود مكانة شعبية لهم بين أوساط الشعب. فحينما كان رئيس الوزراء يتفوه بكلمة ويشتم منها رائحة معارضة المصالح الأجنبية، كان يعزل من منصبه مباشرة، وعندما كان رجل دولة يتكلم بكلام تشتم منه رائحة الاعتراض على الامتيازات الأجنبية كانوا يبادرون إلى عزله فوراً.

فلو كان هذا الشخص - كالمرحوم السيد المدرس رحمته الله - مقاوماً وصامداً، بالرغم من الاعتداء عليه ونفيه ومن ثم قتله وهو صائم على يد شقي مثل رضا شاه، إلا أنَّ هؤلاء لم تكن لهم شجاعة مدرس وإيوانه. فحينما كانوا يتفوهون بكلمة وينظر إليهم الأجنبي بعين الغضب كانوا يبادرون إلى السكوت فوراً، ولهذا فقد ازدادت الامتيازات الأجنبية في إيران يوماً بعد يوم.

أيها الإخوة والأخوات! إنَّ القوى المعادية للثورة الإسلامية وللإسلام كالحكومة الأمريكية والحكومة البريطانية والصهاينة - الصهاينة ودولة

(إسرائيل) الغاصبة هما آلة بيد أمريكا، وأساساً إنهم أقاموا هذه الدولة في هذه البقعة لكي تنفذ مخططاتهم - ووكالات الأنباء والمحطات التلفزيونية التابعة لهم، قامت ومنذ اليوم الأول لانتصار الثورة الإسلامية وإلى اليوم بتوجيه الإعلام المعادي ضدّ الجمهورية الإسلامية بصورة كبيرة وبنوعية عالية، وأشعواوا كلما ورد على ألسنتهم من أكاذيب، ففي مسألة حقوق الإنسان - مثلاً - حيث من الممكن أن يكون بعض الناس في العالم ممن يصدقون بذلك، ولكن هذه المسألة هي من أكاذيب هؤلاء أيضاً. فهم يقولون بأنّ حقوق الإنسان تنتهك في إيران وحينما نسألهم أن يؤثونا بما يثبت ذلك، فإنهم يقدمون لنا قائمة بأسماء مجموعة من الأشخاص، ويقولون إنكم أعدتم هؤلاء الأشخاص، فمن هم هؤلاء؟ إنهم مهربوا المخدرات، مهربوا الهيروين والمورفين والذين لو أمكن أن يعدموا أكثر من مرة لكانوا مستحقين لذلك. فهل هذا انتهاك لحقوق الإنسان؟

يتهموننا بالإرهاب!! فما هو دليلكم على أن إيران دولة إرهابية؟ وتقوم بتصدير الإرهاب؟

فيقولون لاحظوا ماذا يفعل الناس في لبنان وفلسطين. حسناً فما هي علاقة ذلك بإيران؟

في فلسطين هناك مجموعة عرفت مسؤولياتها. نعم لا شك في أنها استلهمت تلك الروح من الثورة الإسلامية. وفي لبنان هناك هناك أناس تيقظوا ويقولون لكم لماذا أتيتم بـ (إسرائيل) الغاصبة والصهاينة الذين ليس لهم وطن وسلطتموهم على فلسطين ولبنان؟

فما علاقة هذه المسألة بإيران. هناك مجموعة تدافع عن بلادها فهل هذا إرهاب؟ وحينما يقوم هؤلاء بهذه الأعمال فهل هذا يعني بأنّ إيران قامت بتصدير الإرهاب؟ انظروا كم أنّ هذا الكلام مضحك وتافه.

وهم ييثون الشائعات في الأمم المتحدة ويطرحونها في لجنة حقوق الإنسان، وبعد ذلك تقوم الصحف بنشر ذلك، ثم تبادر صحف أخرى للتصدي لهذا الأمر، ثم تطرح هذه المسألة في الإذاعات ومحطات التلفزيون، وبعد فترة يصيبهم الإرهاق فيسكتوا، وبعد شهر أو شهرين يعيدون الكرة من جديد ويقومون بتكرار المسائل نفسها، وهم يعملون على هذا المنوال منذ اليوم الأول لانتصار الثورة. طبعاً هناك بعض السذج الذين يصدقون تلك الشائعات. ولكن ما هو الهدف من هذا الإعلام؟ ومن خلق وبث كل هذه الشائعات الكاذبة؟ الهدف هو القضاء على المكانة العظيمة التي تحتلها ثورتنا في أوساط المسلمين وغير المسلمين. فكلما تسمعون من أخبار كاذبة في وكالات الأنباء ووسائل الإعلام منشؤها هؤلاء.

إنهم يحاولون الانتقام منا. وإنّ النظام الأمريكي والمستكبر والنظام البريطاني اللذين كانت لهما مصالح كبيرة في إيران، وقد قامت هذه الثورة وهذا الشعب بإلغاء هذه المصالح، يعطيان لأنفسهما الحق في الانتقام من هذا الشعب؛ لأنهم أعداء، ثم يأتي من يدعي التعقل ويطالبنا بأن نفكر تفكيراً عقلانياً. إنّ هؤلاء موتورون من هذه الثورة، ولن يرضوا إلا بسقوط الثورة، ويقال لهم تفضلوا أيها السادة اللصوص وسيطروا على إيران مرة أخرى، إنهم لا يرضون إلا بهذا ولا يرضيهم أقل منه. وأنا أريد أن أؤكد هنا شيئاً واقعياً لأبناء الشعب وهو أنّ كلّ هذا العداء وكل هذا الإعلام المعادي وكل هذا الحقد هو أصغر بكثير من قوة واقتدار الحقيقة المتأصلة لثورتنا وأدنى منها بكثير.

إنّ الثورة أعظم وأكبر بكثير من كل هذه الأمور، فلاحظوا أنهم عملوا خلال الـ (١٥ أو ١٦) عام بكل ما استطاعوا وكل ما بلغه جهدهم. بينما نحن

اليوم أقوى - بفضل الله - مما كنا عليه قبل خمسة أعوام، وقبل خمسة أعوام كنا أقوى من قبل عشرة أعوام، وقبل عشرة أعوام كنا أقوى من خمسة عشر عاماً وأوائل الثورة. فيوماً بعد يوم يزداد - بفضل الله - هذا النظام وهذا الشعب قوة، ولا يوجد شك في أنّ العدو عاجز أمام هذه الثورة. وهذا نفسه يعد شاهداً على أنهم بذلوا كل جهودهم وإمكاناتهم من أجل توجيه ضربة لهذه الثورة وفيما بعد سيكون الأمر كذلك أيضاً.

\* \* \*

## هكذا انطلقت الثورة

### قراءة في أحداث الثورة الإسلامية

□ الأستاذ: علي مشكوري (\*)

:

إنَّ للثورة الإسلامية في إيران خصائص ومميّزات تنفرد بها، وكذلك الحال بالنسبة إلى عوامل انطلاقها، وسرّ ديمومتها وتقدمها؛ لذا فهي تختلف عن سائر الثورات التي وقعت في التاريخ؛ لأنها تستند إلى قاعدة شعبية واسعة ذات معتقدات دينية راسخة، وتاريخ وحضارة عريقين امتدت أذرعهما في أعماق الزمن، وهذا هو سرّ ديمومتها وبقاء شعلتها وهاجة تنير الدرب للآخرين، وتتقدّم نحو الأمام محقّقة قفزات نوعية على الصُّعد العلمية والتقنية رغم ضغوط الغرب ومحاصرته لها.

من أهمّ مميّزات الثورة الإسلامية الإيرانية: أنَّ قادتها علماء دين منفتحون ومتنوّرون، جمعوا بين الدين والسياسة، واعتبروها مترابطين لا يمكن الفصل بينهما...

ولهؤلاء العلماء قاعدة شعبية تمتثل لأوامرهم، وتنفّذ مطالبهم؛ لأنّ هؤلاء

(\*) باحث إسلامي.



العلماء هم أولياء الله في الأرض، وهذا المعنى جاء متكرراً في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

لذا فإن المرجعية الدينية وانطلاقاً من واجبها الإسلامي في مواجهة الظالم المتسلط على رقاب المسلمين أخذت على عاتقها تعبئة الأمة وتنظيم صفوفها وقيادتها لمواجهة هذا الظالم... فعندما توغل النظام الشاهنشاهي في جرائمه، وتمادى في إصدار المزيد من القرارات التي تتناقض مع الشريعة الإسلامية، وسيادة وإرادة الشعب الإيراني المسلم والأبيّ تصدّت له المرجعية ومؤسساتها الدينية في مدينة قم ومشهد المقدستين، وكذلك سائر المدن المشتملة على المؤسسات الدينية.

:

في الثاني والعشرين من شهر مارس/ آذار عام ١٩٦٣م، هاجمت قوات النظام الشاهنشاهي مدرسة الفيضية للعلوم الإسلامية في مدينة قم المقدسة، وكذلك مدرسة الطالبيه في تبريز إثر التظاهرات التي قام بها طلاب الدراسات الدينية، وفتحت النار على المتظاهرين، فسقط على إثر ذلك عدد من الجرحى والقتلى، وتمّ تدمير بعض أقسام هاتين المدرستين.

واستنكاراً للهجوم الوحشي لهذه الجريمة أغلقت هذه المدارس أبوابها لمدة أربعين يوماً؛ وبعد استئناف الدوام فيها توجه الإمام الخميني رحمه الله إلى المدرسة الفيضية، ورغم تحذير (السافاك)<sup>(١)</sup> له بعد أن شكّل الشباب الثوري بقيادة الشهيد محمد مهدي أراكي حزاماً أمنياً حوله، فاعتلى المنبر وألقى خطاباً حماسياً بالحاضرين هاجم فيه وبشكل علني وصريح الشاه وعملاءه، وكذلك أمريكا وإسرائيل، ودعا العلماء والشعب للتحرك وعدم التزام الصمت إزاء ما يجري من انتهاكات للدين والسيادة.. كما بعث رسائل صريحة وواضحة إلى

علماء طهران، جاء فيها:

«أرجو من حضرات العلماء أن يتنبهوا بأنّ الإسلام أصبح في خطر، كما أنّ القرآن والمذهب أيضاً يواجهان خطراً حقيقياً؛ لذا فإنّ التقية هنا أصبحت محرّمة، وإظهار الحقائق واجب ولو بلغ ما بلغ».

إنّ استخدام الإمام الخميني لهذه اللهجة الصريحة أفزع النظام الشاهنشاهي، فأخذ يهاجم علماء الدين في الإعلام المرئي والمكتوب، كما فرض قيوداً على المؤسسة الدينية، منها: إجبار طلبتها على أداء الخدمة العسكرية..

قبل حلول شهر محرّم الحرام عام ١٩٦٣ استقبل الإمام الخميني الوعاظ والخطباء، وألقى فيهم كلمة توجيهية حثّهم فيها على انتقاد السياسات غير الإسلامية التي يتتبعها الشاه، وكذلك علاقته بإسرائيل، وأنّ يواصلوا إقامة مجالس العزاء بذكرى استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)، كما أوصى الحاضرين بتشديد الانتقادات إلى النظام في حالة عدم استجابته لمطالب العلماء. وأكد على ضرورة إحياء ذكرى المهجوم الوحشي الذي تعرّضت له المدارس الدينية في قم وباقي المدن الإيرانية. وفي الوقت نفسه استدعى السافاك الوعاظ والخطباء، وبعد التهديد طلب منهم:

١. عدم التعرّض في خطبهم للشخص الأول (الشاه) في البلد.

٢. عتد التعرّض لإسرائيل.

٣. عدم طرح قضايا تُثير الناس مثل كون الإسلام في خطر.

على ضوء ذلك أصدر الإمام الخميني بياناً دعا فيه الوعاظ إلى عدم الاعتناء بتهديد السافاك، وأنّ يعملوا بواجبهم الإسلامي خاصّة في هذا الشهر الذي أصبح رمزاً لمقارعة الظلم والجور؛ كما بعث رسالة مؤثرة إلى شيخ الخطباء المرحوم فلسفي؛ جاء فيها:

«اليوم يوم الخطباء والوعاظ الأفاضل، فعليهم أن يثبتوا مدى التزامهم

بدينهم.. اليوم يوم الإمام المهدي المنتظر عليه السلام، وهو ينظر إلى الوعاظ والخطباء كيف يقومون بواجبهم الإسلامي والتزامهم الديني».

حلّ شهر محرّم الحرام، فأقيمت المآتم ومجالس العزاء، وكان الإمام الخميني أحد المشاركين، فأقام مأتماً في بيته خلال العشرة الأولى من هذا الشهر، فكان يعجّ بالمشاركين، كما كان هو الآخر يحضر مجالس الآخرين، يرافقه عددٌ من مريديه، فيعتلي المنبر خطيباً ينوب عنه؛ ليطلع الحاضرين إلى ما آلت إليه البلاد من انحرافٍ وفسادٍ أخلاقي، وتجاوزات طالت السيادة الوطنية والقيم الإسلامية. وفي العاشر من محرّم توجه الإمام الخميني إلى المدرسة الفيزيائية التي كانت تكتظ بالحاضرين رغم منعه من قبل السافاك، فألقى كلمةً هاجم فيها الشاه وأمريكا والكيان الصهيوني؛ جاء فيها:

«أنا أنصحك يا سيادة الملك!! يا حضرة الملك! أنا أنصحك بأن تترك مثل هذه الأعمال... أنا لا أريد أن يكون مصيرك مثل أبيك، وهذه أمنية الشعب التي يشكرون الله عليها.. اسمع نصيحتي.. اسمع نصيحة العلماء.. لا تسمع ما يقوله الإسرائيليون.. إسرائيل لا تعمل لصالحك شيئاً.. يا سيء الحظ، يا مسكين».

كان هذا الخطاب المهين للشاه بمثابة ساعة الصفر، وإعلان الثورة، فتحوّلت مراسم العزاء في طهران إلى تظاهرات سياسية عاصفة ضد النظام. وفي جامع الأتراك ارتقى المنبر الشيخ الفلسفي وألقى خطبةً هاجم فيها حكومة (علم) واعتبرها غير قانونية. وفي اليوم التالي - أي: الحادي عشر من محرّم - اكتظت شوارع طهران بالناس، وهي ترفع صور الإمام الخميني، وتردد بالحياة له والموت لعدوّه. وأخذت التظاهرات تتسع وتتقدم حتى وصلت قصر مرمر أحد قصور الشاه، وأخذت تردّد: (الموت لهذا الدكتاتور) وهي تشير بأيديها إلى القصر.

كان محرّم ذاك العام محرماً من نوع آخر؛ حيث التفّ الناس حول الإمام الخميني كما التفّ أصحاب الحسين عليه السلام حول إمامهم.. وكانت قم ككربلاء، حيث أريقت دماء العلماء وطلّاب العلوم الدينيّة، وتحولت المشاهد والمواقف إلى حكايات وعبر، بل دروس حيّة دوّنها المناضلون في كتبهم، وأضحت نهجاً للسائرين على درب الشهادة من أجل الإسلام وقيمه السامية.

انتهى محرّم ذلك، فكان شهر التمرد والغضب على النظام؛ لأوّل مرة تنزل الجماهير إلى الشارع وهي تردد شعار الموت للدكتاتور، وتتحدى السلطة وتهديدها باستخدام القوة..

انتهى محرّم ولكن بقيت شعلة الغضب متوقدة في القلوب، بينما راحت أبواق الشاه وإعلامه تنعت العزاء الحسيني في شهر محرّم بالخرافات والشيعة بالرجعية.. ومرّت الأيام والأشهر حتى حلّ محرّم عام ١٩٦٤م، أي بعد مرور عام على مجزرة الفيزية، وهي أفضل مناسبة لتثقيف الناس وتوجيههم وتعبئتهم ضد النظام الدكتاتوري الحاكم، فبينما راح السافاك يهدد الوعاظ والخطباء بعدم التعرض إلى القضايا السياسية؛ أصدر الإمام الخميني وعدد من علماء الدين بياناً هاجموا فيه النظام الحاكم والكيان الصهيوني وأعلنوا يوم ٥ حزيران الذي يصادف الذكرى الأولى لمجزرة الفيزية حداداً عاماً في البلاد، بينما راحت الناس تتهيّأ لما هو أكبر؛ حيث خرجت يوم العاشر من محرّم في تظاهرات واسعة تحوّلت إلى مواجهات مع عناصر المباحث تمّ خلالها سقوط العديد من الشهداء والجرحى، كما اعتُقل عدد من المتظاهرين.

كلّما ينتهي محرّم تبقى الناس تنتظر محرماً آخر؛ لأنّ هذا الشهر هو رمز تاريخي لمواجهة الظالم، تخرج إلى الشارع وتعبّر عن إرادتها ومطالبها الحقّة؛ وذلك من خلال مسيرات العزاء التي عجز النظام عن منعها.. وتوالى السنون وكلّما رسخ الحاكم مقومات بقائه ازداد الشعب مقاومة وإصراراً على مواصلة

انتفاضته ضدّ هذا الظالم الَّذي يفضّل مصالح أمريكا وإسرائيل على مصالح شعبه.

:

واصل الإمام فضح سياسات الشاه التي تكرّس خدمة الأجنبي، وهتك حرمة السيادة الوطنية، فكشف للناس أبعاد القرار الَّذي أصدره الحاكم، وصادق عليه البرلمان السوري، وهو حصانة الأمريكيين وكلاهم ومصلحتهم في إيران (كبيتولاسيون)، في وقت يقبع فيه آلاف الشباب وعلماء الدين في السجون، فتأججت كراهية الشعب للشاه العميل، فصدرت التعليمات إلى تنظيم تظاهرات واسعة في إيران، إلّا أنّ الأجهزة القمعية حالت دون اندلاعها بعد اعتقال العديد من الرموز الثورية.. وفي ٢٥ أكتوبر أصدر الإمام بياناً إلى الشعب جاء فيه:

«على العالم أن يعلم بأنّ كلّ المشاكل تأتي من الأجانب، وخاصة الأمريكيين الَّذي ترفضهم الشعوب الإسلامية. إنّ أمريكا تقدّم كلّ الدعم لإسرائيل، واليوم بينما تعصف بإيران رياح الضياع يصدر قانون يضمن فيه الحصانة للأمريكيين».

وفي فجر ١١ نوفمبر ١٩٦٤م توجهت قوات خاصة من طهران إلى قم لتحاصر بيت الإمام وتعتقله وتنقله إلى طهران ثمّ إلى المطار؛ حيث كانت هناك طائرة عسكرية بانتظاره. وبعد أن صعد الإمام صدرت الأوامر لطاقم هذه الطائرة بالتوجّه إلى تركيا؛ حيث جرى التنسيق مع القيادة العسكرية التركية بمنح اللجوء لقائد الثورة...

بعد أن انتشر خبر ترحيل الإمام إلى تركيا خرج الناس إلى الشوارع مستنكرين ذلك. كما أغلقت المحال التجارية، وأضرب طلاب الدراسات

الدينية عن الدراسة لفترة طويلة، في حين أرسلت الشخصيات العلمية والدينية رسائل احتجاج إلى المنظمات العالمية تطالبها بالتدخل لإعادة الإمام إلى وطنه، ووقف جرائم الشاه المعادية لحقوق الإنسان.

إنَّ الفصل بين القائد وشعبه أضاف عنواناً جديداً لعناوين الانتفاضة، فعزّز من محبة القائد لدى أبناء شعبه، وأصبحت صورته توزّع في الشوارع وفي البيوت، ولافتاته القصيرة تكتب في الدفاتر وعلى جدران الشوارع والأزقة.. من جهةٍ أخرى أخذت قوات الأمن تشدّد من إجراءاتها التعسفية مستغلةً بذلك تغيب قائد الثورة، فاعتقلت عدداً من رجالات الثورة البارزين، وألقت بهم في غياهب السجون، لاقوا خلالها أشد أنواع التعذيب حتى لقي بعضهم حتفه شهداء في سبيل الله والوطن، ومن أبرزهم الشهيد السيّد هاشمي نجاد الذي كان يعتبر من أبرز رفاق الإمام..

بتاريخ ٥ / أكتوبر ١٩٦٥م توجّه الإمام الخميني يرافقه نجله المرحوم سيد أحمد إلى منفاه الثاني، وهو العراق، فاختار مدينة النجف الأشرف، مدينة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وصاحبة أكبر مؤسسة دينية إسلامية في العالم الإسلامي آنذاك؛ ليستقرّ فيها بعد أن استقبله طلاب الدراسات الدينية مرحبين بهذا العالم المجدد الثائر القادم إليها وهي تواقّة إلى التجديد، وبحاجة إلى من ينظّم صفوفها يوجهها إلى سوح العمل والجهاد.

واصل الإمام الخميني في مسجد الشّيخ الأنصاري طاب ثراه، خلال إقامته في النجف الأشرف، التي طالت ١٣ عاماً، بحثه العلمي وتدريسه للفقهاء الإسلاميّ، حتى تخرّج على يديه نخبة من العلماء. وفي الوقت نفسه واصل توجيهاته إلى الشعب عن طريق الوفود التي لم تنقطع عن زيارته، وكذلك عبر إصدار البيانات والرسائل.

في الفترة بين محرّم ١٩٦٣م ومحرّم ١٩٧٨، وبفضل ارتفاع أسعار النفط

والدعم المتصاعد الذي تلقاه الشاه من أسياده الأمريكان صعد من سياسته اللاوطنية، والتي تتعارض مع القيم الإسلامية، والهادفة إلى فرض المزيد من الهيمنة الأجنبية على البلاد، والعبث بأموال الشعب، كإقامته مهرجان شيراز الفني، وكذلك انتهاجه سياسة إعلامية أراد بها تميع هوية الشعب الإسلامية؛ وذلك من خلال بث برامج تلفزيونية وأفلام سينمائية مبتذلة، وترويج الفحشاء والمنكر، ونشر مقالات في الصحافة تسيء للدين والعلماء، وهذا ما زاد من كراهية وحقد الشعب على النظام، وتوجهه والتفافه أكثر حول قيادته المبعدة، بحيث أصبح اسم الإمام الخميني هذا القائد والمنقذ يتردد على الألسن في كل مناسبة وغير مناسبة.

في شهر محرم عام ١٣٩٨ هـ. ق المصادف لـ ١٧ يناير ١٩٧٨ قام النظام بخطوة متهورة؛ حيث نشر في صحيفة (اطلاعات) الواسعة الانتشار مقالة أساء فيها إلى الإمام الخميني، وانتفاضة الحوزة العلمية في عام ١٩٦٣ م، مما أثار غضب الشعب، فخرجت في مدينة قم تظاهرات واسعة، واستمرت حتى التاسع والعشرين من هذا الشهر، وخوفاً من تصاعدها وامتدادها قامت قوات الأمن بمهاجمتها بالأسلحة النارية معتقدة بأن استخدام القوة في هذه المرة سيحسم الموقف لصالحها، فسقط العديد من المتظاهرين بين جريح وقَتيل، مما دفع بالشعب إلى مواصلة احتجاجاته في هذا الشهر المقدس، شهر المقاومة والتحدى، شهر الفداء والتضحية.. شهر إراقة الدماء دفاعاً عن الدين والمبدأ والوطن.. ففي هذا الهجوم الوحشي وضع النظام قدمه في بداية طريق نهايته.

عندما وصلت أخبار هذه المجزرة إلى مسامع قائد الثورة، وهو في منفاه في النجف أصدر بياناً أدان فيه جريمة النظام في قمع التظاهرة التي وصفها بالانتفاضة الثانية، واعتبرها امتداداً لانتفاضة محرم ١٩٦٣ م.. وامتد لهيب هذه الانتفاضة من قم ليصل إلى تبريز ويزد وكرمان، ثم عم كل أنحاء البلاد حتى

حلّ عيد النيروز عام ١٩٧٩م، وقد تزامن هذا العيد مع أربعينة شهداء تبريز؛ حيث أعلن الحداد في البلاد من قبل علماء الدين، فنكّست الأعلام السوداء وتوشح الناس بالسواد.

:

في ٨ سبتمبر ١٩٧٨م وبينما كانت الجماهير كباراً وصغاراً.. شيوخاً وشباباً.. محتشدين في ساحة (ژاله) التي أطلق عليها بعد انتصار الثورة ساحة الشهداء، أراد النظام الدكتاتوري - وللمرة الثانية - أن يختبر حظّه في قمع الانتفاضة، عسى أن يطفئ بذلك لهيب الثورة؛ فحاصرت قوات السافاك المتظاهرين من كلّ الجوانب، وحتى من أعلى المباني، وفتحت نيرانها على الأبرياء، فسقط المئات بين جريح وشهيد مخرجين بدمائهم الطاهرة، لا لذنّب سوى الدعوة إلى إحقاق حقّ الشعب ورفض التبعية للأجنبيّ الباغي..

شهدت الفترة ما بين ٨ سبتمبر ١٩٧٨م إلى ١ ديسمبر ١٩٧٨، الذي صادف الأول من شهر محرّم الحرام أحداثاً كثيرة تعتبر الأهم في فترة مخاض الثورة، وأبرزها إعلان حالة الطوارئ واعتقال المزيد من الشباب الثوار، وكذلك مغادرة الإمام إلى باريس ليستقرّ في ضاحية نوفل لوشاتو، ومن هناك كان يتواصل مع الشعب، ويصدر توجيهاته عبر أشرطة الكاسيت التي سرعان ما كانت تصل إلى إيران، ويتمّ استنساخها وتوزيعها في جميع أنحاء البلاد حتى حملت اسم ثورة الكاسيت.

واصل الشعب مسيرته بحماس متصاعد وبدون كلل حتى أخذت البلاد تشهد المزيد من التدهور الأمني في حين راح عمال وموظفو الدوائر الرسمية والخاصة يضربون عن العمل تضامناً مع الشعب في وقت شهدت فيه بعض المدن سقوط المزيد من المتظاهرين بين شهيد وجريح، كما هُتكت حرمة



الجامعات والمدارسن كجامعة طهران بعد اشتباك الطلبة مع رجال الشرطة الذي أدى إلى سقوط عدد من الشهداء والجرحى بما أوجب لهيب الثورة.

هذا التصعيد الخطير دفع بالشاه أن يكلف الجنرال أزهاري بتشكيل حكومة عسكرية، فراح هذا الضابط العميل يفتك بأبناء الشعب كما ضيق الخناق على الصحافة والبرامج الإذاعية والتلفزيونية في حين اتسعت دائرة الاضطرابات والتظاهرات في جميع المدن الإيرانية، وكلما حلّ الظلام وصعد الناس إلى سطوح المنازل ليعبروا عن غضبهم واستنكارهم وهم يكبرون.. الله أكبر.. ولا إله إلا الله.. وكأننا يريدون أن لا تمر ساعة دون إعلانهم عن استيائهم من النظام وخاصة من حكومة أزهاري العسكرية التي عجزت عن قمع إرادة الشعب طول فترة حكمها التي لم تتجاوز (٦١) يوماً.

حلّ شهر محرم هذا العام ليكون الأسوء على النظام الذي أخذ يهتز وتضعف مقومات بقائه، فشهد اليوم الأول تظاهرات حاشدة لم يسبق لها مثيل؛ حيث جرت تعبئة مئات الآلاف من الناس، كباراً وصغاراً، في حين راح ركب الشهداء يستقبل المزيد من حملة المشاعل المتطوعين للشهادة حباً في لقاء الله ليلتحقوا بشهداء كربلاء.

كان الإمام الخميني ورفاق دربه يراقبون الأحداث عن كثب، فأصدر قائد الثورة بياناً شديد اللهجة هاجم فيه النظام، كما حيّا الشعب وشهداء الأول من محرم، وجاء فيه:

«هذا الشعب العظيم الذي له تاريخ طويل أحياء ملحمة كربلاء، وقد استجاب لنداء الله، ووقف يقاتل الظالمين حتى يُلقى بهم في مقبرة التاريخ، ويرفع راية لا إله إلا الله خفاقة عالية..».

وفي اللقاء الصحفي الذي أجرته معه صحيفة الفايننشال تايمز البريطانية بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٧٩، وفي معرض ردّه على سؤال هذه الصحيفة بشأن

برنامج وتوجيهاته لجماهيره لمواجهة النظام في شهر محرم، قال:

«إذا أصدرت أوامري إلى الناس بأن يقيموا مجالس العزاء وبشكل أكبر وأوسع، وأن يقيموا هذه المجالس بدون أخذ موافقة الجهات الحكومية، وإذا منعت الحكومة إقامة هذه المجالس في الشوارع والأزقة، فعلى الناس أن يستمروا برفع شعاراتهم المطالبة بحقوقهم، وأن يواصلوا انتفاضتهم...».

وبتاريخ ٥ ديسمبر ١٩٧٨م كانت قد أجرت إذاعة لوكسمبورغ مقابلة مع سماحته، فسألته عن علاقة شهر محرم بالجهاد والنضال ضد الاستبداد والظلم، وجاء السؤال: يا حضرة آية الله.. لماذا محرم مهم بهذه الدرجة في النضال؟ وهل تعتقدون بأن هذا النضال في هذا الشهر سيؤدي إلى نهاية حكم الشاه؟ أجاب الإمام:

«إن محرم هو شهر إقامة العدل محل الظلم، والحق محل الباطل، وهذا ما تحقق.. وهذا ما نراه على طول التاريخ. فالحق دائماً هو المنتصر على الباطل، وآمل في محرم هذا العام أن تتسع نهضة الحق ضد الباطل. وأتمنى أن يبلغ النهوض الإسلامي في إيران في هذا الشهر مرحلته النهائية...».

وفعلاً تحققت أمنية الإمام، وسقط نظام الشاه في شهر محرم من هذا العام..

:

وفي التاسع والعاشر من شهر محرم الحرام عام ١٣٩٩هـ. ق/ ١٩٧٩م خرج الملايين من أبناء الشعب في تظاهرات حاشدة، فكانت بمثابة استفتاء شعبي قال فيه الشعب كلمته الأخيرة: نعم للإسلام والجمهورية الإسلامية، لا للملكية والاستبداد والذل والهوان.. فكان محرم ١٩٧٩ بمثابة الزلزال الذي هز أركان النظام خاصة بعد التمرد الذي أخذت تشهده بعض الثكنات العسكرية. ففي معسكر لويزان فتح عددٌ من جنود لواء الحرس الملكي النار على عدد من

الضباط، ممّا أسفر عن سقوط عددٍ من القتلى والجرحى، وكان يعتبر هذا اللواء الذراع الأيمن للشاه، ويعتمد عليه في قمع الاحتجاجات، فكانت هذه الحركة نقلة نوعية في سير العملية الثورية، وبمثابة دقّ إسفين آخر في نعش الطاغية، ممّا جعل النظام في حيرةٍ من أمره؛ حيث استخدم جميع الأساليب في إخماد لهيب الثورة الجماهيرية، ولكن بدون جدوى.

:

بعد مرور ٣٦ يوماً على هذه التظاهرات المليونية ولّى الشاه منهزماً يجرّ خلفه أذيل الخيبة بعد أن كلّف بختيار بتشكيل حكومة هي الأضعف، واعدّاً الشعب بإجراء إصلاحات في وقت راح فيه مجلس قيادة الثورة واللجان الثورية تخطط لعودة الإمام من باريس والجماهير تواصل زحفها نحو المعسكرات التي أخذت تنهوى الواحدة بعد الأخرى بدون أيّة مقاومة تذكر، وتستولي على أسلحتها، وتنزل بها إلى الشوارع.

:

وصل حماس الجماهير إلى مرحلة الغليان بعد أن انهزم الملك، وفشلت حكومة بختيار، وأصبح الظرف مناسباً لعودة قائد الثورة إلى إيران.. قوات الجيش أغلقت المطارات في حين راحت المصفحات والدبابات تجوب الشوارع وسط شائعات، بل هي في الواقع تهديدات أصدرها جنرالات بختيار، وهي تتحدّث عن إسقاط الطائرة التي تقلّ الإمام في حالة عودته إلى إيران، أو باعتقال الإمام حين وصوله.

هذه الشائعات دفعت بالجماهير أن تتجه إلى مطار مهر باد الدولي في طهران وترفع الحواجز.. بعد أن أعلن بأنّ الإمام سيصل المطار الساعة التاسعة من

صباح يوم الخميس ١٢ بهمن / ١ فبراير.. لم يهدأ صخب الجماهير وهي تجوب الشوارع بالأسلحة الخفيفة والثقيلة التي حصلت عليها من المعسكرات بعد أن استسلم جنralاتها والتحق الجيش بالشعب.. فزيّنت الشوارع، وكذلك مدرج الطائرات في مهراباد بالزهور إلى أن حانت ساعة الصفر ولاحت في الأفق بشائر النصر المؤزر حيث طائرة الإمام تحلّق في سماء طهران.. خمسون ألفاً من مسلحي القوات الشعبية تشرف على مراسيم الاستقبال، والملايين تملأ الشوارع المحيطة بالمطار، وما أن استقرّت الطائرة وفتحت الباب وأشرقت أنوار الإمام على المستقبلين وهو يلوّح بيده الكريم، وهي تحية الأب لأبنائه والقائد لشعبه.. حتى بدأت صيحات التكبير وآيات الشكر تعلو في السماء، ودموع الفرح تنهمر من العيون (خوش آمدي.. خوش آمدي)، يا مولاي يا سيدي أهلاً بك وسهلاً في وطنك الذي غسّله الشهداء بدمائهم الطاهرة.. فتظهر من الرّجس وتبارك باسم الله والله أكبر..

وبعد أن نزل الإمام من سلّم الطائرة أنشد المستقبلون النشيد (خميني إي إمام) الذي ظلّ خالداً يردده الكبار والصغار..

وبعدها ألقى الإمام كلمة قصيرة شكر فيها الشعب كلّ الشعب بعماله وفلاحيه ومثقفيه وعلماؤه وطلابه.. رجاله ونسائه على تضحياتهم العظيمة التي أعادوا فيها مجد الإسلام وتاريخه المشرق، ثمّ قال:

«لولا وحدتكم وتكاتفكم لما تحقّق هذا النصر، فوحدة الكلمة هي رمز هذا النصر العظيم، فحافظوا عليه ولا تفقدوه..».

أراد الإمام قبل كلّ شيء أن يحيي الشهداء، فقصد مقبرة (جنة الزهراء) وسط ستة ملايين من المستقبلين، وبعد أن قرأ الفاتحة على أرواح الشهداء ألقى كلمة تاريخية اعتبر فيها النظام الشاهنشاهي وجميع مؤسساته غير قانونية، وجاء فيها:

«هذه الحكومة (حكومة بختيار) غير قانونية، سأصنع هذه الحكومة، وأنا الذي أعين الحكومة بمساعدة الشعب».

وفي اليوم التالي تشكلت الحكومة الانتقالية، وتوالى الأحداث وسط محاولات عدّة لإسقاط هذه التجربة الرائدة، لكنّ الله أتمّ نوره وحقق وعده كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيكَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

وسار الركب وترسخت مؤسسات هذه الثورة العظيمة ببركة الله تعالى ورعايته وحكمة قيادة الثورة، وأصبحت إيران الإسلام والسلام والمحبة والتسامح قوة عظيمة لها تأثيرها على المعادلات الدولية والساحة الإقليمية، تنشد الخير للجميع. كما بقيت يدها ممدودة تدعو الجميع للتعاون والتفاهم بعيداً عن الغطرسة واستخدام القوة ومنطق التهديد..

ألف مبروك لشعبي العظيم ولسيدي الكريم الإمام الخامني الشهيد الحيّ الذي حمل الراية المحمدية، وراح يتقدّم تحرسه عين الله التي لا تنام، ومعه الشعب الأبّي الذي سجّل أجمل آيات الصمود والتحدي على صفحات التاريخ، وقد شهد له الجميع بأنّه شعب لا يقهر؛ لأنّه مع الله، وجند الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

\* \* \*

الهوامش:

(١) كلمة (السافاك) تعني منظمة الشرطة السريّة في النظام الشاهنشاهي المقيور.

## الثورة الإسلامية

### ثورة ثقافية وفنية وأدبية

□ السيد علي موسوي زاده (\*)

كتب الكثير عن المعطيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية التي حققتها الثورة الإسلامية في إيران، إلا أنه قلما أُشير إلى المكاسب التي حققتها هذه الثورة على الصعيد الثقافي والفني والأدبي، ومدى الاهتمام الذي أولته وتوليه القيادة والحكومة لهذه الصعد، وما تحقّق من منجزات في هذه المجالات..

إنّ أهم ما تحقّق على الصعيد الثقافي ويتبعه الفني والأدبي هو تنقية ما تعلّق بها من شوائب إبان تسلّط الأسرة الشاهنشاهية على أمور هذا البلد المسلم الذي يمتلك تاريخاً حضارياً متأصلاً في أعماق الزمن. حيث حوّل الملوك الذين حكموا البلاد أكثر من قرنين كلّ مجريات أموره لما يخدم مصالحهم ومصالح أسيادهم، فأتخذت ثقافة هذا البلد المسلم منحىً غريباً؛ حيث عمّت ثقافة الابتذال والعلمانية كلّ معالم الحياة حتى كانت المرأة تجبر على خلع حجابها، والسعي لجرحها إلى الرذيلة، وإبعادها عن تأدية دورها الفاضل في المجتمع. كما

(\*) رئيس المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في سوريا.

تحوّلت دور السينما أشبه ما يكون إلى دور للبغاء تروج لأتفه الأفلام وأكثرها إحباطاً، واستغلّت النفوس الضعيفة من أصحاب القلم لتكتب المديح لهذا الملك وذاك مقابل حفنة من دولارات النفط الذي كان يباع بأسعار زهيدة إلى إسرائيل. وأمّا أبواق الإعلام فكان صخبها لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً في أعياد ميلاد الملك وأعضاء أسرته، والحال نفسها للصحافة الملكية التي لا تخرج يوماً إلاّ وصور ولي نعمتها تملئ أكثر صفحاتها، والباقية مسوّدة بقصائد المديح له.. وكاد هذا التيار الجارف أن يقضي على كلّ القيم والمعالم الإسلامية لولا تصدي المؤسسة الدينية له.

بعد انتصار الثورة الإسلامية أبدت قيادتها الحكيمة، وعلى رأسها الإمام الخميني الراحل اهتماماً خاصاً بالشأن الثقافي، فتشكلت وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي التي أخذت على عاتقها بناء المؤسسات والمنظمات والمراكز الثقافية والفنية والأدبية والإعلامية داخل البلاد وخارجها على أسس إسلامية وقيم سامية؛ بعدما طهر الحقل الثقافي والفني والأدبي والإعلامي من الشوائب والعناصر الضارة؛ فأخذت هذه الوزارة تقدّم الدعم للكتاب وللصحافة، كما أخذت تؤسس المكتبات العامة في كلّ مدينة وحي، وفي كل مدرسة. وأخذت تقيم معرضاً سنوياً للكتاب في طهران من أجل تأمين ما يحتاجه الكاتب والمؤلف والباحث من مصادر، وقد وصل عدد دورات هذا المعرض إلى الآن ثلاث وعشرين دورة؛ قد شارك في الأخيرة التي أُقيمت في ربيع العام الماضي أكثر من ثلاثة آلاف ناشر من ٢١ دولة عربية وأجنبية؛ وكذلك معرض للصحافة يستعرض فيه أرباب الصحف من خلال الندوات التي تقام على هامش المعرض تاريخ ومنجزات صحافتهم.

كما أخذت وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي تقيم علاقات ثقافية، وت عقد اتفاقيات تعاون مع بلدان العالم وخاصة العربية والإسلامية. وفي عام ١٩٩٥م

تأسست رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية التي تعنى بالإعلام الخارجي، فأسست خلال السنوات الأربع الأخيرة أكثر من ثلاثين ممثلة ثقافية ليلغ عددها الإجمالي إلى مئة ممثلة.

وعلى صعيد صناعة السينما، فالمتبع والمهتم بالدراما يعرف جيداً مدى التقدم الكمي والكيفي الذي حصل في هذا المجال، وكيف أصبحت السينما الإيرانية ملتزمة، وأفلامها هادفة، كما أصبح الممثلون والمخرجون الإيرانيون معروفين على المستوى الفني الإقليمي والعالمي، والأفلام الإيرانية تحصد جوائز عالمية في كل مهرجان سينمائي.

أمّا على الصعيد الإعلامي، فتوجد الآن في إيران ٢٨ قناة تلفزيونية، وثلاث قنوات فضائية، وأكثر من مائة صحيفة ودورية تبث وتكتب وتنتقد بكل حرية، وتروج للفكر القويم والوضاء، وتنشر القيم الإسلامية النبيلة.

وفي الختام انتهز فرصة حلول الذكرى الثانية والثلاثين لانتصار الثورة الإسلامية في إيران لأقدم أحلى التهاني إلى شعبنا وقيادتنا، مع الأمان بتحقيق المزيد من التقدم العلمي والعزة والرفعة. وكل عام والجميع بألف خير...

\* \* \*



## واقعية وفطرية

### المنهج السياسي في الإسلام

□ السيد سعيد كاظم العذاري (\*)

المقدمة

التشريع الإسلامي ليس من وضع الإنسان المحدود، بل هو من وضع ربّ الإنسان وخالقه، ومن له إحاطة تامة بالكون والأرض وبالناس كلهم، وهو سبحانه وتعالى أودع الغرائز والرغبات والحاجات في الإنسان في جميع مقومات شخصيته الفكرية والعاطفية والسلوكية، وهو أعلم بكيفية إشباعها؛ ولذا جاء التشريع الإسلامي بكلّ جوانبه مراعيّاً واقع الإنسان من حيث أنّه مخلوق من طبيعتين: المادة والروح، موضوع للإنسان ككلّ بلا انفصال في حاجات الجسد وحاجات الروح، وقد وضعت الشريعة لكلّ جانب مقوماته وحدوده الواقعية، فلا تقييد مكبل ولا إطلاق عنان دون تناءٍ، ومراعاة التشريع الإسلامي لواقع الإنسان وفطرته؛ جعلته تشريعاً تتقبله العقول وتركن إليه النفوس، بلا حرج ولا مشقة.

(\*) باحث إسلامي / العراق.

وفي بحثنا هذا اخترنا الجانب السياسي من التشريع الإسلامي الشامل لجميع جوانب الحياة، وهو بدوره موضوع بصورة واقعية منسجمة مع فطرة الإنسان المحدودة في الفكر والعاطفة والإرادة، وتطلعاتها في الحياة، فهو منسجم مع طاقة الإنسان دون تكليف زائد ومشقة إضافية؛ ولهذا فالنفس الإنسانية تركز إلى أسسه وموازينه وقواعده، وتستسلم طائعة له، دون تردد أو تراجع.

وقد أقرّ التشريع بجانبه السياسي جميع الأسس التي تتناسب مع الإنسان في توجهاته وتطلعاته في الحياة الإنسانية، ابتداءً من تطلعاته نحو ضرورة تنصيب قائد يدير الأمور ويقود الحركة الإنسانية في علاقاتها وممارساتها العملية. وحدّد التشريع خصائص ومواصفات القائد بما ينسجم مع واقع الإنسان ذي الكبرياء الذي لا ينقاد إلا لمن يتفوق عليه بخصائص ذاتية وخارجية، كالعلم وحسن السيرة والكفاءة في الإدارة، وراعى التشريع في تحديد درجات هذه الخصائص والمواصفات الواقع والظروف الموضوعية وتفاعل الفطرة معها اندفاعاً وانكماشاً.

وراعى التشريع واقعية أسس الحكم، فأقرّ البيعة والشورى المنسجمة مع فطرة الإنسان وتطلعاته نحو التحرر والتكريم والمشاركة في مصيره، وجعل شروط حق الطاعة للقائد والحاكم منسجمة مع الفطرة أيضاً التي تطيع من يحقق آمالها وطموحاتها، ويراعي حقوقها.

وأقرّ التشريع قواعد السيرة السياسية بالصورة التي تناغم الفطرة، فشرّع للإنسان حق النقد والمحاسبة، وساوى بينه وبين الآخرين في الحقوق ومنها المساواة أمام القانون، وراعى التعددية في الانتماءات الثانوية.

وشرّع وحدة القيادة؛ لتكون منسجمة مع واقع الإنسان وفطرته في الانقياد لقائد واحد، ورفض التعددية في الاستسلام والطاعة التي تكلف الإنسان فوق طاقته وتجعله يعيش في دوامة من الاضطراب والارتباك في عواطفه وممارساته

العملية.

والمفاهيم السياسية المطروحة في هذا البحث هي محل اتفاق جميع المذاهب الإسلامية، التي ترتبط مع بعضها البعض بأواصر عديدة تدفعها للتقدم أشواطاً في طريق الوحدة والتقريب على أسس نظرية ثابتة، ومواقف عملية موحدة.

إنَّ طبيعة الإنسان المزدوجة، وتركيبته الخاصة، وما يحمله من نوازع متناقضة، كقدرته على الاستجابة المتوازنة لنوازع الخير والشر، والتألف والعدوان، والرجاء والخوف، ومن حمله لصفات الضعف والمحدودية، وانعكاسها على مجمل تصوراتهِ وعواطفهِ ومواقفهِ وارتباطاته، تستدعي وجود سلطة ضاغطة تنظم مقومات شخصيته، وعلاقاتهِ الاجتماعية، وتهذب مواقفه وممارساتهِ السلوكية، وتمنعه من الانسياق وراء شهواتهِ ورغباتهِ التي تصل أحياناً إلى حدِّ الاعتداء على حقوق الآخرين في النفس والعرض والمال.

وهذه السلطة الضاغطة هي القيادة والحكومة، التي تقوم بمراقبة حركة الفرد والمجتمع، وتتابع المسيرة والعلاقات القائمة بين الفرد وبقية أفراد المجتمع، وتطبق القوانين الهادفة إلى إشاعة مكارم الأخلاق، وإزالة جميع أسباب وعوامل الانحراف والانحطاط والرذيلة والعدوان، وتسعى لإقامة العدالة في جميع صورها ومرافقها.

والحاجة إلى سلطة ضاغطة هي رغبة فطرية لدى الإنسان، لأنَّ ضعفه ومحدوديته، وعدم قدرته على مواجهة العدوان العام والخاص بحاجة إلى معين وسند وحصن، يساعده على حفظ كرامته، ويسنده في نيل حقوقه، كما يسند المجتمع في ذلك، حينما يُعتدى عليه من قبل أفراد يحملون خصائص فائقة في السيطرة عليه واستعباده، والاعتداء على حقوقه.

ولا يمكن أن نتصور وجود جماعة أو أمة بدون قيادة وحكومة، وقد أثبتت المسيرة الإنسانية في جميع مراحل سيرها أنه لا يمكن الاستغناء عن القيادة والحكومة، فالمجتمع الأول وإن كان محدوداً في كمّه ونوعه، إلا أنه لم يستغن عنهما، فكان آدم عليه السلام يمثل القائد في نطاق أسرته التي هي بمثابة مجتمع صغير. ووجود القائد والحكومة ظاهرة بارزة في حياة المجتمعات سواء كانت تتبنى الدين في عقيدتها وشريعتها أم لا تتبناه، وسواء كانت مجتمعات حضارية أم وحشية، والحالة المشاعية التي وصفها ماركس لا وجود لها في مسيرة الإنسان، وقد أكدت الدراسات على عدم خلو المجتمعات من قائد أو حكومة، وفي صدد ذلك قال الدكتور صادق الأسود: «كان انقسام أفراد المجتمع إلى حكام ومحكومين يكاد يكون واقعة عامة في كل المجتمعات تقريباً»<sup>(١)</sup>.

ويرى انطونيو غرامش: «إنّ علم وفن السياسة بكامله مستند على هذه الحقيقة الأولية البسيطة ... هي الوجود الفعلي للحكام والمحكومين وللقيادة والتابعين»<sup>(٢)</sup>.

وأغنى التجارب في ذلك تجربة بني إسرائيل؛ حيث كان الأنبياء يمثلون دور القيادة في الأمم السابقة كما جاء في قول رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما ملك نبي خلفه نبي...»<sup>(٣)</sup>.

والقيادة التي تمثل رأس الهرم في الحكومة والدولة والسلطة السياسية ضرورية للفرد والمجتمع؛ لدورها الكبير في الإشراف والتوجيه وتنظيم المسيرة الإنسانية ببعديها الروحي والمادّي، وهي ركن هام في التكوين للوجودات الإنسانية في مختلف المجالات الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وفي استمرارها في روح التغيير والبناء الخلقى والاجتماعي، يقول الدكتور عبدالرحمن عيسوي: «وتعد ظاهرة القيادة ضرورية بالنسبة لتكوين الجماعات ولاستمرار بقائها»<sup>(٤)</sup>.

وضرورة القيادة والزعامة من الحقائق الموضوعية الثابتة، وقد أكد الباحثون في علم الاجتماع على هذه الحقيقة، قال (ج كورتوا): «تحتاج الجماعة إلى رئيس يقودها، وهي بدون الرئيس كالجسم بدون رأس، أو كالقطيع التائه يسير بلا راعٍ نحو المجهول، تتقاذفه الأهواء حتى يسقط فريسة بين أنياب المفترسين»<sup>(١)</sup>. وقال الدكتور عبد العزيز القوسي: «الزعامة ضرورية في كل جماعة تريد أن يكون لها كيان، فللقبائل زعمائها، ولكل جماعة أو حزب زعيم، وكذلك تنصيب الملوك على الشعوب من أقدم العصور كان يقصد به التنظيم والتوجيه للشعب»<sup>(٢)</sup>.

فالحاجة إلى قائد وحكومة أمر فطري تستريح إليه النفوس، وتطمأن إليه القلوب؛ لأنه ينسجم مع نوازع الإنسان وأحاسيسه في الحاجة إلى سلطة ضاغطة؛ لذا جاءت الشريعة الإسلامية منسجمة مع هذه التطلعات الفطرية، فأكدت على ضرورة القائد وضرورة تشكيل الحكومة.

سئل الإمام علي بن موسى الرضا ' عن علة ذلك؟ فأجاب: «... منها: أن الخلق لما وقفوا على حدٍّ محدود، وأمروا أن لا يتعدوا ذلك الحدَّ لما فيه من فسادهم، لم يكن يثبت ذلك، ولا يقوم إلاَّ بأن يجعل عليهم فيه أميناً يمنعهم ... من الفساد، ويقيم فيهم الحدود والأحكام. ومنها: أننا لا نجد فرقة من الفرق ولا ملة من الملل بقوا وعاشوا إلاَّ بقيم ورئيس...»<sup>(٣)</sup>.

والشريعة الإسلامية في جانبها السياسي راعت أمر الفطرة الإنسانية؛ لذا نرى أن رسول الله ' يؤكد على تنصيب الأمير ولو على جماعة لا تتجاوز ثلاثة نفر؛ لأنَّ نوازع الإنسان ورغباته المتنوعة، والاختلاف في درجات الوعي والإدراك بين الناس، واختلاف المواقف اتجاه بقية الأفراد، واتجاه الأعمال والممارسات، بحاجة إلى منظم ينظمها وإن كانت في نطاق محدود، فجاءت توجيهات رسول الله ' منسجمة مع الفطرة الإنسانية، فكان يقول: «إذا

خرج ثلاثة في سفر فليؤثروا أحدهم»<sup>(١)</sup>.

وأول عمل قام به ' بعد لقائه بأهل المدينة في بداية استجابتهم لدعوته أن طلب منهم البيعة على القيادة والطاعة، وقد استجابوا له استجابة سريعة دون تردد أو تراجع؛ لانسجام مطالبه مع فطرتهم الإنسانية في الحاجة إلى قائد يوجه سيرهم وحركتهم، وينظم صفوفهم للانطلاق نحو الهدف السامي.

عن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول الله ' على السمع والطاعة في عسرا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله»<sup>(٢)</sup>.

وعن أسعد بن زرارة أنه قال: «يا رسول الله... ودعوتنا ونحن جماعة في دار عز ومنعة، لا يطمع فينا أحد أن يرأس علينا رجل من غيرنا، قد أفرد قومه وأسلمه أعمامه، وتلك رتبة صعبة فأجنبناك إلى ذلك...»<sup>(٣)</sup>.

والفطرة الإنسانية وإن كانت لا تستجيب إلى قيادة الغريب عنها في انتماءاته الجغرافية والقبلية، إلا أنها تستثني من له هالة قدسية، لا تتوفر في غيره - كما سيأتي - فكانت بيعة رسول الله ' استثناءً.

وأول خطوة قام بها ' بعد هجرته إلى المدينة أن أعلن قيام الدولة الإسلامية، ووضع دستوراً سياسياً في علاقات المهاجرين والأنصار فيما بينهم وعلاقاتهم مع أصحاب الديانات الأخرى، فلم يجد اعتراضاً من قبل الصحابة؛ لأن قيام الدولة ظاهرة منسجمة مع فطرتهم الإنسانية، تتقبلها عقولهم ونفوسهم، فالمهاجرون قبل إسلامهم كانوا يخضعون لسلطة قريش، وكان الأنصار يخضعون إلى سلطات قبلية تنظم شؤون حياتهم في جميع مجالاتها.

وكان ' لا يترك المدينة بدون أمير حفاظاً على الدولة وعلى النظام القائم، وتحسباً للطوارئ، وهذه القاعدة السياسية لم يشذ عنها أي قائد أو زعيم، وكان ' حريصاً على هذا التأمر، سواء طال خروجه من المدينة أم قصر على يوم وليلة<sup>(٤)</sup>.

وكان كثير من الصحابة يستجيبون طائعين؛ لإيمانهم بكون عمله من الضرورة السياسية، ولإنسجامها مع الفطرة الإنسانية.

والاختلاف الذي حصل بين الصحابة بعد رحيله ' حول القيادة والخلافة يعبر عن هذه الحاجة الفطرية، فذهب الإمام علي عليه السلام وأتباعه وبعض الصحابة إلى أن رسول الله ' قد عين علياً عليه السلام قائداً وخليفة، وذهب الآخرون إلى أنه ' لم ينص على أحد، وأن ولاية الإمام ' المنصوصة في الغدير تعبر عن ولاية النصرة، فبادروا إلى إجتماع السقيفة لتنصيب خليفة وحاكم على المسلمين - كما هو المشهور عند المؤرخين -، وتحرك الصحابة على عمر بن الخطاب لكي يستخلف عليهم خليفة انسجاماً مع الفطرة الإنسانية التي ترى ضرورة تنصيب من يقوم بإدارة الدولة والمجتمع، فحينما طعن عمر قال له ابنه عبد الله: «سمعت الناس يقولون مقالة، فأليت أن أقولها لك: زعموا أنك غير مستخلف، وإنه لو كان لك راعي إبل أو غنم، ثم جاءك وتركها رأيت أنه قد ضيع، فرعاية الناس أشد»<sup>(١)</sup>.

ودخل عليه بعض الصحابة يطالبونه بالاستخلاف<sup>(٢)</sup>.

واستمر المسلمون في التأكيد على ضرورة نصب الخليفة وإقامة الدولة، واختلفوا في شخص الخليفة، وكان الخلاف في طريقة الاستخلاف قائماً وإلى يومنا هذا، وقد استتبع ذلك الخلاف مواقف عملية أريق فيها الدماء، ولولا انسجام هذه الضرورة مع الفطرة لما توزع المسلمون على تيارات ومذاهب مختلفة، ولما تفاعلوا مع الأحداث مضحين بأنفسهم وأموالهم، قال الشهرستاني: «وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة؛ إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان»<sup>(٣)</sup>.

وكان المعارضون للخليفة والحاكم المتصدي يختارون شخصاً من بينهم ليكون زعيماً لهم يقود الحركة مستهدفاً القضاء على الخليفة؛ ليقوم بنفسه بتبديل

النظام القائم والدولة القائمة، بنظام جديد ودولة جديدة، تحت إشرافه، وكان أتباعه يسرون على نهجه، ويضحون من أجل ذلك، ولولا انسجام ضرورة تنصيب القائد أو الخليفة مع فطرة المعارضين لما ضحوا في سبيلها؛ لوجود أنس وعلاقة روحية ونفسية مع هذه الفكرة غاية الأمر هو اختلاف الأشخاص المراد تنصيبهم.

ونقصد بالقائد هنا هو المتولي لإدارة الشؤون العملية، وإقامة الشريعة والعدل والحكم بين الناس، أي: المشرف على الدولة والحكومة، وليس مقصودنا هو الإشراف من قبل الله تعالى من خلال إنسان معين بأن يكون هو الحجة من قبله في العقيدة والتشريع، فالمقصود هو الرتبة الثانية من القيادة المختصة بالجانب السياسي، وكما عبّر عنها الإمام علي عليه السلام في رده على القائلين: (لا حكم إلا لله)، حيث قال: «كلمة حق يراد بها باطل! نعم إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله، وإنه لا بد للناس من أمير برّ أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقا تل به العدو، وتأمّن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح برّ، ويستراح من فاجر»<sup>(١)</sup>.

وضعت الشريعة الإسلامية للقائد المتصدّي لشؤون الأمة والدولة خصائص وصفات، مراعية في هذا الوضع الانسجام مع واقع الإنسان وفطرته، فالإنسان بطبيعته يرفض الخضوع والاستسلام لإنسان مثله إلا أن يتميز عليه بخصائص نادرة وصفات فريدة لا يجد بداً من الخضوع والاستسلام إن وُجدت، وهي العلم والعدالة والكفاءة، إضافة إلى الشجاعة والحلم وغيرها، وهذه الخصائص والصفات مقبولة من قبل العقول والقلوب، حيث تستريح



وتركن إليها النفس البشرية في جميع المجتمعات البدائية والمتحضرة.

فالإنسان بطبيعته يخضع لمن يتصف بالعلم، ويشعر بأنه متفوق عليه، فلا يجد غضاضة في اتباعه والاستسلام إلى توجيهاته وإرشاداته وأوامره؛ لذا نجد أن الشريعة في جانبها السياسي، اشترطت في القائد أن يكون عالماً فقيهاً مجتهداً، قال رسول الله : ' «المتقون سادة، والفقهاء قادة، والجلوس إليهم عبادة»<sup>(١)</sup>. وقال : ' «اللهم ارحم خلفائي»، وحينما سئل عن مقصوده، أجاب: «الذين يأتون بعدي ويروون حديثي وسنتي»<sup>(٢)</sup>.

وربط الإمام علي عليه السلام بين العلم والقدرة على القيادة فقال: «إنَّ أحقَّ الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر الله فيه»<sup>(٣)</sup>.

والإنسان بفطرته يميل للإنسان الأمر المتصف بالتقوى والعدالة وحسن السيرة، ويخضع له خضوعاً لا شعورياً، لإيمانه بأمانته وعفته، فهو الأصلح من غيره في القيادة واستجابة الناس له، قال رسول الله : ' «لا تصلح الإمامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم»<sup>(٤)</sup>.

وقال الإمام علي عليه السلام - مبيناً قاعدة كلية في اختيار القائد - : «والواجب في حكم الله وحكم الإسلام على المسلمين... أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً عالماً وعارفاً بالقضاء والسنة»<sup>(٥)</sup>.

وقال أيضاً: «يحتاج الإمام إلى قلب عقول ولسان قؤول وجنان على إقامة الحق صؤول»<sup>(٦)</sup>.

واشترط عليه السلام في القائد أن يكون كفوءاً في إدارة شؤون الأمة والدولة، بأن يكون حازماً في الأمر، متوازناً في أساليبه، من حيث الشدة واللين، والعزّة المصحوبة بالعفو، والعفو دون إضاعة حق<sup>(٧)</sup>.

وتسالم فقهاء السنة والشيعة على هذه الشروط والخصائص والصفات،

فاشترط الماوردي: الاجتهاد والعدالة، والرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح<sup>(١)</sup>.

وقال النووي: «كونه عدلاً عالماً مجتهداً شجاعاً ذا رأي وكفاية»<sup>(٢)</sup>.  
وتابعهم بقية الفقهاء السنة على نفس الرأي<sup>(٣)</sup>.

وجعل الإمام الخميني هذه الخصائص من المسلمات لدى المسلمين من أول يوم وحتى يومنا هذا فقال: «الحاكم أو الخليفة ينبغي أن يتحلّى بالعلم بالقانون، وعنده ملكة العدالة، مع سلامة الاعتقاد، وحسن الأخلاق»<sup>(٤)</sup>.

وذكر السيد محمود الهاشمي الشروط نفسها في تفسيره لمعنى ولاية الفقيه، فقال: «تعني: حاكمية الفقيه الجامع لشرائط الولاية، من العلم والتقوى، والشجاعة، والاطلاع على أوضاع الأمة وحمل همومها»<sup>(٥)</sup>.

واختصاص القيادة بالفقيه الجامع لشرائط الاجتهاد والعدالة والكفاءة، أمر منسجم مع الفطرة الإنسانية، فنحن نجد من خلال استقراء التاريخ والواقع الآتي أن الناس يستجيبون للفقيه دون تردد أو تراجع، ويستجيبون لأوامره عن قناعة، ويستسلمون له استسلاماً ذاتياً؛ لأنهم يشعرون بتفوقه عليهم أولاً، وبقدسية الأوامر والتوجيهات؛ لأن الله تعالى هو الذي حدّده ضمن هذه الشروط، فهو الرقيب على الناس قبل رقابة القانون.

والفقيه الجامع للشرائط له ارتباط عضوي بالشريعة الإسلامية، وروح الدين العامة، فتكون الإستجابة له تامة؛ لأن الإنسان بفطرته متوجه إلى الدين والانتماء إلى تشريعاته، لذا نجد في أغلب المجتمعات أن السلطة التي تستمد مقوماتها من الدين أكثر تأثيراً في الناس؛ لأنها تناغي فطرة التدين، وفي ذلك قال فوستيل دي كولانج: «في المجتمعات البدائية... نجد أن الملوك والسلاطين والرؤساء ومن إليهم، ليسوا بمجرد حكام يملكون السلطة الزمنية فقط، وإنما هم يجمعون إليها كثيراً من السلطات الروحية المتوارثة منذ القديم، ويستمدون

سلطتهم السياسية مما اتفقوا عليه من أوضاع دينية لديهم... ومهما اختلفت الديانة في المجتمعات، فإنها في المجتمعات القديمة تتميز بالسيادة المطلقة على الحياة الخاصة والحياة العامة التي كانت الدولة فيها جماعة دينية، والملك حبراً، ورجل الدولة كاهناً...»<sup>(١)</sup>.

ويرى جان جاك روسو أن الإنسان لا يخضع إلى إنسان مثله؛ ما لم يتميز عليه، وخصوصاً في ميزة الدين، فيقول: «لم يكن للبشر قط في أول الأمر ملوك سوى الآلهة، ولا حكومة أخرى سوى الحكومة الدينية، فقد كانوا يفكرون بمنطق كاليغولا، وعندئذ كان تفكيرهم صحيحاً، فلا بد من تزييف طويل في المشاعر والأفكار، حتى يتمكن الإنسان من إقناع نفسه باتخاذ آدمي مثله سيداً له وأن يتباهى بأن حالته سوف تكون أفضل»<sup>(٢)</sup>.

إنَّ الإنسان بفطرته يميل إلى القائد الأكثر فضلاً في الخصائص والصفات المتقدمة، فلا يقدم العالم على الأعلم، ولا العادل على الأعدل ولا الكفو على الأكفأ، ودرجة الانقياد والاتباع تخضع لدرجة الأفضلية، وهذا الأمر فطري؛ لذا راعت الشريعة في جانبها السياسي، اشتراط الأفضلية مراعاة منسجمة مع الواقع، فالنفس الإنسانية تستحسن ذلك، وتستقبح غيره.

وأكد الباحثون في علم السياسة وعلم الاجتماع على هذه الحقيقة المنسجمة مع فطرة الإنسان وتطلعاته نحو اختيار الأفضل والسير على ضوء تعليماته وإرشاداته، قال (ج. كورنوا): «على الرئيس أن يكون أكثر يقظة من الآخرين... أكثر ذكاءً... أكثر دقة، وأسرع في اتخاذ القرار، وأشجع في الأخطار، وأكثر صراحة... وأكثر ثباتاً في العمل، وأكثر دماثة وغنى بالعواطف النبيلة»<sup>(٣)</sup>.

ويرى الدكتور عبد العزيز القوسي أن يكون القائد شديد الإيمان بالهدف، وأن يكون شخصية متميزة على غيرها، في الفعل والخلق، وأن يتميز بذكاء نادر، وبصيرة نافذة، وخلق عالٍ، وبقوة الإرادة، وتمثيل آمال الجماعة وطموحاتهم، وأن يتميز بالتضحية الكاملة»<sup>(١)</sup>.

وقد راعت الشريعة الواقع الموضوعي، والفطرة الإنسانية، فقدمت الأفضل على غيره، قال رسول الله ﷺ: «من تقدّم على قوم من المسلمين، يرى فيهم من هو أفضل منه، فقد خان الله ورسوله والمسلمين»<sup>(٢)</sup>.

وقد احتج الإمام علي عليه السلام على المهاجرين بالأفضلية، باعتبارها منسجمة مع فطرة الإنسان، وأن اختيار غير الأفضل مخالف للفطرة، فقال: «... ونحن أحقُّ بهذا الأمر منكم؛ ما كان فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية، الدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنّه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلّوا عن سبيل الله، فتزدادوا من الحقّ بعداً»<sup>(٣)</sup>.

وأكد كثير من الفقهاء على اشتراط الأفضلية، ومنهم الباقلاني؛ في تبيان الخصائص وشروط القائد أو الإمام، حيث قال: «أن يكون من أمثلهم في العلم وسائر الأبواب التي يمكن التفاضل فيها...»<sup>(٤)</sup>.

ويرى الماوردي تقديم أكثرهم فضلاً وأكملهم شروطاً<sup>(٥)</sup>.

وقد أثبت الواقع انسجام هذه الشروط بجميع مراتبها مع الفطرة الإنسانية، فحينما طرح الإمام الخميني رحمه الله مشروع قيام دولة إسلامية بقيادة الفقيه الجامع للشرائط استجاب المسلمون لأساس النظرية، ثم اختاروا الإمام الخميني رحمه الله قائداً للدولة بعد قيامها؛ لأنّه الأفضل من غيره في موازين التفاضل، وانتخب الخبراء الإمام الخامنه من بين ٧٤ خبيراً، وحصل على تأييد وإسناد من قبل كثير من المسلمين خارج الجمهورية الإسلامية؛ لانسجام نظرية ولاية

الفقيه مع الفطرة، وانسجام الخصائص المتوفرة في القائد المتصدّي بالفعل مع تطلعات المسلمين الفطرية.

إنّ القرار الإسلامي ينطوي على عوامل واقعية، منها: انسجامه مع الشريعة، ووجود المصلحة، ومساعدة الظروف الموضوعية، والشريعة الإسلامية في الجانب السياسي تراعي هذه العوامل في اتخاذ القرار واتخاذ الموقف، وهي تستوحي الخطط والبرامج والأساليب من حركة الواقع الموضوعي، والقرار يتخيّر من ظرف إلى ظرف تبعاً للشرعية والمصلحة الإسلامية، ففي مجال اختيار الحاكم أو رئيس الدولة يجب اختيار الفقيه العادل الكفوء، إذا كانت الظروف ملائمة لاختياره وبسط اليد له.

أمّا إذا تغيرت الظروف، وكان الواقع لا يساعد على تنصيبه وبسط اليد له، بأن كان المتصدي عادلاً ولكنّه فاقد لصفة الفقاهاة، أو كان فاسقاً، وكانت الظروف لا تسمح بمواجهة الواقع في كل تحدياته وضغوطه، ودار الأمر بين المهم والأهم، بين بقاء الأمة بدون حاكم أو الإبقاء على غير المؤهل أو حدوث فتنة لا تطاق تسفك فيها الدماء دون نتيجة مثمرة، فإنّ الشريعة تراعي الواقع، ولا تكلف الإنسان فوق طاقته، ولا تلزمه باتخاذ موقف وقرار لا يمكن تحقيقه في الخارج وفي الواقع المعاش.

وفي مثل هذا الظرف فإنّ الشريعة تتعامل بواقعية مع الكيان القائم، من أجل المصالح الكبرى التي تتحقق من دون الإعلان عن شرعية غير المؤهل، فتقرر البقاء عليه، ولا تدعو الأمة إلى الانعزال عن كل الحكم القائم، لأنّ الانعزال يؤدي إلى فقدان الكثير من مقومات حياة الأمة ومصالحها الكبرى التي تحتاجها في تعاملها مع الحكم القائم.

وهي تدعو إلى التعايش مع الواقع دون الاعتراف بمشروعيته، وهذه الدعوة هي انسجام مع الفطرة الإنسانية الراضية للانعزال، والتي تقدّم الأهم على المهم تبعاً لظروف المصالح والمفاسد.

وقد دلّت الروايات على مراعاة الواقع، فملتصدي للحكم وإن كان غير مؤهل لكنّه قد يساهم في انجاز المشاريع والبرامج التي تعود بالنفع للصالح العام، قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»<sup>(١)</sup>. وقال الإمام علي عليه السلام: «وال ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم»<sup>(٢)</sup>.

وقد راعت الشريعة الواقع والفطرة في أسسها وقواعدها على ضوء القاعدة الثابتة (الضرورات تبيح المحظورات)، وهي قاعدة عامة تتجلى في الجانب السياسي في الإبقاء على سلطة غير المؤهل، وفي ذلك قال التفتازاني: «وبالجملة مبني على ما ذكر في باب الإمامة على الاختيار والاقتدار، أمّا عند العجز والاضطرار، واستيلاء الظلمة... وتسلب الجبايرة الأشرار، فقد صارت الرياسة الدنيوية تغلبة، وبنيت عليها الأحكام الدينية المنوطة بالإمام ضرورة، ولم يعبأ بعدم العلم والعدالة وسائر الشرائط والضرورات تبيح المحظورات، وإلى الله المشتكى في النائبات»<sup>(٣)</sup>.

### أولاً: البيعة

من أساسيات المنهج الإسلامي في الحكم والسياسية الاعتماد على الأمة في انجاح البرامج والمشاريع، والأمة بجميع أفرادها حكماً كانوا أم محكومين مسؤولة عن تنفيذ الأوامر الإلهية، فكلّ منهم دور يساهم من خلاله في إرساء دعائم المنهج وتطبيقه في أرض الواقع، ومن هنا جاءت البيعة لتوزع المسؤولية على المبايع له والمبايعين، وكلّ منهما مسؤول عن تنفيذ ما تعهّد به عند إجراء

البيعة.

والبيعة هي عهد من قبل الحاكم المبايع له على تطبيق الإسلام في الواقع، وهي عهد من قبل الأمة على طاعة الحاكم وإسناده لإنجاح التكليف المشترك. والبيعة من الوسائل التي كانت قائمة قبل الإسلام لإثبات الزعامة أو إنشائها، وجاء الإسلام فأقرها بالصورة المنسجمة مع أسسه وموازنه الجديدة. ولقد راعى الإسلام الواقع والفطرة الإنسانية في إقرار البيعة، فالإنسان بطبيعته يسعى لتنفيذ ما تعهد به، ويزداد سعيه حينما يجد الطرف المقابل جاداً في الوفاء؛ ولهذا فقد جعل الإسلام البيعة أمراً اختيارياً ليندفع الإنسان بإرادته في تنفيذ ما تعهد به.

وفي حالة عدم الوفاء ببنود البيعة من قبل الحاكم، فإن الأمة غير ملزمة بالطاعة، وقد راعت الشريعة في ذلك فطرة الإنسان.

فالإنسان بفطرته لا يستسيغ الوفاء لمن لا وفاء له، ولا يتفاعل مع طاعة من لا يثق بالعهود التي قطعها على نفسه، فقد خاطب الإمام علي عليه السلام الناقضين لبيعته بالقول: «إنما كان لكم ألا ترضوا قبل الرضا وقبل البيعة، وأما الآن فليس لكم غير ما رضيتما به، إلا أن تخرجوا مما بويعت عليه بحدث، فإن كنت أحدث حدثاً فسموه لي»<sup>(١)</sup>.

فالشريعة لا تلزم الإنسان بالطاعة لمن لا يثق ببنود ما عاهد الآخرين عليه. وراعى الإسلام فطرة الإنسان في اختيار الحاكم، فبعد أن وضع شروطاً في اختياره على أساس العلم والعدالة والكفاءة، ترك للأمة حق اختيار الأفضل، حيث إن غريزة الانتخاب والاختيار مودوعة في فطرة الإنسان، قال الشهيد الصدر: «والمرجع الشهيد معيّن من قبل الله تعالى بالصفات والخصائص... ومعين من قبل الأمة بالشخص؛ إذ تقع على الأمة مسؤولية الاختيار الواعي له... ومن هنا، فإن البيعة تعبر عن تأكيد شخصية الأمة ودورها في الخلافة،

فالأمة بالبيعة تحدد مصيرها، وإنَّ الإنسان حينما يبايع يساهم في البناء، ويكون مسؤولاً عن الحفاظ عليه»<sup>(١)</sup>.

### ثانياً: الشورى

الشورى إحدى قواعد الحكم المهمة، وهي وسيلة لتوثيق العلاقة بين الحاكم والأمة بمختلف طبقاتها، وهي التي تجعل الأفراد يشعرون بشخصيتهم وكرامتهم وحريتهم، وتشعرهم بأنَّ لهم دوراً في صنع القرار، وفي الشورى مراعاة للفطرة الإنسانية؛ التي تتجسد بعض معالمها في ارتباط الرأي بالكرامة الإنسانية، فمن يُستشار يشعر بصيانة كرامته وحفظها، وأنَّ له تقديراً يكمن في الأخذ برأيه، وقد جاءت الشورى في القرآن الكريم في سياق جملة من الممارسات الحافظة للإنسان كرامته وكبريائه، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والإنسان بطبيعته الاجتماعية وضعف إمكانياته العقلية والفردية بالقياس للمجتمع الكبير، بحاجة إلى معرفة آراء الآخرين، والشورى هي التي تجمع الآراء وتلاقح فيما بينها، إضافة إلى ذلك فانها تساهم مساهمة فعّالة في تطيب القلوب والخواطر، فيشعر الإنسان بأنَّ علاقته مع الحاكم ليس علاقة فوقية تصدر فيها الأوامر والنواهي، وانما هي علاقة تعاون واسناد لإنجاح المهام والتكليف، التي اشترك الطرفان في تخطيطها وبرمجتها.

والإنسان بطبيعته الفطرية لا يتفاعل مع المستبدين بأفكارهم وآرائهم، لأنَّ الاستبداد تقييد لحرية وتجميد لكرامته وكبريائه، والشورى هي التي تجعله ينطلق بحريته دون ضغط أو إكراه، وقد أثبتت حركة التاريخ السياسية أنَّ الشعوب لا تتفاعل مع حكامها المستبدين على طول التاريخ، وكانت تسعى لإزالتهم عن دفة الحكم، واستبداهم بمن يراعي الشورى في سيرته السياسية



والاجتماعية.

والشورى رافقت المسيرة التاريخية للمسلمين منذ الصدر الأول للإسلام، ولم يستغن عنها أي قائد أو حاكم أو خليفة، فرسول الله ' وإن كان مستغنياً عنها إلا أنه عمل بها رحمة منه للأمة التي تميل إليها بفطرتها وطبيعتها الإنسانية، فعن عبد الله بن عباس قال: «لما نزلت (وشاورهم في الأمر) قال رسول الله ' : أما إن الله ورسوله لغنيان عنها، ولكن جعلها الله رحمة لأمتي فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيًّا» (١).

وكان ' يستجيب لمقتضى الشورى تقديرًا منه لآراء المستشارين وتطبيقًا لخواطرهم، ومراعاة لموجبات الفطرة في الأخذ برأي المستشار كما حدث في بعض الغزوات حيث غير موقعه العسكري استجابة لرأي أحد الصحابة، وأثنى على سعد بن معاذ حينما أشار عليه ابتداءً ببناء عريش له (٢).

وجعلت الشريعة شروط المستشارين موافقة للفطرة الإنسانية، فالفطرة تتجه نحو استشارة من يتصف بصفات حميدة كما حددها الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «شاور في أمورك ما يقتضي الدين من فيه خمس خصال: عقل، وعلم، وتجربة، ونصح، وتقوى، فإن تجد فاستعمل الخمسة وأعزم وتوكل على الله، فإن ذلك يؤديك إلى الصواب» (٣).

ومجالات الشورى متعلقة بجميع المرافق والنشاطات التي لم يرد فيها نصّ ثابت واضح الدلالة، وبعبارة أخرى فإنّها تتعلق بالتطبيقات والإنجازات العملية في مختلف جوانب الحياة، ومنها ما يتعلق بالسياسية والحكم، وخصوصاً في اختيار الحاكم ضمن الشروط التي حددتها الشريعة الإسلامية، وإذا كان الواقع لا يساعد على مشاركة جميع الأفراد في اختيار الحاكم سواء كانوا قاطنين في عاصمة الدولة الإسلامية، أو في الأمصار البعيدة، فالشريعة خصصت المشاركين بمن يحمل صفات معيّنة مقبولة من قبل الجميع، أو اشتراك الجميع في

الموافقة على تمثيلهم، وهم ما يطلق عليهم أهل الاختيار أو الخبراء أو أهل الحل والعقد، وهذا الأمر يفرضه الواقع، وتفرضه فطرة الإنسان التي تخضع لمن يمثلها أو يتميز عليها بمميزات التفوق.

وقد كانت سيرة المسلمين قائمة على هذا الأساس، فالإمام علي عليه السلام يحتاج على معاوية باختيار المهاجرين والأنصار له، والإمام علي عليه السلام وإن كان معيناً بالنص عند الشيعة، إلا أنه وضع مسألة كبرى منسجة مع ما هو مركز في أذهان المسلمين، فقال: «فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا الغائب أن يرُدَّ، وإنَّما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجلٍ وسموه إماماً كان ذلك لله رضى، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردَّوه إلى ما خرج منه»<sup>(١)</sup>.

وشروط أهل الاختيار أو أهل الحل والعقد منسجمة مع ميل الفطرة الإنسانية إلى الفقيه العادل الكفوء، وقد اشترط الفقهاء هذه الشروط في من يشارك في اختيار القائد أو الحاكم<sup>(٢)</sup>.

وأفضل تجربة في المرحلة الراهنة تجربة الجمهورية الإسلامية في إيران، فالمجلس الذي يختار القائد يتكون من مجموعة من الفقهاء العدول الأكفاء المنتخبين من قبل الشعب والحائزين لرضاه، فحينما اختاروا الإمام الخامني قائداً، تبعته الأمة في ذلك وأقرت قيادته عملياً.

### ثالثاً: شروط حق الطاعة

أوجبت الشريعة طاعة القائد أو الحاكم الإسلامي ليقوم بأداء مسؤوليته في حركة الواقع، وينهض بالأمة إلى تحقيق الأهداف الإسلامية الكبرى، وجعلت الشريعة طاعته من طاعة الله تعالى؛ لأنَّ الفطرة الإنسانية تستجيب لمن ترتبط طاعته بطاعة الخالق المهيمن على الوجود بأسره، فهي تطيع من أمر الله بطاعته، ومن تميز عليها بخصائص وصفات التفوق، فهي لا تطيع إنساناً وإنَّما تطيع حكماً شرعياً.

ووجوب الطاعة منسجم مع الفطرة الإنسانية، فالإنسان بطبيعته لا يطيع إنساناً مثله إن لم يجد نتائج في هذه الطاعة تعود بالنفع له أولاً ولغيره ثانياً؛ لذا جعلت الشريعة حق الطاعة مشروطاً بقيام القائد والحاكم بأداء حقوق الأمة، قال الإمام علي عليه السلام: «ألا وإن لكم عندي ألا أحتجز دونكم سراً إلا في حرب، ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم، ولا أؤخر لكم حقاً عن محله، ولا أقف به دون مقطعه، وأن تكونوا عندي في الحق سواء، فإذا فعلت ذلك وجب الله عليكم النعمة ولي عليكم الطاعة»<sup>(١)</sup>.

ووجوب طاعة الأمراء أو الوزراء أو العاملين في مؤسسات الدولة مشروطة بأداء حقوق الناس، قال الإمام علي عليه السلام: «وإن حقكم عليه: إنصافكم، والتعديل بينكم، والكف عن فيئكم، فإذا فعل ذلك معكم وجبت عليكم طاعته بما وافق الحق ونصرته على سيرته»<sup>(٢)</sup>.

فللطاعة شروط ولا إطلاق لها، فإن أخل القائد أو الحاكم بواجباته، فإن الفطرة الإنسانية لا تميل إلى طاعته؛ لذا كانت الطاعة منسجمة مع الفطرة.

ويطاع القائد والحاكم في خصوص الأوامر التي لا معصية فيها، فيجب أن يكون الأمر مشروعاً كي يكون موضوعاً لحق الطاعة، وهذا الشرط متسالم عليه بين المسلمين، سواء كان القائد فقيهاً عادلاً وأخيراً في بعض أوامره، أو فاسقاً أو جائراً اغتصب المنصب ولا يقوى المسلمون على إزاحته، فالطاعة في كلا الأمرين مقيدة بالأمر المشروع قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»<sup>(٣)</sup>.

وقال ﷺ: «من أَرْضَى سلطاناً بما أسخط الله تعالى خرج من دين الإسلام»<sup>(٤)</sup>.

وقد أكد الفقهاء والعلماء على هذه الخصوصية في الطاعة، قال المودودي: «فاذا انتخبوه فهو ولي الأمر المطاع في حكمه، ولا يعصى له أمر ولا نهى،

ويعتمد عليه في تنفيذ الأوامر اعتياداً كاملاً ما دام يتبع الشريعة ويحكم بالكتاب والسنة»<sup>(١)</sup>.

وقال بدر الدين العيني: «وجوب السمع والطاعة للإمام ... ما لم تكن معصية؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والأخبار الواردة بالسمع والطاعة للأئمة ما لم يكن خلافاً لأمر الله تعالى ورسوله، فإذا كان خلاف ذلك فغير جائز لأحد أن يطيع أحداً في معصية الله ومعصية رسوله، ونحن ذلك قالت عامة السلف»<sup>(٢)</sup>.

#### رابعاً: حق الأمة في النقد والمحاسبة

جعلت الشريعة للأمة حق النقد والمحاسبة؛ مراعاة منها للفطرة الإنسانية، التي تروم الحرية وتنشدها في مواقفها وممارساتها السلوكية، فالإنسان خلق حراً، والحرية جزء من كينونته وطبيعته الإنسانية، ومن مظاهر الحرية حرية التعبير عن الرأي، وحرية إبداء وجهات النظر في مختلف القضايا والمواقف والأحداث، وحرية الاعتراض والنقد والمحاسبة في مواقف الخطأ والاشتباه والانحراف عن المنهج السليم.

وفي مجال الحكم والسياسة وعلاقة الأمة بالقائد أو الحاكم وعمّاله ومؤسساته، جعلت الشريعة للأمة حق الإصلاح والتغيير وحق النقد والمحاسبة طبقاً لمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جسّد رسول الله ' هذا الحق في سيرته، فإنه ' وإن كان مسدداً من قبل السماء إلا أنه سمح للصحابة بالاعتراض عليه مراعاة لحياتهم، ومداراة لمستوياتهم العقلية والفكرية، وانسجماً مع الفطرة الإنسانية، فقد اعترض عليه الصحابة حين عقد صلح الحديبية فأعطاهم الحرية الكاملة في تبين وجهات نظرهم<sup>(٣)</sup>؛ لأنهم لم يدركوا أبعاد الصلح ونتائجه الإيجابية المستقبلية، واعترض أحد الصحابة عليه حينما صلى على رأس المنافقين<sup>(٤)</sup>، واعترض عليه ذو الخويصرة اعتراضاً

مصحوباً بسوء الأدب<sup>(١)</sup>، فاستقبل الاعتراض برحابة صدر، وكان الصحابة يعترضون على الخلفاء سواء كان اعتراضهم صحيحاً أو غير صحيح، وكانت لهم الحرية الكاملة في الاعتراض.

وجوزت الشريعة استخدام مختلف الأساليب في ترجمة حق الاعتراض، وحق المحاسبة، وحق الإصلاح والتغيير، بالقول أولاً وبالفعل ثانياً، تبعاً للظروف وللمصلحة الإسلامية الكبرى، ولم تكتف الشريعة بجعله حقاً فحسب، بل جعلت ممارسته وتحقيقه بالقول والفعل واجباً شرعياً يجب القيام به لإيقاف الخطأ والانحراف، والعودة إلى التقيد بأحكام الشريعة ضمن الحقوق والواجبات المحددة في ثوابت وأساسيات الأحكام السياسية.

وأول خطوات الاعتراض والنقد هو نصح الحاكم ومؤسساته، وتذكيره بالمنهج المستقيم، ودعوته للعودة إليه، قال رسول الله : «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»<sup>(٢)</sup>.

وقال : «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»<sup>(٣)</sup>.

وحذر : «من العقاب في حال السكوت عن انحراف الظالمين، فقال: «الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، يوشك أن يعمهم الله بعقاب»<sup>(٤)</sup>.

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «من مشى إلى سلطان جائر فأمره بتقوى الله ووعظه وخوفه كان له مثل أجر الثقلين الجن والإنس ومثل أعمالهم»<sup>(٥)</sup>.

وإذا لم يرتدع الحاكم بالقول الحسن وتمادى في انحرافه وأصرّ على نفس الممارسات، فإنّ الشريعة لم تجور الركون إليه والاستسلام لحكومته قال تعالى:

﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنَمَسَكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

وأوجبت على المسلمين اتخاذ موقف عملي اتجاهه لإيقاف الانحراف، وإن أدّى ذلك إلى عزله، والجواز والوجوب في استخدام القوة ملاكه الظروف والمصلحة الإسلامية، وهذا الموقف موقف واقعي ينسجم مع الفطرة الإنسانية التي ترفض الاستسلام للمنحرفين والجائرين وإن أدّى الرفض إلى التضحية بالمال والنفس، والتاريخ يحدثنا عن ثورات الأمم والشعوب التي ترفض العبودية والاضطهاد والذلّ، ففي نهضة الإمام الحسين (عليه السلام) ذكر المسلمين بقول رسول الله '، فقال: «أيّها الناس إنّ رسول الله ' قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله ' يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر ما عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله»<sup>(١)</sup>.

والرأي المختار عند الشيعة هو وجوب إزاحة الحاكم الجائر من منصبه، وجواز استخدام القوة المسلحة في ذلك<sup>(٢)</sup>، أمّا الوجوب فهو أمر تتحكم به الظروف والأوضاع القائمة.

وقد تابع بعض فقهاء السنة هذا الرأي في وجوب إزاحة الحاكم الفاسق والجائر، ومنهم: الماوردي، وعبد القاهر البغدادي، وابن حزم والجرجاني<sup>(٣)</sup>. وجوز بعض فقهاء غير الشيعة جواز الخروج بالقوة والسيف، قال إمام الحرمين الجويني - كما حكى عنه التفتازاني - : «وإذا جار والى الوقت، فظهر ظلمه وغشمه، ولم يرعو لزاجر عن سوء صنيعه بالقول، فلأهل الحل والعقد التواطئ على ردعه، ولو بشهر السلاح، ونصب الحروب»<sup>(٤)</sup>. وذهب الجرجاني إلى جواز الخلع بقوة السياف، واحتمال أدنى الضررين عند حدوث فتنة<sup>(٥)</sup>.

وجميع المواقف من الجائر والفاسق يراعى في اتخاذها الواقع والظرف

والمصلحة الإسلامية، ويراعى فيها الفطرة الإنسانية التي تنطلق للحفاظ على حرية الإنسان وكرامته وإن كلف الموقف حياته ودمه، والفطرة تراعي النتائج الإيجابية والمصالح المحسوسة في اتخاذ الموقف.

#### خامساً: المساواة أمام القانون

من الأسس الثابتة المنسجمة مع الفطرة الإنسانية هي المساواة بين الناس، فالإنسان بفطرته يحدّ التساوي مع الآخرين بحيث لا يتميز عليه أحد، ما دام يرتبط معه برباط الإنسانية ويساويه في الخلق وفي سائر الخصائص والصفات الإنسانية، فالجميع مخلوقون من قبل الله تعالى، الذي أودع في كيانه العقل والغريزة على حدّ سواء؛ ولذا فإن الإنسان يرفض تميز الآخرين عليه على أساس اللغة واللون والانتماء العرقي، ويرفض تميز مثله عليه في الحقوق والواجبات وخصوصاً أمام القانون، سواء كان المتميز عليه حاكماً أو من سائر الناس، ما داموا يرتبطون برباط الإنسانية.

والمساواة أمام القانون هو شرط من شروط صلاحية الحاكم لمنصبه، قال الإمام علي عليه السلام: «ثلاثة من كنّ فيه من الأئمة صلح أن يكون إماماً اضطلع بأمانته، إذا عدل في حكمه، ولم يحتجب دون رعيته، وأقام كتاب الله تعالى في القريب والبعيد» (١).

وكتب إلى أحد ولاته: «فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرنّ إلى الله فيك، ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار، ووالله لو أنّ الحسن والحسين فعلاً مثل الذي فعلت، ما كانت لهما عندي هوادة، ولا ظفرا مني بإرادة، حتى آخذ الحقّ منهما، وأزيح الباطل عن مظلّمتها» (٢).

والمشهور عند المؤرخين أنّ رسول الله ' وبعض الخلفاء كانوا يساوون أنفسهم مع الآخرين أمام القانون.

## سادساً: مراعاة التعددية في الانتماءات الثانوية

الانتماءات الثانوية كالانتماء إلى العشيرة والقومية والوطنية انتماءات فطرية؛ لذا أقرت الشريعة الإسلامية هذه الانتماءات، وتعاملت معها كظاهرة واقعية لا يمكن تجاوزها أو إلغاؤها، ففي الصدر الأول للإسلام كانت الوجودات القائمة متعددة في الانتماء، وبقيت على انتماءاتها، في ظل الانتماء الأساسي وهو الانتماء إلى الإسلام، فهناك الأوس والخزرج منضوين تحت عنوان الأنصار، وكانت النخبة المهاجرة من مكة لها انتماءات عشائرية متنوعة، وجميعها منضوية تحت عنوان المهاجرين، وقد راعى ' هذه الانتماءات، فقد جعل كل رئيس عشيرة نقيباً على عشيرته، وجعل عدد النقباء يتناسب مع عدد الأفراد التابعين لهم فاختر اثني عشر نقيباً؛ تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس<sup>(١)</sup>، ولم يجعل نقيباً من الخزرج على جماعة من الأوس أو بالعكس، وفي السنة التاسعة من الهجرة دخل الناس في الإسلام أفواجا، وكانت الوفود تلتقي برسول الله '، فيجعل كل رئيس وفد زعيماً على وفده وأميراً من قبله ' مراعاة منه للميل الفطري لدى الناس الذين يستأنسون ببقاء رئيس عشيرتهم أميراً عليهم.

ومع مراعاة هذه الانتماءات لم تجعل أساساً في التقييم وفي التفاضل، وحرمت الشريعة التعصب لها، وجعلت التقوى هي الميزان والمعيار في تفضيل الناس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال رسول الله ' : «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»<sup>(٢)</sup>.

والتقويم على أساس التقوى أمر له قبول عند الفطرة الإنسانية؛ لأنها بدورها تستأنس بالمتقي الأمين، وتجعله في مقام يفوقها؛ لقربه من الله تعالى،



ومن الأخلاق الصالحة والمكارم الحميدة، ولا تأثير للانتهاكات الثانوية على تغيير موجبات الفطرة في التقييم الموضوعي.

وحدة القيادة من الحقائق الموضوعية التي يحكم بها الواقع، وتحكم بها الفطرة الإنسانية، فطبيعة الإنسان تستسلم لقيادة واحدة في الدولة والمجتمع، ولا يتصور أن إنساناً يوالي قيادتين في آن واحد إلا إذا كانت أحدهما في طول الأخرى، ومقومات شخصية الإنسان في الفكر والعاطفة تستأنس بالقائد الواحد، وتكون الإرادة الإنسانية التي تتبع ما يمليه الفكر والعاطفة مستسلمة لقائد واحد، وإن توزعت الولاءات في الواقع على قيادات مختلفة إلا أن كل إنسان يرى أن ولاءه لقائد معين هو الموقف السليم، ويرى وجوب انضواء تلك الولاءات تحت ولاء من يراه أهلاً للقيادة.

ووحدة القيادة هي أمر واقعي دلت عليه حركة الأمم في جميع مراحل المسيرة الإنسانية، فالأنبياء <sup>٨</sup> كانوا قادة الأمم، ورغم تعدد الأنبياء في بعض المقاطع الزمنية إلا أن القيادة تكون للنبي الإمام، ففي عهد إبراهيم عليه السلام كانت الإمامة والقيادة مختصة به على الرغم من وجود أنبياء آخرين كلوط وغيره، وفي عهد موسى عليه السلام كانت القيادة بيده على الرغم من وجود هارون النبي عليه السلام.

وفي عهد اليونان القديمة كانت القيادة بيد واحد، وفي هذا الصدد قال (هو ميروس): «إن السلطة المتعددة الرؤوس هي غير مقبولة، ولنعمل على أن لا يكون لنا سوى سيد واحد هو الملك الذي تعطيه الإلهة السلطة»<sup>(١)</sup>.

وفكرة القيادة الواحدة هي فكرة دينية كما يقول المفكر الفرنسي (جان دي باري): «إن فكرة القائد الواحد هي ظاهرة دينية»<sup>(٢)</sup>.

ومراعاة للفطرة الإنسانية في عدم الاستسلام لقيادتين في آن واحد، فقد

كانت تعاليم الشريعة في الجانب السياسي منسجمة مع الفطرة الإنسانية في التأكيد على وحدة القيادة، وقد كانت سيرة رسول الله ' وسيرة المسلمين قائمة على أساس وحدة القيادة، وقد أكدت الروايات على ذلك، فقد علّل الإمام علي عليه السلام ضرورة وحدة القيادة لمنع الاضطراب، فقال: «الشركة في الملك تؤدي إلى الاضطراب»<sup>(١)</sup>.

وهناك رواية يرويها الإخوة السنة في كتبهم عن رسول الله ' أنه قال: «إذا بويح لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»<sup>(٢)</sup>.

وسئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن وجود إمامين في آن واحد فقال: «لا إلاّ وأحدهما صامت»<sup>(٣)</sup>.

وعلل الإمام عليه السلام ذلك بمنع الاختلاف والتشاجر والفساد<sup>(٤)</sup>.

وفي مورد قيادة الدولة كانت السيرة السياسية للمسلمين قائمة على تحقيق ذلك، فبعد رحيل رسول الله ' كان شطر من المسلمين يرون أحقية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بالخلافة إلاّ أنّهم لم يفكروا بإقامة دولة جديدة بقيادته، وحينما ثار أهل الكوفة وأهل مصر على الخليفة الثالث لم يفكروا بإقامة دولة مستقلة تحت قيادة صحابي آخر، وكذا الحال في الذين تمردوا على خلافة الإمام علي عليه السلام فإنّهم نقضوا بيعته، وقادوا الجيوش لإزاحته عن منصبه ليتسنى لهم الانفراد بقيادة الدولة، ولو نظرنا بموضوعية للدول المستقلة التي أقيمت إلى جنب الدولة الأموية أو العباسية؛ لوجدنا أنّ حاكم كلّ دولة يلقب نفسه بالخليفة أو أمير المؤمنين، ويرى عدم مشروعية الدولة الأموية والعباسية وسائر الدول المستقلة الأخرى، فوحدة الدولة ووحدة قيادتها ظاهرة مركوزة في الأذهان، وهي المنسجمة مع الفطرة الإنسانية التي يشق عليها الخضوع والاستسلام لقيادتين في آن واحد، ولا نجد في جميع المجتمعات من يوالي قيادتين في عرض واحد بينهما تناقض واختلاف.

ووحدة القيادة القائمة في دولة واحدة محل اتفاق جميع المسلمين، قال ابن حزم: «اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج... على أنه لا يجوز كون إمامين في وقت واحد في العالم، ولا يجوز إلا إمام واحد»<sup>(١)</sup>. ووحدة القيادة أمر يتطلبه الواقع والحقائق الموضوعية؛ لأن التعددية تؤدي إلى تنازع الناس لتعدد جهات التوجيه والإرشاد وإصدار الأوامر والنواهي، وبالتالي تؤدي إلى حدوث الاضطراب والتشتت وبطء التنفيذ واتخاذ القرار.

\* \* \*

## الهوامش:

- (١) علم الاجتماع السياسي: ٢٩٣، د. صادق الأسود، دار الكتب، الموصل، ١٩٨٦ م.
- (٢) الأمير الحديث: ٣٩، انطونيو غرامش، ترجمة زاهي شرفات، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٠ م.
- (٣) صحيح مسلم ٣: ١٤٧١، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٩ هـ، ط ٢.
- (٤) دراسات في علم النفس: ٣٧٦، عبد الرحمن عيسوي، دار النهضة، بيروت، بدون تاريخ.
- (٥) لمحات في فن القيادة: ١٢، ج كورتوا، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٤٠٠ هـ، ط ٢.
- (٦) علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية: ٣٩٥، د. عبد العزيز القوصي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠ م، ط ٨.
- (٧) عيون أخبار الرضا ٢: ٩٩، محمد بن علي الصدوق، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٩٠ هـ.
- (٨) سنن أبي داود ٣: ٣٦، أبو داود السجستاني، دار الفكر، بيروت، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بدون تاريخ.
- (٩) السيرة النبوية ٢: ٩٧، ابن هشام، مطبعة الحلبي، مصر، ١٣٥٥ هـ.
- (١٠) حياة الصحابة: ٨١، محمد الكاندهلوي، دار احياء التراث العربي، ١٤٠٦ هـ، ط ١١.
- (١١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١٥١، ٣: ٤٦، ٤٨، ٣: ١٠٨، ٣: ٢٩٧.
- (١٢) صحيح مسلم ٣: ١٤٥٥، حلية الأولياء ١: ٤٤، شرح نهج البلاغة ١٢: ١٩٠، ونحوه في: الإمامة والسياسة ١: ٢٣.

- (١٣) صحيح مسلم ٣: ١٤٥٤، الإمامة والسياسة ١: ٢٣، شرح نهج البلاغة ١: ١٩٠، الكامل في التاريخ ٣: ٦٥.
- (١٤) الملل والنحل ١: ٣٠، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٣٧٥ هـ، ط ٢.
- (١٥) نهج البلاغة: ٨٢، الخطبة: ٤٠، تحقيق د. صبحي الصالح، بيروت، ١٣٨٧ هـ.
- (١٦) بحار الأنوار ١: ٢٦٦، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣ هـ، ط ٢.
- (١٧) من لا يحضره الفقيه ٤: ٤٢٠، الصدوق، جامعة المدرسين، قم، ١٤٠٤ هـ، ط ٢.
- (١٨) نهج البلاغة: ٢٤٧، الخطبة: ١٧٣.
- (١٩) الكافي ١: ٤٠٧، دار صادر، بيروت، ١٤٠١ هـ.
- (٢٠) كتاب سليم بن قيس الهلالي ٢: ٧٥٢، مطبعة الهادي، قم، ١٤١٥ هـ.
- (٢١) تصنيف غرر الحكم: ٣٤٠.
- (٢٢) شرح نهج البلاغة: ٢٠: ٢٥٦.
- (٢٣) الأحكام السلطانية: ٦، الماوردي، مكتب الأعلام الإسلامي، طهران، ١٤٠٦ هـ.
- (٢٤) روضة الطالبين ٧: ٢٦٢، أبو زكريا النووي، دار الكتب، بيروت، بدون تاريخ.
- (٢٥) شرح المقاصد ٥: ٢٣١، مآثر الاناقة في معالم الخلافة ١: ٣٦، ٣٧.
- (٢٦) الحكومة الإسلامية: ٤٦، الإمام الخميني، طهران، ١٣٨٩ هـ.
- (٢٧) مصدر التشريع ونظام الحكم في الإسلام: ٥٤، محمود الهاشمي، نمونة، قم، ١٤٠٨ هـ.
- (٢٨) علم الاجتماع الديني: ٧٤، د. عبد الله الخريجي، جدّة، ١٤٠٢ هـ، ط ١.
- (٢٩) في العقد الاجتماعي: ٢٠١، جان جاك روسو، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ، ترجمة ذوقان قرقوط.
- (٣٠) لمحات في فن القيادة: ٢٣.
- (٣١) علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية: ٣٩٦، ٣٩٨.
- (٣٢) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل: ٤٧٤، الباقلاني، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤١٤ هـ، ط ٣.
- (٣٣) الإمامة والسياسة ١: ١٢، ابن قتيبة الدينوري، مطبعة مصطفى البابي، مصر، ١٣٨٨ هـ.
- (٣٤) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل: ٤٧١.
- (٣٥) الأحكام السلطانية: ٧.
- (٣٦) سنن الدارمي ٢: ٢٤١.

- (٣٧) تصنيف غرر الحكم: ٤٦٤.
- (٣٨) شرح المقاصد ٥: ٢٤٥، التفتازاني، منشورات الشريف الرضي، قم، ١٤٠٩ هـ.
- (٣٩) الامامة والسياسة ١: ٧٥.
- (٤٠) الإسلام يقود الحياة: ١٦٢، ١٧٠، محمد باقر الصدر، وزارة الإرشاد، طهران، ١٤٠٣ هـ.
- (٤١) الدر المنثور ٢: ٩٠، السيوطي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩.
- (٤٢) السيرة النبوية ٢: ٢٦٦، ٢٧٢، ابن هشام، ٢، ٤٠٢، ابن كثير.
- (٤٣) مستدرك الوسائل ٢: ٦٥.
- (٤٤) نهج البلاغة: ٣٦٦، ٣٦٧، الكتاب السادس.
- (٤٥) الأحكام السلطانية: ٧، ٢٠.
- (٤٦) شرح نهج البلاغة ١٧: ١٦.
- (٤٧) وقعة صفين: ١٢٦.
- (٤٨) مسند أحمد بن حنبل ١: ١٣١.
- (٤٩) مستدرك الوسائل ٢: ٣٦٤.
- (٥٠) نظرية الإسلام وهدية: ٥٨، أبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٨٩ هـ.
- (٥١) عمدة القارئ ٢٤: ٢٢٤، بدر الدين العيني، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩ هـ.
- (٥٢) السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٣٢٠.
- (٥٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤: ١٩٧.
- (٥٤) السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٦٨٧.
- (٥٥) سنن ابن ماجه ٢: ١٣٢٩، حديث ٤٠١١.
- (٥٦) صحيح مسلم ١: ٧٠.
- (٥٧) المسند: ٤، عبدالله بن الزبير الحميدي، عالم الكتب، بيروت، ١٣٨١ هـ.
- (٥٨) وسائل الشيعة ١٦: ١٣٤، باب ٣ ح ١١، عن كتاب: مستطرفات السرائر ١: ١٤١.
- (٥٩) الكامل في التاريخ ٤: ٤٨.
- (٦٠) التشيع نشأته معالنه: ٢٠٢، هاشم الموسوي، مركز الغدير، قم، ١٤١٤ هـ.
- (٦١) الأحكام السلطانية: ١٧، أصول الدين: ١٩٠، ٢٧٨، الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤: ١٧٥، شرح المواقف ٨: ٣٥٣.
- (٦٢) شرح المقاصد ٥: ٢٣٣، ٢٣٤، سعد الدين التفتازاني، منشورات الشريف الرضي، قم، ١٤٠٩ هـ.

- (٦٣) شرح المواقف ٨: ٣٥٣، علي بن محمد الجرجاني، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٥، اوفسيت، منشورات الشريف الرضي، قم.
- (٦٤) كنز العمال ٥: ٧٦٤.
- (٦٥) نهج البلاغة ٤١٣، ٤١٤.
- (٦٦) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٨٥.
- (٦٧) تحف العقول: ٢٤.
- (٦٨) تاريخ الأفكار السياسية: ١٧، مارسيل بريلو، الدار الأملية، بيروت، ١٩٩٣ م.
- (٦٩) المصدر نفسه: ١٢٠.
- (٧٠) تصنيف غرر الحكم: ٣٤٢.
- (٧١) صحيح مسلم ٣: ١٤٨.
- (٧٢) عيون أخبار الرضا ٢: ١٠٠، باب ٣٤، ح ١.
- (٧٣) الكافي ١: ١٧٨.
- (٧٤) الفصل في الملل والاهواء والنحل ٤: ٨٨.

## ذكر الصحابة في صيغة الصلاة على النبي

بين المشروعية والبدعة

□ السيد محمد هاشم المدني (\*)

بسم الله

لعلَّ الَّذِي يقرأ العنوان قبل أن يطَّلع على تفاصيل البحث يظنُّ أننا نريد سلب حقَّ ثابتٍ للصحابة رضوان الله عليهم! أو أننا لدينا حساسية من ذكر الصحابة! أو أننا انطلقنا في سعينا هذا من خلفيات خاصَّة، أو غيرها من الظنون! غير أنَّك إذا اطَّلعْتَ على البحث ستجد أنَّ الأمر ليس كذلك، وكيف يكون كذلك والقرآن الكريم يقول: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]. وأيضاً: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. وكذلك قوله: ﴿وَالسَّيْفُورُ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ

(\*) باحث إسلامي في الفقه المقارن/ العراق.

يُحَسِّنِ رِضْوَانَهُ عَنْهُمْ وَرِضْوَانُهُ وَعَدَهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿التوبة: ١٠٠﴾.

وهذه الثلة الطيبة التي جاء وصفها في هذه الآيات المباركة، هي ذاتها التي يصفها الإمام علي عليه السلام بقوله: «لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ' فَمَا أَرَى أَحَدًا مِنْكُمْ يُشَبِّهُهُمْ لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْنًا غُبْرًا وَقَدْ بَاتُوا سُجْدًا وَقِيَامًا يُرَاحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجُمُرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكْبَ الْمَغْزَى مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبْلُ جُيُوبُهُمْ وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ»<sup>(١)</sup>.

وهذا الشئ الذي ذكره الإمام عليه السلام بحق صحابة النبي ' كان حفيده الإمام السجاد عليه السلام يتقرب إلى الله تعالى ويدعو به، قائلاً: «اللَّهُمَّ وَأَصْحَابُ مُحَمَّدٍ خَاصَّةً الَّذِينَ أَحْسَنُوا الصُّحْبَةَ وَالَّذِينَ أَبْلَوْا الْبَلَاءَ الْحَسَنَ فِي نَصْرِهِ، وَكَانَفُوهُ، وَأَسْرَعُوا إِلَى وَفَادَتِهِ، وَسَابَقُوا إِلَى دَعْوَتِهِ، وَاسْتَجَابُوا لَهُ حَيْثُ أَسْمَعْتُهُمْ حُجَّةَ رِسَالَتِهِ. وَفَارَقُوا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ فِي إِظْهَارِ كَلِمَتِهِ، وَقَاتَلُوا الْأَبَاءَ وَالْأَبْنَاءَ فِي تَثْبِيتِ بُيُوتِهِ، وَانْتَصَرُوا بِهِ. وَمَنْ كَانُوا مُنْطَوِينَ عَلَى مَحَبَّتِهِ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ فِي مَوَدَّتِهِ. وَالَّذِينَ هَجَرَتْهُمْ الْعَشَائِرُ إِذْ تَعَلَّقُوا بِعُرْوَتِهِ، وَانْتَفَتَ مِنْهُمْ الْقَرَابَاتُ إِذْ سَكَنُوا فِي ظِلِّ قَرَابَتِهِ. فَلَا تَنْسَ لَهُمُ اللَّهُمَّ مَا تَرَكُوا لَكَ وَفِيكَ، وَأَرْضِهِمْ مِنْ رِضْوَانِكَ، وَبِمَا حَاشُوا الْخُلُقَ عَلَيْكَ، وَكَانُوا مَعَ رَسُولِكَ دُعَاءَ لَكَ إِلَيْكَ. وَاشْكُرْهُمْ عَلَى هَجَرِهِمْ فِيكَ دِيَارَ قَوْمِهِمْ، وَخُرُوجِهِمْ مِنْ سَعَةِ الْمَعَاشِ إِلَى ضَيْقِهِ، وَمَنْ كَثُرَتْ فِي إِعْزَازِ دِينِكَ مِنْ مَظْلُومِهِمْ»<sup>(٢)</sup>.

هذا وغيره من النصوص الكثيرة كافٍ لأن يكون ضمانه شرعية تمنع من الخوض فيما يتعارض مع دلالتها، وكذلك فإن الاطلاع على تفاصيل البحث يبدد هذه الظنون، ويجعلها كالرماد في مهبّ الريح.



فنحن في بحثنا هذا إنَّما نريد أن نقول إنَّ هناك حقيقة دينية أجمع عليها المسلمون، ومن قبل كان الصحابة بها يعملون، وهي أنَّ كلَّ ما لم يثبت عن النَّبيِّ ' فليس بتشريع، وما ثبت عنه ' يلزمنا العمل به على الوجه الَّذي شرَّعه بدون زيادة أو نقصان؛ لضرورة أنَّ الزيادة والنقصان فيه استدراك على النَّبيِّ '، وهو باطلٌ بالإجماع. فقد ثبت عنه قوله: «مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»<sup>(١)</sup>. وعلى هذا اتفقت كلمة المسلمين من زمن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هذه الساعة.

وعلى أساس هذه الضرورة الدينية نحن نريد أن نبحت في إضافة الصحابة، هل هي من مصاديق الإحداث في الدين الَّذي ردَّه النَّبيِّ ' أم لا؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فمتى نشأ؟ ولأيِّ هدف؟ وأين هو موقع الأدلة التي حاول البعض أن يحتجَّ بها على مشروعية إضافة الصحابة؟ وما الَّذي دعاه إلى تكلف تلك الأدلة مع علمه بأنَّ الأحاديث التي بيَّنت كيفية الصَّلَاة لم يأت في واحدٍ منها ذكر الصحابة، بل لم يثبت عن أحدٍ من الصحابة أنَّه صلَّى على صحابي أو على الصحابة؟

هذه التساؤلات وغيرها سنسعى بعون الله تعالى للإجابة عليها ليتضح بعد ذلك حقيقة إضافة الصحابة، وهل هو أمر مشروع كما يدَّعي، أم هي بدعة أحدثتها السياسة المعادية لأهل البيت <sup>٨</sup>، وبعد ذلك تلقتها الأوساط الدينية في مدرسة الصحابة بالقبول لأسبابٍ عديدة، منها حسنها الظاهر، وكونها جاءت لتعبّر عمَّا يكنه المسلمون من محبة وتقدير للصحابة، ولانسجامها مع مبانيهم العقائدية القائمة على اتخاذ الصحابة القدوة والأسوة بدل أهل البيت <sup>٨</sup>، فاتخذوا من تلك الشعيرة وسيلة معبرة عن تلك العقيدة! ولأسبابٍ أخرى لعلَّ البحث يوفِّق للكشف عنها، ولنبدأ بحثنا في التعرُّف على البداية والأهداف.

لا يخفى أنَّ لتحديد بدايات ظهور إضافة الصحابة إلى الصَّلَاة على النبيّ ' دوراً كبيراً في تشخيص الأهداف الحقيقية وراء هذه الإضافة، وفي الوقت نفسه فإنَّ الوقوف على الأهداف المرجوة من هذه الإضافة يلقي الضوء على بدايات ظهورها؛ لوجود حالة من الترابط بين البداية والأهداف كما سيتضح لك من خلال البحث.

وعند التفتيش في تراثنا الروائي والتاريخي نجد مؤشرات عديدة يمكننا من خلالها تحديد تلك البدايات بشكل واضح.

فمن تلك المؤشرات أنَّ هناك اتفاقاً بين المسلمين على عدم ورود نصٍّ عن النبيّ ' يذكر فيه الصحابة في الصَّلَاة عليه، ولا ورد مثل ذلك عن أيّ صحابي أيضاً، ومن هنا يثبت أنَّ هذه الظاهرة لم تكن في عهد النبوة ولا في عهد الصحابة التالي لعهد النبوة. نعم قد تكون ظهرت في أواخر عهدهم، يوم لم تكن لديهم قدرة على التغيير أو الاعتراض، ويوم أصبحت الصحبة جسراً تمرّر عليه الحكومات إرادتها وتأسيساتها السياسية والفكرية.

والمؤشّر الآخر نأخذه من موقف بني أمية من فضائل أهل البيت <sup>٨</sup>، والذي بيّناه في قسم سابق؛ حيث إنَّهم اتَّبَعُوا كافة السبل لمحاربة تلك الفضائل، ومن مفردات تلك المحاربة أنَّهم منعوا من الصَّلَاة على آل مع النبيّ '، وأسسوا بذلك للعمل بالصلاة البتراء، وبالاتجاه المقابل عمدوا إلى نسبة هذه الفضيلة لغيرهم ضمن أسلوب آخر من أساليب محاربة فضائلهم <sup>٨</sup>، فكلا التأسيسين لهما دوافع وأهداف واحدة، وهي حرمان أهل البيت <sup>٨</sup> من فضائلهم، فحيث إنَّ الأوّل قد حرّمهم من حقّهم، حرّمهم الثاني من ميزة الاختصاص بهذه الفضيلة، وما يحمله هذا الاختصاص من مميّزات لا تخفى. وكلّ ذلك كانت تقوم به الدولة الأموية متخذة من ذلك عماداً لحكمها، وأساساً

لنهجها وسياستها، وميزاناً لمعرفة من هو معها ومن هو ضدها.

ولم يقتصر المنهج المشار إليه على المفردات المتقدمة، بل كانت له أساليب أخرى متعددة أشرنا إليها سابقاً، وكان أسوأها وأخبثها وأمعنها في العداء لله ورسوله ولأهل البيت <sup>٨</sup> هو سنّهم سبّ الإمام عليّ عليه السلام على المنابر، كلّ ذلك من أجل القضاء على أهل البيت <sup>٨</sup>، وقطع صلة الأمة بهم، فينفردوا بها ويتسلطوا عليها، ويتحكّموا بدينها، ويصيّروها مطيّة لأغراضهم.

وهذه الأساليب هيأت الأرضية لأسلوب آخر أرادوه أن يكون محوراً لبقية الأساليب، وهو صناعة البديل لأهل البيت <sup>٨</sup>. وهذا الأسلوب جاء على خلفية قناعتهم بعدم كفاية الأساليب المتقدمة في تغييبهم بشكل كامل؛ نظراً لما يتمتّع به أهل البيت <sup>٨</sup> من عمق شرعي وحضور مميّز في نفوس المسلمين وعقولهم، فدفعهم هذا الواقع الذي يؤرقهم، ويقف حاجزاً أمام طموحاتهم للتفرّد بالأمة ومقدراتها، إلى البحث عن بديل لأهل البيت <sup>٨</sup>، فقد رأوا في ذلك أسلوباً ناجحاً في إبعاد الأمة عنهم، وتوجيهها نحو غيرهم، فيسهل عليهم بعد ذلك التفرّد بأهل البيت ومحاربتهم دون أن يكون للأمة دور في الدفاع عنهم أو الشعور بالحاجة إليهم بعد أن استغنت عنهم بوجود البديل.

وبعد أن علم بنوا أمية أنّهم لن يستطيعوا أن يكونوا بدلاء لأهل البيت؛ خلّوهم من أيّ مقوم من مقومات البديل، رأوا في الصحابة رضوان الله عليهم البديل المناسب؛ نظراً لما يتمتعون به على مستوى الأفراد والعنوان من احترام كبير وتقدير ومحبة خاصّة لدى المسلمين.

ولكن في الوقت نفسه كان بنوا أمية يعلمون أنّ الصحابة لا يتمتعون بمؤهلات أهل البيت <sup>٨</sup> نفسها، فدفعهم هذا الأمر - ولكي يكون البديل ناجحاً - أن يجعلوا لهم ما كان لأهل البيت من مؤهلات، فينسبوا لهم كلّ ما ثبت لأهل البيت من فضائل ومقامات؛ ليرفعوا رصيدهم من جهة، وليكيدوا

لأهل البيت <sup>٨</sup> من جهةٍ أخرى. وهذا ما أمر به معاوية شيخ بني أمية بشكلٍ رسمي، قد نقل لنا ذلك عنه المؤرخ الثقة أبو الحسن المدائني، قال: «قال معاوية: ولا تتركوا خبراً يرويه أحدٌ من المسلمين في أبي ترابٍ إلّا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإنّ هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته»<sup>(١)</sup>. وفعلاً تمّ لهم ما أرادوا وانتشر حديثٌ كثيرٌ موضوعٌ في فضائل الصحابة، كما يحدثنا بذلك ابن أبي الحديد نقلاً عن أحد المتخصصين في هذا الميدان، قال: «وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه - وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم - في تاريخه ما يناسب هذا الخبر، وقال: إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقريباً إليهم بما يظنون أنّهم يرغمون به أنوف بني هاشم»<sup>(٢)</sup>.

ومّا زاد في حرص بني أمية على جعل الصحابة هم البديل لأهل البيت مضافاً إلى ما تقدّم، هو أنّهم يعدّون أنفسهم من الصحابة، فما ثبت للصحابة من فضل ومكانة يعود إليهم، وهم بأمرٍ الحاجة إلى تعزيز مكانتهم ومشروعيتهم بين الناس، وتحولوا بفضل هذه الأحاديث التي وضعوها من طلقاء وأبناء طلقاء إلى نجوم يهتدي بهم المسلمون. وما زال الكثير من هذه الأحاديث مبنوثة في كتب الحديث يعمل بها وتلقى على طلاب العلم، ويخطب بها على المنابر حتّى أصبحت مضامينها من المسلمات التي لا يشكّ بها أحد.

ونحن لو عدنا إلى فضيلة الصّلاة على الآل لوجدناها من أوضح التطبيقات لسياسة الاستبدال هذه؛ نظراً لما تمثّله هذه الفضيلة من حضور يومي فاعل، حيث يؤدّيها المسلم في اليوم أكثر من خمس مرّات، وهذا الحضور اليومي الصارخ له تأثير كبير في خلق حالة من التفاعل بين الناس والمسلمين، وهذا لا تحتمله بنو أمية وهم الساعون إلى قتلهم ولعنهم على المنابر، فدفعهم ذلك إلى منع الصّلاة عليهم، فأسّسوا بذلك الصّلاة البتراء، ورأوا في عوائد هذه الفضيلة

ما فيها دعمٌ كبيرٌ لمقام الصحابة البديل الذي أرادوه لأهل البيت <sup>٨</sup>، فدفعهم ذلك إلى ترويج الصَّلَاة على الصحابة مع النبي <sup>٩</sup>، وليس فقط الصحابة، بل جعلوا هذه الفضيلة شرعة لكلِّ وارد كما سيأتي الإشارة له بعد قليل.

من الوثائق التاريخية المهمة التي كشفت لنا عن بداية انتشار الصَّلَاة على الصحابة وعلى غيرهم هي رسالة الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز التي أرسلها إلى الأمراء والأجناد في زمن خلافته (٩٩ - ١٠١)، وقد أخرج هذه الرسالة بطريق صحيح الجهضمي المالكي إسماعيل بن إسحاق (ت: ٢٨٢) في كتابه: (فضل الصَّلَاة على النبي <sup>١٠</sup>).

وقد نقل الجهضمي مقطعاً منها، وعنه نقلها ابن كثير في تفسيره، والحافظ ابن حجر في الفتح، ولفظها عن الأخير: «وقد روى إسماعيل بن إسحاق في كتاب (أحكام القرآن) له بإسناد حسن عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب: أمّا بعد، فإنّ ناساً من الناس التمسوا عمل الدنيا بعمل الآخرة، وإنّ ناساً من القصاص أحدثوا في الصَّلَاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصَّلَاة على النبي، فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين، ودعائهم للمسلمين، ويَدْعُوا ما سوى ذلك» <sup>(١١)</sup>.

هذا هو المقطع المتداول من الرسالة، إلّا أنّ الشَّيْخ الألباني في تحقيقه لكتاب (فضل الصَّلَاة للجهضمي) نقل تمام الرسالة عن كتاب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)؛ حيث قال: «وقد جاءت هذه الرسالة في كتاب عمر بن عبد العزيز للإمام ابن الجوزي، وإليك نصّها بتمامها: وكتب عمر بن عبد العزيز: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد: أمّا بعد، فإنّ الناس ما اتبعوا كتاب الله نفعهم في دينهم ومعاشهم في الدنيا ورجعهم إلى الله فيما بعد

الموت، وإن الله أمر في كتابه بالصلاة على النبي ﷺ، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ صلوات الله على محمد رسوله، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته. ثم قال لنبية محمد ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، فقد جمع الله تبارك وتعالى في كتابه أن أمر بالصلاة على النبي ﷺ وعلى المؤمنين والمؤمنات، وأن رجالاً من القصاص قد أحدثوا صلاةً على خلفائهم وأمرائهم عدل ما يصلُّون على النبي وعلى المؤمنين، فإذا أتاك كتابي هذا، فمر قصاصكم فليصلُّوا على النبي ﷺ، وليكن فيه إطناب دعائهم وصلاتهم، ثم ليصلُّوا على المؤمنين والمؤمنات، وليستنصروا الله، ولتكن مسألتهم عامة المسلمين، وليدعوا ما سوى ذلك، فנסأل الله التوفيق في الأمور كلها، والرشاد والصواب والهدى فيما يجب ويرضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والسلام عليك»<sup>(١)</sup>.

والتأمل في هذه الرسالة يجدها صريحة في إثبات بداية التلاعب في فضيلة الصلاة، والسعي إلى نسبتها إلى غير أهل البيت <sup>٨</sup> من الخلفاء والأمراء وغيرهم. وأن هذا الأمر كان يجري على مرأى ومسمع من السلطة، وأنه كان أمراً منتشرًا بين جميع الأوساط بما اضطر خليفة ذلك الزمان أن يتصدى لمنعه بنفسه، ويظهر ذلك بشكل واضح من خلال استدلاله وأمره بالصلاة على النبي <sup>٩</sup> وعلى المؤمنين والمؤمنات، ولم يأمرهم بالصلاة على الآل، وقد استدلل على ما ذهب إليه من الحث على الصلاة على المؤمنين بأنه لا علاقة لها بالموضوع بالمرّة، فإنك لا تجد شخصاً سبقه إلى هذا الاستدلال ولا تبعه عليه، بل لا تجد أحداً جوّز الصلاة على المؤمنين بهذه الطريقة وبهذا الاستدلال الغريب!

ولعلّ الذي دفعه إلى هذا الاستدلال حاجته إلى إبقاء الباب مفتوحاً أمام مشروعية الصلاة على الصحابة باعتبار أنهم المصداق الأول والأوضح

للمؤمنين الذين يرى مشروعية الصلاة عليهم، وهذا يكشف لك أنَّ الصلاة على غير النبي <sup>٨</sup> كانت منتشرة ومتجذرة ومعتمدة عند جهات يصعب منعهم منها؛ لهذا اضطرَّ إلى أن يُبقي الباب مفتوحاً بفعل ذكية، وهي: أن يشرع الصلاة على المؤمنين، ويترك للآخرين تحديد المؤمن الذي يرون أنَّ العنوان ينطبق عليه، ومن الواضح أنَّ مؤمني بني أمية! فضلاً عن الصحابة أجمعين هم أبرز مصاديق هذا العنوان!

ولهذا تجد الصحابي المسور بن مخزومة كان كلما ذكر معاوية صلى عليه! كما ينقل لنا ذلك الذهبي في (السير) عن عروة بن الزبير أنه قال: «فلم أسمع المسور ذكر معاوية إلاَّ صلى عليه»<sup>(٩)</sup>. ولا ننسى أنَّ الذي يقوم بهذا العمل صحابي بحسب الاصطلاح! ومعاصر لمعاوية ولمن بعده من حكام بني أمية، ولم نسمع أنَّ أحداً أنكر عليه هذا العمل، لا من عروة الراوي للخبر، ولا من الذهبي المدوّن له، ولا بمن سبقه أو لحقه!

فإذا ضمنت هذا الخبر إلى تشريع عمر بن عبد العزيز للصلاة على المؤمنين عرفت من هم المؤمنون المعنيون بالتشريع.

وإذا عدت إلى الرسالة الثانية وتأملت في إصراره على عدم ذكر الآل، مع أنَّ الدليل تواتر على مشروعية الصلاة عليهم، وهو لا شك يعلم ذلك، فأتباعه يعدونه من الفقهاء والمحدثين، ولا يعقل أنَّ شخصاً بهذه المثابة لا علم له بكل تلك الأحاديث التي تجاوزت حدَّ التواتر، وكلها أجمعت على ذكر الآل مع النبي ' في كيفية الصلاة، فما هو السرُّ في إصراره على تجاهلهم وعدم الأمر بالصلاة عليهم مع المؤمنين الذي أمر بالصلاة عليهم؟!

هذا الحال يجعلك تقطع أنَّ الصلاة على الآل كانت مستنكرة في ذلك الزمن، والرجل يعلم ذلك، ولكن أراد أن يغيّر هذه البدعة المنسجمة مع منهجهم! أو أنَّه جرى على المتعارف والمتوارث والمنسجم مع النفوس التي جبلت على

الابتعاد عن كُلِّ ما يذكرُّ بأهل البيت <sup>٨</sup>، ويشهد لذلك صلاته التي اعتمدها في رسالته والتي كانت بتراء خالية من الآل!

ولا تنسَ أنَّ الرجل كان يقول: «نشأتُ على بغض عليٍّ لا أعرف غيره»<sup>(١)</sup>. وأنت إذا تأملت بهذه المخالفة الصريحة للسنة الثابتة، هان عليك معرفة سبب إصراره على الدعوة إلى الصَّلَاة على المؤمنين، وآثَه إنما فعل ذلك ليبقي الباب مفتوحاً أمام الصَّلَاة على غير الآل، وأنَّ الصلاة على الصحابة أجمعين الشامل لبني أُمّية وأتباعهم مشروعة.

وكذلك ليصرف الأذهان عن وجود غير ما أشار لهم ممن يجوز الصَّلَاة عليهم، فيكون بذلك قد منع من الصَّلَاة على الآل وإنَّ لم يكن بشكل مباشر، فأعطى بذلك لبدعة الصَّلَاة البتراء بعداً شرعياً جديداً؛ نظراً لما يحمله عمر بن عبد العزيز في نفوس أتباعه من منزلة علمية كبيرة.

وهنا قد يتساءل القارئ: لماذا لم يأمر عمر بن عبد العزيز بالصلاة على الصحابة مباشرة إذا كان غرضه ما ذكر؟ والسؤال وجيه، ولكنه بشيء من التأمل يمكن الإجابة عليه، فإنَّ عمر بن عبد العزيز يعلم - وهو من أهل المعرفة كما يدَّعي أتباعه - أنَّه لا دليل على مشروعية الصَّلَاة على الصحابة لا من الكتاب ولا من السُّنة، وكذلك فإنَّه يعلم أيضاً أنَّه إذا ذكر الصحابة بالاسم فإنَّ المقابلة مع من ثبت لهم هذا الحق - وهم أهل البيت - سيتضح، ويكون الرجل قد شرَّع ما لم يشرَّعه النبيّ ' وترك ما شرَّعه، وهذا ما لا يرغب فيه أمثاله ممَّن يدَّعي التمسُّك بالسنة.

ولهذا اختار أوسط الحلول، وهو شرعنة الصَّلَاة على المؤمنين القابل للانطباق على الصحابة وعلى أهل البيت، وفي الوقت نفسه يعلم أنَّ الصَّلَاة على أهل البيت <sup>٨</sup> محظورة منذ زمن، والناس قد نسيوها كما نساها هو في صلاته التي جاء بها في هذه الرسالة؛ لهذا لم يبق إلا الصَّلَاة على الصحابة وهو



## المطلوب!

وفي ختام نقاشنا لرسالة عمر بن عبد العزيز ينبغي أن ننبّه على أنّ الرسالة لم تأت لتؤسس الصلّاة على الصحابة، وتؤسس للصلّاة على غير النبيّ <sup>١</sup>، فإنّ ذلك كلّه كان منتشرًا ومعمولاً به منذ أن أعلن معاوية وحزبه الحرب على فضائل أهل البيت <sup>٢</sup> والأمر بلعنهم على المنابر، فكان من أبرز مصاديق الحرب على فضائلهم هي منعهم من الصلّاة على أهل البيت <sup>٣</sup>، وكونها من أوضح مصاديق الحرب على فضائلهم عوائدها الكبيرة المتأتية من حضورها اليومي الفاعل بين المسلمين، والذي يشدّ الأنظار نحوهم بشكلٍ قلّمًا تحقّقه فضيلة غيرها، وأعداؤهم بنو أمية يعلمون ذلك جيدًا، فهل يسكتون عن كلّ هذه الآثار المترتبة على هذه الفضيلة تفعل فعلها، وهم الساعون لهدم كيان أهل البيت <sup>٤</sup> وإماتة ذكرهم؟! فعليه لا بدّ وأن يكون قد منعوها وعاقبوا من يأتي بها وفق المنهج الذي أشرنا إليه في القسم السابق، وبنوا أمية لم يتوقفوا عند حرمان أهل البيت من العوائد الحتمية لهذه الفضيلة، بل سعوا إلى توظيف هذه العوائد إلى مشاريعهم التغييرية والمتمثلة هنا بإيجاد البديل لأهل البيت، وهم الصحابة، فإنّ الصلّاة عليهم يوجّه أنظار الناس نحوهم ويُنسبهم من أراد الله ورسوله <sup>٥</sup> أن تتوجّه الأنظار نحوه، ولهذا يكون معاوية وحزبه قد حقّق أمران:

الأوّل: إحكام التغيب والإماتة لذكر أهل البيت <sup>٦</sup>.

والآخر: أن ينالهم من هذه الفضيلة ما ينال جميع الصحابة بحكم كونهم صحابة بحسب الاصطلاح السياسي للصحبة، والذي أسسته الدولة الأموية أيضاً كمفردة من مفردات مشروعها التغييري للسنة النبوية.

وعلى هذا نفهم أنّ رسالة عمر بن عبد العزيز إنّما جاءت لتهذّب هذا الانتشار الواسع والامتهان الفاضح لهذه الفضيلة العظيمة والسنة الفخيمة،

ولكن بالشكل الذي يحفظ للمشروع الأموي هدفه الأساسي، وهو عدم عودتها لأهل البيت من جديد، فكان له ما أراد؛ حيث لم يأمر بالصلاة عليهم مع علمه أن الدليل إنما جاء يأمر بالصلاة عليهم، ويعلم أيضاً أن الدليل لم يأت بالصلاة على من أمر هو بالصلاة عليه!

إلى هنا وبعد أن عرفنا من خلال ما تقدّم أن الصلاة على الصحابة إنما أسستها السياسة الأموية لمصالح خاصّة، وهي التي قامت بحمل الناس عليها بأساليب عدّة، بموازاة حذف الآل وإشاعتهم للصلاة البتراء، وعليه وبعد وضوح ذلك يأتي هذا السؤال، وهو إذا كانت الصلاة على الصحابة قد أسستها ونشرتها الدولة الأموية وكذلك يعلم المسلمون أن الصلاة على الصحابة لم تأت في حديث عن رسول الله '، فما هي إذن الأسباب التي دعت إلى استمرارها وبقائها إلى هذه الساعة والمسلمون يعملون بها وكأتمّها سنّة من السنن التي شرّعها رسول الله '.

جواب هذا السؤال سيكون تحت العنوان التالي:

:

في البداية لا بدّ أن نعرف أن الأسباب التي تقف وراء إدانة أيّ عمل ما ليس بالضرورة أن تكون الأسباب نفسها التي كانت وراء تأسيسه، فقد يختلفان كما هو الحال في مسألة الصلاة على الصحابة؛ ولهذا فنحن نعتقد أن العوامل التي كانت السبب في إدامتها غير العوامل التي كانت وراء تأسيسها، وعليه فاختفاء أسباب التأسيس لا يلزم منه اختفاء العمل. فكثير من التشريعات التي أسستها الأغراض السياسية بقي العمل بها بالرغم من اختفاء تلك الأغراض، والناس لا تعلم، ولو علمت الحقيقة لتركت العمل بها.

وعليه فالأسباب التي دعت بني أمية إلى ترويج الصلاة على الصحابة في

البداية إذا كانت سياسية ولمصالح شخصية آتية انتهت بانتهاك دولتهم، فإن هذه الأسباب تحوّلت بمرور الزمن عند المسلمين إلى أسباب أخرى ذات طبيعة دائمية هي التي كانت وراء استمرار هذه البدعة، ونحن هنا نريد أن نوقفك على أهم تلك الأسباب والعوامل:

(

ونعني بذلك أن الظاهر من الصلّاة على الصحابة هو الدعاء والتقدير للصحابة، وهو أثرٌ حسن على كلّ حال، ويأتي منسجماً تماماً مع ما يحمله المسلمون من محبة واحترام وشعور بالامتنان لهذه الثّلة المؤمنة التي آمنت ونصرت وضحت، ولولاها ما قام للدين عمود. وعليه فمن الطبيعي جداً أن النفس تهفو لإبداء التعظيم والاحترام والدعاء وهكذا وجود فضله يطوّق الأعناق. فكان أن أسست الدولة الأموية بدعة الصلّاة على الصحابة فجاءت منسجمة تماماً مع المطلوب، فتلقفتها النفوس المحبة لتعبر بها عن مكنونها تجاه الصحابة من جهة، ولتنفذ رغبة السلطان والجو العام الذي كان يتجه بهذا الاتجاه من جهة أخرى.

فكان لظاهاها الحسن هذا دورٌ كبيرٌ في سرعة انتشارها وحرص المسلمين على تقبلها والعمل بها، وهذا هو شأن كلّ البدع الحسنة، فإنّ حسنها ورغبة الناس فيها ينسبهم بدعتها. خصوصاً إذا كان وراء نشر هذه البدعة مصالح خاصة للجهات المعنية بنشرها، كما هو الحال في مسألة الصلّاة على الصحابة.

(

تنشر حالة التقليد بين الناس بشكلٍ لا شعوري، وخصوصاً في الأمور الشرعية، والتقليد في عموم الناس غيره في أهل الاطلاع والمعرفة، فإذا كان

مقبولاً عند عموم الناس لعجزهم عن معرفة الواقع أو لتأثرهم بمن يقلدون، فهو غير مقبول عند أهل المعرفة؛ لضرورة أن التقليد يمنع من الوصول إلى الواقع، وبغياب الواقع تضيع الحقائق. وإذا جاء من يريد أن يبين حقيقة ما غابت بفعل التقليد اتهم بأنه يسعى لهدم الدين والطعن بالسنة! ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يسعى أنصار التقليد إلى حشد الأدلة من هنا وهناك لتأييد ما هم عليه والطعن في قول مخالفهم وتبديعه، يدفعهم في أغلب ذلك التعصب والإصرار على التمسك بالتوارث القديم، وإن كان الدليل على خلافه! الناشئ ذلك من تغلغل التقليد وسطوته على نفوسهم؛ حيث شكّل ذلك حاجباً بينهم وبين البحث والسعي إلى معرفة الحقيقة، ولطالما انتقد علماء المسلمين ظاهرة التقليد هذه وحذروا منها ومن آثارها السلبية القاتلة، ومن تلك الكلمات ما قاله الشيخ محمد أبو زهرة: «إنّ نزعة التقليد متغلغلة في نفوس الناس توجههم وهم لا يشعرون، وإنّ سلطان الأفكار التي اكتسبت قداسة بمرور الأجيال تسيطر على القلوب، فتدفع العقول إلى وضع براهين لبيان حسنها وقبح غيرها»<sup>(١)</sup>.

ولو تتبعنا السلوكيات الشرعية لوجدت بعضها إنّما اكتسبت شرعيته من قدمها وانتشارها ورغبة الناس فيها؛ لضرورة أن الناس تعودت على شيء تعذر عليها الإقلاع عنه؛ لصعوبة تغيير العقائد عند الناس، خصوصاً إذا أصبحت تلك العقيدة تمثل هوية مذهبية كما هو الحال في الصلاة على الصحابة التي نحن بصدد تحليل سبب التمسك بها.

وتحذير آخر يطلقه أحد السلفيين المتشددین، فيقول: «وأما فيما يتعلّق بالسنة والعمل بها في كلّ فرعٍ من فروع الشريعة، فهنا يجمدون كلّ آراء الأسلاف ولا يجيزون لأنفسهم مخالفتها إلى السنة. ولو كانت هذه السنة صريحة في خلافها، لماذا؟ لأنهم مقلدون»<sup>(٢)</sup>.

وهذا إعلان من الألباني صريح في أنَّ التقليد هو المانع من الرجوع إلى السنَّة الصحيحة، وأنَّ التقليد يدفع صاحبه للتمسك بما عنده وإن كان يعلم أنَّه على خلاف الواقع. وهذا يعكس لك قوَّة التقليد وقدرته على التحكُّم في عقول الناس ودينهم، مع ملاحظة أنَّ صاحب هذا القول يخبر عن واقع ويحذّر من تقليد قائم يُعمل به إلى هذه الساعة، ولو تأملت في قضية الصَّلَاة على الصحابة لوجدتها من أبرز مصاديق هذا التقليد الَّذي حولها من بدعة إلى سنَّة يتعبد بها، ودفع العاملين بها إلى تحرّي الدليل لها، والطعن على من عارضها وحاول أن يبيّن أنَّها خلاف السنَّة، كل ذلك لسطوة التقليد وهيمنة الموروث.

(

يتمحور الاختلاف السني الشيعي بالدرجة الأساس حول الجهة التي يرتبطون بها ويعتبرونها المنبع لمعرفة تعاليم الدين، والطريق الَّذي يصحَّ الأخذ عنه، فحيث إنَّ الشيعة تابعت أهل البيت <sup>٨</sup> في ذلك تجد أنَّ أهل السنة اتجهت صوب الصحابة. وهذا الاختلاف بدأ في حياة النبي ﷺ، وأخذ يتبلور بعده حتى بلغ أشده في زمن الدولة الأموية؛ حيث اعتمدت هذه الدولة سياسة العداء لأهل البيت وأتباعهم، فامتاز على أثر ذلك هذا الخط بفكره وأتباعه. وبالمقابل اتضح أكثر الاتجاه الآخر الَّذي تبنته الدولة الأموية أيضاً. وبمرور الزمن تجذرت علاقة كلِّ طرف بجهته، وأخذت أبعاداً عميقة وشاملة أصبحت معها الذهنية السنية مرتبطة بجميع أبعادها الفكرية والعملية بالصحابة، وكذلك الأمر نفسه في الشيعة مع أهل البيت <sup>٨</sup>.

وننتج عن هذا التباين الواضح في التوجهات أن ابتعد كلِّ طرف عن الجهة التي يعتمد عليها الطرف الآخر، فحيث إنَّ الشيعة ابتعدت عن الصحابة واستغنت عنهم بأهل البيت <sup>٨</sup> تجد في المقابل أنَّ أهل السنة ابتعدوا عن أهل البيت

واستغنوا عنهم بالصحابة، فدفعهم ذلك إلى إبراز هذا العنوان إلى الواجهة، وربط كل شيء به حتى أصبح يمثل هويتهم المذهبية ومحور عقيدتهم، ومن هنا أصبحوا حريصين على نشر وترويج كل ما من شأنه التأييد لمحورية الصحابة، فجاءت الصلاة على الصحابة لتمثل وسيلة من وسائل ذلك الترويج الذي ينشدونه في مقابل ما ثبت لأهل البيت <sup>٨</sup> الجهة التي يرتبط بها الشيعة. فكما أن الصلاة على أهل البيت فيها تعريفٌ بهم ودعوة للالتفاف حولهم، كذلك أرادوا في الصلاة على الصحابة التعريف بهم والدعوة للالتفاف حولهم، فإن هذا يصبُّ في صلب غرضهم، وهو إبراز محورية الصحابة من جهةٍ والتشويش على محورية أهل البيت من جهةٍ أخرى.

وكذلك أرادوا من الصلاة على الصحابة شيئاً آخر يمثل مفردة من مفردات ذلك الخلاف، وهو سعيهم إلى التميّز عن الشيعة بكلّ سبيل، وإن كان في مخالفتهم مخالفةً للسنة الثابتة عندهم، فهم يعتقدون أن مصلحة مخالفة الشيعة أعظم من مصلحة الالتزام بالسنة! وفي ذلك يقول ابن تيمية: «ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات إذا صارت شعاراً لهم [الشيعة]، فإنه وإن لم يكن الترك واجباً لذلك، لكن في إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميّز السني من الرافضي، ومصلحة التمييز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة هذا المستحب» <sup>(١)</sup>.

وعلى أساس هذا المنهج تركوا الكثير من السنن الصحيحة الثابتة عندهم، وإليك بعض الأمثلة على ذلك: عن الشيخ محمد بن عبد الرحمن الدمشقي في كتاب رحمة الأمة في اختلاف الأئمة المطبوع بهامش الميزان للشعراني، قال: «السنة في القبر التسطيح، وهو أولى على الراجح من مذهب الشافعي. وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: التسنيم أولى لأن التسطيح صار شعاراً للشيعة».

وقال الغزالي والماوردي: «إنّ تسطيح القبور هو المشروع، لكن لما جعلته

الرافضة شعاراً لهم، عدلنا عنه إلى التسليم». وقال مصنف الهداية من الحنفية: «إنَّ المشروع التختُّم في اليمين، ولكن لما اتخذته الرافضة جعلناه في اليسار». وأوَّل من اتخذ التختُّم باليسار خلاف السنة هو معاوية<sup>(١)</sup>.

وعلى أساس هذا المنهج لما كانت الشيعة لا تصلي على الصحابة، وإنَّما تصلي على الآل فقط؛ عملاً بالسنة، وأصبح ذلك شعاراً لها حتى أصبح المتحدث يعرف تشيعه من خلال صلاته على النبيّ، ذهب أهل السنة إلى اعتماد الصَّلَاة على الصحابة والتمسك بها متخذين ذلك شعاراً لهم يعرفون من خلاله، حتى وصل بهم الأمر أن من لم يصلّ منهم على الصحابة، واقتصر على ذكر الآل فقط اتهم بالخروج عن منهج السنة، فعن أحدهم يخاطب أخاً له في المذهب لم يصلّ على الصحابة مع الآل: «لم يذكر الصَّلَاة على أصحاب رسول الله، وهو يوضح كونه ليس من أهل السنة»<sup>(٢)</sup>.

وآخر<sup>(٣)</sup> عندما اعترض عليه بذلك احتج بفعل من سبق من العلماء، حيث خلت كتبهم من الصحابة ومن الآل معاً، ويعني أن صلاتهم بتراء، وهي كما يقول فإنَّ الصَّلَاة عندهم إمّا بتراء لا يذكرون فيها الآل، أو إذا ذكروا الآل أرفدوا معهم الصحابة كي لا يتفرد الآل بهذه الفضيلة دون غيرهم.

وهكذا اتضح لكم أن الخلاف المذهبي كان من الأسباب التي دفعت أهل السنة إلى التمسك بالصلاة على الصحابة؛ ليحققوا أمرين:

الأول: التأكيد على محورية الصحابة مقابل محورية أهل البيت<sup>٨</sup>.

والثاني: التمييز عن الشيعة.

(

ادعى بعض المتأخرين أن الصَّلَاة على الصحابة مشروعة، ويمكن

الاستدلال عليها بدليل القياس، وادّعى آخر أنّه يمكن الاستدلال عليها بأنّ كيفية الصّلاة التي أجمعت عليها الأحاديث إنّما هي مقيدة بالتشهد، وما عداه فلم يأت الدليل عليه بصلاةٍ خاصّة!

وهذه الدعوى بوجود الدليل على المشروعية - بغضّ النظر عن صيغة هذا الدليل - تعتبر من أهمّ العوامل المروّجة لهذه البدعة؛ لضرورة أنّ المتلقي على المستوى العام أو الخاص لا يتعامل عادة مع التفاصيل، وأنّ هذا الدليل صحيح أم باطل، وإنّما يتعامل مع الظاهر القاضي بوجود الدليل، أي: المشروعية. فدعوى وجود الدليل بمجرّدها إنّما هي دعوى للمشروعية، والذي يلازمها دعوة للتمسك بهذه البدعة والعمل بها.

ومن هنا سنقف عند هذه الأدلة المدعاة؛ لنرى هل يصحّ الاستناد إليها في إثبات هذه المشروعية أم لا؟

ولنبداً أوّلاً بدليل القياس، ثمّ نتقل إلى الآخر.

#### أوّلًا: دليل القياس

وهو العمدة عندهم - بل لم أجدهم استدلووا بغيره إلّا ما جاء عن الألباني، والذي سيأتي الكلام عنه لاحقاً - وهو يتلخّص بالعبارة التالية: أنّ الصّلاة على الآل ثابتة ومشروعة، وبما أنّ الآل فيهم من هم صحابة، ومنهم من ليسوا كذلك، فإذا صحّت الصّلاة على آل لا صحبة له، فصحتها على من له صحبة من باب أولى؛ لأنّ الصحابة أفضل من آل لا صحبة له.

وإليك بعض كلماتهم في تقرير هذا الدليل، فعن السيّد محمود أفندي الآلوسي، قال: «ذكر بعضهم أنّه ينبغي طلب الصّلاة للآل أيضاً؛ لأنّها مستحبة عليهم بالنص، والصحب لأنّهم ملحقون بهم قيل بقياس أولى؛ لأنّهم أفضل من آل لا صحبة لهم»<sup>(١)</sup>.

وعن النبهاني قال: «وأما الصّلاة على أصحابه صلى الله عليه وسلّم، فإنّها لم



ترد في الأحاديث، وقد وقع الاتفاق على استحسانها بالقياس على الآل، كما ذكره شراح الدلائل وغيرهم»<sup>(١)</sup>.

ويفهم من كلام النبهاني «وقد وقع الاتفاق على استحسانها بالقياس» أنهم لم يجدوا غير القياس ما يستعينون به على الجواز، وأن الأدلة الأخرى المدعاة لا يرونها صالحة للاحتجاج.

وكذلك نلاحظ على كلام النبهاني المتقدم أنه لم ينسب الاستحسان بالقياس إلى الفقهاء وأئمة المذاهب، بل إلى شراح الدلائل، وفي ذلك إشارة تعكس تأخر الاستعانة بالقياس لتوجيه مشروعية الصلاة على الصحابة.

#### - مناقشة القياس:

يبتني دليل القياس على مقدمتين:

الأولى: أن المراد من الآل هم كل من انتسب إلى النبي ' من جهة الأب، وهو أحد الآراء في تفسير الآل.

والثانية: أن الصحابة أفضل من آل لا صحبة لهم.

ولكن كلا المقدمتين لا تصح.

أما الأولى، فإن المراد من الآل ليس ما ذهبوا إليه، بل المراد منهم صفوة خاصة من أهل بيته، شرفهم الله تعالى وأعطاهم مقامات وفضائل خصهم بها دون الخلق أجمعين. منها الصلاة عليهم مع النبي '، وإثبات أن المراد من الآل هم هؤلاء لا يسعه المقام، وإن كان الأمر واضحاً لا يحتاج إلى استدلال، فليس من الحكمة أن يأمر الله تعالى بالصلاة على كل من ينتسب إلى النبي ' وفيهم الفاسق والكافر والمنافق، وهذا أمر معلوم بالضرورة!

وأما المقدمة الثانية، فلا دليل عليها، مضافاً إلى كونها باطلة في نفسها، لما هو معلوم بالضرورة أن هناك الكثير من الصحابة لا يوازن الكثير من آل لا صحبة لهم، فضلاً أن يكونوا أفضل منهم، وهذا يعرفه كل من له أدنى إلمام

بسيرة الصحابة وسيرة الآل على تفسيرهم. وأمّا إذا قلنا بالآل على التفسير الصحيح الذي أشرنا إليه فالمقدمة تنتفي من رأس.

مضافاً إلى هذا، فإنّنا إذا قبلنا بهذا القياس لإدخال الصحابة في هذه الفضيلة، فيلزمنا التسليم باتصاف الصحابة بكلّ فضيلة ثبتت لأهل البيت بنفس القياس المتقدم، وهذا لم يقل به أحد، ولا يرتضيه ذو معرفة.

وهذا النقاش كلّه يأتي على أساس أنّ الصلّاة على الآل إنّما هي فضيلة فقط، وعليه يمكن تصحيح جريان القياس، وأمّا إذا نظرنا لها على أنّها عبادة أمرنا الله تعالى بها وبينها لنا النبيّ ' فإنّ القياس لا يجري من رأس؛ لأنّه لا يجري في العبادات حتى عند من يرتضيه؛ لضرورة أنّ العبادات موقوفة للمشّرع، له في كلّ شيء يتعلّق بها حكمة نجهلها. وهذا كلّه أيضاً على فرض أنّ دليل القياس في نفسه صحيح، مع أنّ الأكثر على عدم صحته وأنّه باطلٌ في نفسه.

فتحصل ممّا تقدّم أنّ الاستدلال بالقياس على مشروعية الصلّاة على الصحابة لا يصحّ، وقد ذهب إلى هذه النتيجة بعض من ناقش هذا الاستدلال، ومنهم محمد بن عقيل الحضرمي الشافعي في معرض ردّه على من أوجب سجدة السهو لمن ترك الصلّاة على الصحابة في القنوت! قال: «وأظنّ الشّيخ [ابن حجر] كغيره لا يجهلون أنّه لم ينقل عن النبيّ ' ولا عن أحدٍ من أصحابه رضي الله عنهم أنّه صلّى على الصحب تبعاً للصلّاة عليه صلى الله عليه وآله، أو أمر بها، لا في الصلّاة ولا خارجها، وإنّما قاسها من بعدهم على الصلّاة على الآل، والقياس الذي ذكره فاسدٌ لعدم الاطراد، ولوجود الفارق»<sup>(١)</sup>.

#### ثانياً: دعوى التقييد

ومفاد هذه الدعوى أنّ صيغ الصلّاة التي حملتها الأحاديث كلها مقيّدة بتشهد الصلّاة، وعليه فإنّ المواطن الأخرى تبقى بدون صيغة محددة، وبالتالي يصحّ لنا إدخال الصحابة. ويظهر هذا الدليل من كلام الألباني في ردّه على

الصّدّيق الغماري المالكي الذي أنكر إضافة الصحابة في كلام له سننقل نصّه لاحقاً، والآن ننقل ردّ الألباني عليه، قال: «وقولك في آخر تنبيهك المزعوم - فذكر الصحابة في الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلّم زيادة على ما علّمه الشارع واستدراك عليه وهو لا يجوز - حقّاً إنّ ذلك لا يجوز، ولكن أين تعليمه الصّلاة عليه في خطبة الكتاب الَّذي ذكر فيه هو صلى الله عليه وسلّم دون الأصحاب، حتى يكون ذكرهم زيادة واستدراكاً عليه صلى الله عليه وآله وصحابه أجمعين؟! فإنّ قلت: إنّما استدلت بالحديث لقوله صلى الله عليه وسلّم: (قولوا اللهم صلّ على محمد...)، فعمّ ولم يخصّ صلاة ولا غيرها. فأقول هذا العموم المزعوم أنت أوّل مخالف له؛ لأنه يستلزم الصّلاة عليه صلى الله عليه وسلّم بهذه الصلوات الإبراهيمية كلما ذكر علي الصلاة والسلام، وما رأيتك فعلت ذلك ولو مرّة واحدة في خطبة كتاب أو في حديث ذكر فيه النبيّ صلى الله عليه وسلّم، ولا علمنا أحداً من السلف فعل ذلك، والخير كلّ في الاتباع، والسّرّ في ذلك أنّ هذا العموم المدّعى إنّما هو خاصّ بالتشهُد في الصّلاة كما أفادته بعض الأحاديث الصحيحة»<sup>(١)</sup>.

وجوابه أنّ الأحاديث التي بيّنت كيفية الصّلاة لا يوجد في أيّ واحدٍ منها أنّ النبيّ ' أشار إلى أنّ هذه الكيفية خاصّة بالتشهُد، بل في كلّ مرّة يبيّن بينها على نحو العموم والإطلاق، أيّ: في كلّ مرّة أردتم الصّلاة عليّ فقولوا: هكذا... وكذلك فإنّ هذه الكيفيات جميعها إنّما جاءت جواباً على سؤال الصحابة عن الوارد في القرآن، وهو قوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾، وأنت لا تجد لا في الأمر القرآني، ولا في الجواب إشارة إلى التشهُد لا من قريب ولا من بعيد، نعم تجد إشارة له في بعض أسئلة الصحابة في بعض الأحاديث كما يقول الألباني، وهذه لا تصلح لأن تكون مقيدة لكلام النبيّ '، وإنّما هي تشير إلى تطبيق من تطبيقات ذلك المطلق.

وَمَنْ أشار إلى دعوى التقييد هذه وأنكرها الشوكاني في فتح القدير، حيث قال: «وأما صفة الصَّلَاة عليه صَلَّى الله عليه وسلّم، فقد وردت فيها صفاتٌ كثيرةٌ بأحاديث ثابتة في الصحيحين وغيرهما، منها ما هو مقيد بصفة الصَّلَاة عليه في الصَّلَاة، ومنها ما هو مطلق». وقال في موضع آخر: «ولا وجه لقول من قال إنَّ هذه التعليمات الواردة عنه صَلَّى الله عليه وسلّم في صفة الصَّلَاة عليه مقيدة بالصَّلَاة حملاً لمطلق الأحاديث على المقيد منها بذلك القيد؛ لما في حديث كعب بن عجرة وغيره أنَّ ذلك السؤال لرسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم كان عند نزول الآية»<sup>(١)</sup>.

وَمَّا يردّ القول بالتقييد أيضاً أنّه لو كانت كيفية الصَّلَاة التي أجمعت عليها الروايات الخاصة بالتشهد، كما يدّعي الألباني، وعلى هذا الأساس أجاز إضافة الصحابة، فإنّه يلزم أن تكون هذه كيفية بجميع شؤونها من حيث الهيئة والتركيب والألفاظ والمعنى كلّها خاصّة بالتشهد، وبالتالي يجوز لنا اعتماد أيّ كيفية كانت من حيث الهيئة والتركيب والألفاظ وغيرها، فالقول بالاختصاص لا يفتح الباب أمام إضافة الصحابة فقط، وإنّما يفتح الباب أمام أيّ تغيير؛ لأنّ القول به لا يبقى لنا من الصَّلَاة على النبيّ ' إلا أصل التكليف، أمّا كيفية أداء ذلك التكليف فمتروكة لنا نختار منها ما نراه مناسباً لمقام النبيّ '، وبحسب اجتهاداتنا، وهذه نتيجة غريبة لم يقل بها أحدٌ، ولا يرتضيها جمهور المسلمين.

وبالجواب عن هذا الدليل اتّضح أنّ ما ادّعوه من دليل على مشروعية الصَّلَاة على الصحابة غير تام، وعليه تصبح إضافتها إلى الصَّلَاة على النبيّ ' بمثابة زيادة على ما علّمه الشارع، واستدراك عليه كما ذهب إلى ذلك الغماري المالكي وغيره من علماء المسلمين.

وإليك جملة من أقوالهم في إنكار صحة أيّ إضافة لكيفية الصَّلَاة عموماً

وإضافة الصحابة خصوصاً تأييداً لما تقدّم، وليتضح أنّ الذي حملهم على هذا الإنكار هو قناعتهم أنّ هذه الكيفية إنّما هي كيفية عبادية لا يصحّ فيها التغيير من حذف أو إضافة؛ لأنّ ذلك يعدّ استدراكاً على الشارع وهو باطل بالإجماع، وهو من الإحداث الذي ردّه النبيّ ، وقال: «مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»<sup>(١)</sup>.

حرص علماء المسلمين على ردّ كلّ إضافة لحقت بكيفية الصّلاة بلحاظ أنّها عبادة، والعبادة لا يعرفها إلّا من شرّعها، وفي ذلك يقول الشّيخ الألباني: «فسألوه [الصحابة] عن كيفة شرعية لا يمكنهم معرفتها إلّا من طريق الشارع الحكيم العليم. وهذا كما لو سألوه عن كيفة الصّلاة المفروضة بمثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِمُّوا الصَّلَاةَ﴾»<sup>(٢)</sup>.

وطالما هي عبادة، والعبادة لا تعرف إلّا من طريق الشارع، فيلزمنا التقيّد بما حدّده الشارع في كيفيتها، كما يقول العالم السلفي محمد جميل زينو: «بما أنّ الصّلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلم من العبادة، فلا بدّ لها من التقيّد بما ورد في السنة»<sup>(٣)</sup>.

وهذا الفهم المتسالم عند علماء المسلمين بضرورة التقيّد بما ورد من الشارع في أداء عبادة الصّلاة على النبيّ دفعهم إلى إنكار وتبديع ما أحدثه البعض من حذف الال أو إضافة للفظ سيّدنا أو إضافة الصحابة أو غيرها.

وإليك بعض تصرّحاتهم تلك، منها إنكار القاضي أبي بكر ابن العربي بشدة - في عارضته على سنن الترمذي - على التابعي عبد الرحمن بن أبي ليلى، إضافته لكلمة (وعليها معهم)، والتي قالها في أحد طريقين روى الترمذي عنه بهما أحد أحاديث الكيفية، وقد نقل لنا ذلك عن ابن العربي أحمد محمد شاكر في شرحه

لنفس الموضوع من سنن الترمذي، حيث أنكر هذه الزيادة هو أيضاً وقال: «أي: أن عبد الرحمن بن أبي ليلى يزيد في الصَّلَاة بعد قوله (وعلى آل محمد) يقول: (وعلينا معهم). وهذه الزيادة من باب الدعاء، ولكننا نراها غير جائزة في صيغة الصَّلَاة المروية؛ لأنها صيغة جاءت بالنص على سبيل التعبد، فلا يجوز الزيادة فيها، وليدع المصلي لنفسه بعد أدائها بما يشاء، أمّا أن يزيد فلا. وقد أنكر القاضي أبو بكر بن العربي في العارضة هذه الزيادة من وجه آخر، فقال: إنّنا لا نرى أن نشرك في هذه الخصيصة أحداً منّا مع محمد صلى الله عليه وسلم، بل نقف بالخبر حيث وقف، ونقول منه ما عرف، ونرتبط بما اتفق عليه دون ما اختلف. وقال أيضاً: مسألة: حذار حذار من أن يلتفت أحدٌ إلى ما ذكره ابن أبي زيد فيزيد في الصَّلَاة على النبيّ عليه السلام: وارحم محمداً، فإنّها قريب من بدعة؛ لأنّ النبيّ عليه السلام علّم الصَّلَاة بالوحي، فالزيادة فيها استقصار له، واستدراك عليه، ولا يجوز أن يزداد على النبيّ عليه السلام حرفٌ، بل إنّّه يجوز أن يترحم على النبيّ صلى الله عليه وسلم في كلّ وقت»<sup>(١)</sup>.

ولو تأملت في إضافة (وعلينا معهم) التي أنكرها ابن العربي وأحمد شاكر لوجدنا أنّها لا تختلف عن إضافة الصحابة في شيء، فما يرد على الأولى يرد على الثانية بلا فرق. نعم الفرق أنّ تلك لا مصلحة فيها فلم يتصدى أحدٌ للدفاع عنها بعكس الثانية.

ولو تأملت أيضاً في إنكار ابن العربي لإضافة (وارحم محمداً) ووصفه لها بالبدعة؛ لوجدت أنّ إضافة الصحابة أولى بهذا الإنكار منها؛ للفرق الواضح بين الإضافتين لمن تأملهما، فالأولى إنّما هي من سنخ الدعاء الذي يشمل الصَّلَاة أيضاً بالمعنى العام، وأمّا الثانية فهي إضافة جديدة مستقلة لا علاقة لها بما ثبت بالمرّة.

وكذلك أنكروا إضافة لفظة (سيّدنا)، وممن أنكرها الألباني الذي يدافع عن

إضافة الصحابة، وحجته في هذا الإنكار أنه خلاف الاتباع المأمورين به! قال: «وما ذهب إليه الحافظ ابن حجر رحمته الله من عدم مشروعية تسويده صلى الله عليه وسلم في الصلاة اتباعاً للأمر الكريم، وهو الذي عليه الحنفية، وهو الذي ينبغي التمسك به؛ لأنه الدليل الصادق على حبه صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾» (١).

مع أن الألباني لو تأمل في إضافة الصحابة جيداً لوجدها أولى بكلامه هذا من إضافة لفظ (سيدنا)، وهو واضح لمن تأمله. وكما أشرنا سابقاً إنما لم يطبقوا هذا الثابت على إضافة الصحابة؛ لاقتضاء المصلحة بعكس غيرها.

بالرغم من أن إضافة الصحابة قد قال بمشروعيتها جمهور أهل السنة، ودافع عنها الكثير من علمائهم المتأخرين، إلا أن هناك من علمائهم من أنكرها وقال ببدعيتها على نفس الأساس الذي ردوا به الإضافات السابقة لكيفية الصلاة. وممن قال ببدعيتها العالم المالكي عبد الله بن الصديق الغماري؛ حيث قال: «وننبه هنا على خطأ وقع من جماهير المسلمين، قلّد فيه بعضهم بعضاً، ولم يتفطن له إلا الشيعة؛ وذلك أن الناس حين يصلّون على النبي ' يذكرون معه أصحابه، مع أن النبي ' حين سأله الصحابة فقالوا: كيف نصلي عليك؟ أجابهم بقوله: قولوا اللهم صل على محمد وآل محمد. وفي رواية أخرى: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته. ولم يأت في شيء من طرق الحديث ذكر أصحابه، مع كثرة الطرق وبلوغها حد التواتر، فذكر الصحابة في الصلاة على النبي ' زيادة على ما علّمه الشارع واستدراك عليه، وهو لا يجوز. وأيضاً فإن الصلاة حق للنبي ' ، ولآله، ولا دخل للصحابة فيها، لكن يُترضى عنهم» (١).

وكذلك ذهب إلى بدعيّتها وعدم صحتها العالم الشافعي محمد بن عقيل الحضرمي، قال: «وأظنُّ أنَّ الشَّيْخَ [ابن حجر] كغيره لا يجهلون أنَّه لم ينقل عن النَّبِيِّ ﷺ، ولا عن أحدٍ من أصحابه رضي الله عنهم أنَّه صَلَّى على الصَّحْبِ تبعاً للصَّلاة عليه، أو أمر بها لا في الصَّلاة ولا خارجها، وإنَّما قاسها من بعدهم على الصَّلاة على الآل، والقياس الَّذي ذكروه فاسدٌ؛ لعدم الاطراد، ولوجود الفارق»<sup>(١)</sup>.

ومَن قال بعد صحتها أيضاً العالم الحنفي محمد الشَّيْخ طه الباليساني؛ لأنَّها بنظره لم ترد في صيغ الصَّلاة، قال: «الاقتصار أفضل، ولا حاجة لذكر الصَّحْب»<sup>(٢)</sup>.

وعلى هذا الأساس أنكر صِحَّة إضافة (سيِّدنا)، وقال: «فقول القائل: اللهم صلِّ على سيِّدنا محمد، زيادة على النَّصِّ، والزيادة على نصِّ الرسول لا يجوز، فإنَّ الرسول لا ستحي من الحقِّ، ولا من الناس، فلو كان زيادة لفظ (سيِّدنا) مطلوباً لقاله الرسول ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

وأما العالم الحنبلي حسن بن فرحان المالكي، فلم يكتفِ بإنكارها، بل أشار إلى أسبابها، وقال: «قد يلاحظ بعض الإخوة أنَّني غالباً اقتصر في الصَّلاة على النَّبِيِّ والآل، دون الصَّحابة؛ ليس إنكاراً لفضلهم، ولا ملتزماً بذلك، وإنَّما محاولاً التذكير بالنَّصِّ الَّذي نردِّده في كلِّ تشهدٍ: (الله صلِّ على محمد وعلى آل محمد)، فليس فيه وي الأحاديث التزام الصَّلاة على الصَّحابة كما نفعل اليوم ابتغاءً لبعض محدثات السلفية الأولى، ولم نكتفِ بالصَّلاة على الصَّحْب حتى أدخلنا فيها كلمة (أجمعين)! حتى يدخل معاوية والوليد وقاتل عمار! فالتزام هذا، والإنكار على من اقتصر على الآل - للأسف - أنَّها من البدع المشتهرة عند علاننا، تلك البدع التي ابتدعتها لمعارضة الشيعة، وهي دليلٌ على رغبة الغلاة منّا من قديم أَّا يختصَّ أهل البيت بشيءٍ من الخصائص! ولولا أنَّ الصَّلاة على



الآل يردده المسلمون في كل تشهد لنسوه مثلما نسوا المنزلة الهارونية وبغي معاوية»<sup>(١)</sup>.

نكتفي بهذا القدر من ردود علماء المسلمين وإنكارهم لإضافة الصحابة إلى كيفية الصلاة، ولأي إضافة أخرى؛ لنخلص إلى هذه النتيجة، وهي: أن هذه الإضافة باطلة ومخالفة للثابت الصحيح، وأن الأدلة التي ادّعاها البعض على مشروعيتها غير تامة وباطلة، وأن الأسباب الحقيقية وراء هذه الإضافة هي السياسية الأموية المعادية لأهل البيت <sup>٨</sup> والساعية لمحاربة فضائلهم بأساليب مختلفة متعددة، والتي منها نسبة فضائلهم إلى الصحابة كي لا يبقى لهم ما يميّزهم، ولكي تصرف أنظار الناس عنهم إلى الصحابة ضمن مشروع استبدال أهل البيت بالصحابة، هذا المشروع الذي يمثل ركيزة من ركائز الدولة الأموية ومشروعها السياسي والفكري.

وأما أسباب انتشارها بين الناس وإلى هذه الساعة فله أسبابه التي أشرنا إليها، وكان أهمها محبة الناس للصحابة، ورغبتهم في تعظيمهم والدعاء لهم؛ شعوراً بالامتنان لهم، فجاءت هذه الصلاة للتعبير عن هذا الشعور. وذهب عنهم أن هذا لو كان صحيحاً ومطلوباً لقاله رسول الله '، فهو أولى بكل خير والدعوة لكل ما فيه مصلحة هذه الأمة في دينها ودنياها. فالخير كل الخير بالاتباع، فخير الهدى هدى محمد '، ورضوانه تعالى على الصحابة المتتبعين المتمسكين بهدي النبي، والمطيعين له في حياته بوعد ماته صلى الله عليه وآله.

\* \* \*

الهوامش:

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١٠٧، تحقيق: عزيز الله عطاردي، نشر: مؤسسة نهج البلاغة،

الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ، قم المقدسة.

(٢) الإمام سيّد الساجدين علي بن الحسين ، ' الصحيفة السجادية الكاملة: ٣١، رقم: (٤)، نشر: المجمع العالمي لأهل البيت <sup>٨</sup>.

(٣) صحيح البخاري ٣: ١٦٧، كتاب الصلح، مرجع سابق. صحيح مسلم ٥: ١٣٢، باب: بيان خير الشهود، مرجع سابق.

(٤) أبي الحديد المعتزلي الشافعي، شرح نهج البلاغة ١١: ٤٢، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصوّرة عن الطّبعة الثّانية ١٣٨٥ لدار إحياء الكتب العربيّة، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النّجفي ١٤٠٤.

(٥) ومن نماذج تلك الأحاديث التي وضعتها بنو أمية في فضل الصحابة وما زال يتردد بين المسلمين في المساجد والمحافل العلمية وكأنّه من المسلمات حديث: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، فإنّ هذا الحديث وضعه الأمويون على لسان أربعة من الصحابة، ونسبوه إليهم بطرق عدّة صرّح العديد من أهل الاختصاص أنّها كلّها طرق موضوعة لا أصل لها، ومِن قال بذلك الشّيخ ناصر الدين الألباني إمام السلفية في هذا العصر وذلك في سلسلته الضعيفة.

(٦) ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين، فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٨: ٤١٠، نشر: دار المعرفة والنشر، الطبعة الثانية، بيروت.

(٧) فضل الصلاة على النبي، تحقيق: الألباني، هامش صفحة: ٧٠.

(٨) الذهبي، شمس الدّين مُحمّد بن أحمد، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٩٢، إشراف وتخرّيج: شعيب الأرناؤوط ومأمون الصّاغرجي، الطّبعة الثّاسعة ١٤١٣، نشر: مؤسسة الرّسالة، بيروت. وهذه البدعة لم تنقطع في أتباع بني أمية حتى وصلت إلى عصرنا الحاضر، كما تجد ذلك عند أحد الحاملين للنسب الأموي، وهو الأديب الفلسطيني محمد إسعاف النشاشيبي، فإنّه كان يُصلي على معاوية إذا مرّ بذكره! فقد نقل لنا محمد علي الخوماني في كتابه (دين وتمدين: ٣٢١): «وللتعصّب الأعمى وجوهٌ ووجوه، فإنّ من هذا التعصّب ما يصدر عن عمى العين، ومنه ما يصدر عن عمى القلب، فلقد رأيت مظهرًا من مظاهره في شخص الأديب الفلسطيني إسعاف النشاشيبي حين أصدر كتابه (الإسلام الصحيح)، وقرأت هذا الكتاب، فوجدته حافلاً بالشتائم لآل الرسول، والخيرة من أصحاب محمد، ونقلت بعض هذه الشتائم في مجلتي (العروبة) التي كنت أصدرها في لبنان، وعندما وردت مصر قرأت مقالاً له في مجلة (الرسالة) كان إذا جاء بها على ذكر معاوية أو عمرو بن العاص يقول: صلوات الله وسلامه عليه، وإذا جاء على ذكر الخلفاء الراشدين قال: رضي الله عنهم».

- (٩) البلاذري أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف: ٨: ١٩٥، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، بيروت دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
- (١٠) أبو زهرة، محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية: ٩، دار الفكر العربي، القاهرة/ ١٩٦٦م.
- (١١) الألباني، محمد ناصر، سلسلة الأحاديث الضعيفة ٢: ١٨، مكتبة المعارف، الرياض، طبع سنة ١٤١٥هـ.
- (١٢) انظر منهاج السنّة لابن تيمية ٢: ١٤٣، تحت عنوان (التشبه بالروافض).
- (١٣) نقلت هذه الأمثلة عن كتاب الغدير للشيخ الأميني ١٠: ٢٩٩، وفيه مخالفات أخرى اكتفينا بهذا المقدار منها.
- (١٤) صاحب هذا الكلام هو عبد المحسن العباد البدر أوردته في كتابه (الانتصار لأهل السنة والحديث: ٢٠)، والمراد به حسن فرحان المالكي، والأخير ردّ عليه، وسأذكر ردّه بعد ذلك.
- (١٥) هو طه الباليساني ذكره في كتاب (حسن الكلام: ١٧).
- (١٦) سعادة الدارين للنبهاني: ٣٠.
- (١٧) المصدر نفسه.
- (١٨) النصائح الكافية لابن عقيل، هامش صفحة: ٢٩٥.
- (١٩) الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٣: ١٢، من مقدمة الكتاب، مرجع سابق.
- (٢٠) الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٤: ٣٠١، ٣٠٤، نشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب ١٤١٤هـ، دمشق.
- (٢١) الإمام ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد ٦: ٢٤٠، دار صادر، بيروت.
- (٢٢) صفة الصلّاة على النبي ' ١٣٤، مرجع سابق.
- (٢٣) مجموعة الرسائل الإسلامية ٣: ٤٢٦.
- (٢٤) الجامع الصحيح للترمذي بتحقيق أحمد محمد شاكر ٢: ٣٥٣، باب: (٣٥١).
- (٢٥) صفة الصلاة على النبي ' ١٣٦، مرجع سابق.
- (٢٦) الغماري، القول المقتنع في الردّ على الألباني المبتدع: ١٠.
- (٢٧) النصائح الكافية: ٢٩٦.
- (٢٨) حسن الكلام في أحكام الصلّاة على خير الأنام: ١٧.
- (٢٩) المصدر نفسه.
- (٣٠) المالكي، حسن بن فرحان، دعية وليس نبياً قراءة لمذهب الشّيخ محمد بن عبد الوهاب في التكفير: ٣، الهامش.

# الدلالات الأخلاقية والروحية

## للهضبة الحسينية

□ الشيخ علي الأسدي (\*)

التهنئة

أُتِسمت النهضة الحسينية بأخلاقية متميزة، وقاموس سلوكي إنساني زاهر بالمعاني والقيم، حافظت عليها في شتى مراحلها ومواقفها وخطاباتها. وهذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على تخطيط أخلاقي وسلوكي جيّد؛ إذ لا يريد الإمام عليه السلام أن يفتح ثغرة واحدة، من الممكن أن تعيق النهضة في زحفها إلى شأوها العظيم، وسيرورتها إلى مكانتها التاريخية، بل إنّ هذه المواقف الأخلاقية التي يصرّ الإمام الحسين عليه السلام على اتخاذها في مراحل الثورة المختلفة تضيف على الثورة هالتها القدسية، وتمنحها صفة التجدد؛ لما تقاربه من منهجية تربوية وتهذيبية تلتحم بالنفس، وتتناغم مع الفطرة، وتجذب الميول الإنساني، فيحنو لها المصلحون والمخلصون والوعاة، ويتزودون من تراثها ما يثبت أقدامهم ويمنحهم القدرة على الإنجاز والفعل.

لقد أوضح الإمام الحسين عليه السلام أسس ثورته الفكرية والإصلاحية،

رسالة الثقلين /

(\*) باحث إسلامي / العراق.

وملابساتها وظروفها المعاشة، وصورها المأساوية والبطولية الفريدة، ليحقق مادةً جاهزةً للحياة، ومشروعاً للحرية والسلام، ويضعها أمام أعين الثوار والمصلحين والقادة والمفكرين، ليستخلصوا منها العبر والدروس والمنهج والاستراتيجية وفلسفة البناء والصنع والتغيير وأطروحة الخلاص والانعقاد والحرية ومفاهيم الموت والحياة والرفض والكبرياء... كل ذلك من أجل إعادة إنتاجها على وفق إفرافات واقعهم المتجدد وإشكاليات الحياة المتكررة؛ لأنهم وجدوا فيه وفي نهضته ما يصلح علاجاً وحلاً لعذابات الإنسانية وكفاحها عبر التاريخ.

وكون «الحسين» نصّاً مفتوحاً جعل الرؤى المتعددة في قراءته تتنافس على مدى استجابتها لمتطلباته، ومدى قدرة أدواتها على استنطاقه؛ إذ العمق يكمن فيما فرضه على الواقع من امتداد في كل زواياه.

وأما «كربلاء» فقد استنطقت كل عناصر الجمال الحقيقي، وهذا ما جعلها محط أنظار الملامسين للجمال، فكل يستلهمها بما تميّزت به عيناه من شفافية، حتى تفاعل معها من هو خارج النطاق الإسلامي، بل حتى من هو خارج نطاق الأديان الإلهية المنزلة، فمنذ فجر الثورة الحسينية وأولى ومضاتها التغييرية تنبعث من وقعة كربلاء الأليمة.

فقد أثار مشهد الرأس الشريف رسول قيصر، وقد كان حاضراً، فالتفت إلى يزيد وقال:

«إنّ عندنا في بعض الجزائر كنيسة فيها حافر حمار عيسى عليه السلام ونحن نحج إليه في كل عام من الأقطار، وننذر له الندور، ونعظمه كما تعظمون كعبتكم، فأشهد أنّكم على باطل»<sup>(١)</sup>.

ويروي ابن أعثم في فتوحه واقعةً أخرى بهذا الصدد حول أحد أحبار اليهود وقد كان حاضراً في مجلس يزيد، وسمع ما دار من الحديث بينه وبين علي بن

الحسين السجّاد عليه السلام فقال:

- من هذا الغلام يا أمير المؤمنين؟

- هذا صاحب الرأس أبوه.

- ومن هو صاحب الرأس يا أمير المؤمنين؟

- هو الحسين بن عليّ بن أبي طالب.

- فمن أمّه؟

- هي فاطمة بنت محمّد .

فقال الخبر: يا سبحان الله، هذا ابن بنت نبيّكم قتلتموه في هذه السرعة، بئس ما خلفتموه في ذريّته، والله لو خلّف فينا موسى بن عمران سبطاً من صلبه لكنّا نعبد من دون الله، وأنتم إنّما فارقكم نبيّكم بالأمس فوثبتم على ابن نبيّكم فقتلتموه، سوءة لكم من أمة<sup>(١)</sup>.

فهاتان شهادتان لنصرانيّ وآخر يهوديّ عارفين بقداصة الأثر والنسب اللّذين يذكّران بالنبوة وقداستها ورسالتها الإنسانيّة، فاستبشعا ما صنعتها الحكومة اليزيديّة بهذا الامتداد المقدّس للنبيّ الأعظم . ' . إذًا، المسألة ليست حكرًا على المسلمين ولا على مذهب أو طائفة معيّنة، بل هي إشعاع إنسانيّ رفيع وشفاف يدخل القلوب ويحرّك المشاعر ويجذب الميول الفطريّة نحوه بما أوتي من عظمة وخلق وسلوك وفكر، يثير في الإنسان صورة المشهد المأساويّ الرهيب الذي نتج عن صراع الخير والفضيلة مع الشرّ والرذيلة، بأقصى عنفوانه، وأشدّ ضراوته، وأعلى قممه.

مشهد الواقع المتعفنّ والضاجّ بالصراع والخوف والإرهاب والانحراف والاستئثار بمنافع الأمة وخيراتها...

بشاعة الأسلوب الإجراميّ المتخذ ضدّ هؤلاء الثائرين، وتعرّض النساء والأطفال، حتى الرضع، لأبشع أنواع التنكيل والقتل والإيذاء.

امتداد صوت الثورة... بعد كل هذا القمع والموت والانفجارات الشعبىة  
المعبرة عن انتشار مفهوم النهضة في ضمائر الناس والوجدان الشعبى حتى أطاح  
بالحكم القائم...

ابتعاد النهضة عن كل ما من شأنه أن يداخلها من الأغراض والأطماع  
والمصالح والأساليب الالتوائية والمساومات والتعويضات...  
كل ذلك، مجتمعاً، أدى إلى عملاقة النهضة وامتدادها إلى خارج بلاد  
المسلمين، وخلودها في ذمة الإنسانية، وحفرها بقوة وعمق في وجدان التاريخ  
والحضارة والإنسان.

وهذه شهادة من صحفي وكاتب نصراني معاصر، وهو حافظ إبراهيم خير  
الله، الذي استشعر في قلبه حب الحسين (عليه السلام) فزار ضريحه، وكتب عن انفعالاته  
قائلاً:

«العرشة لا بد منها.. إطلال مآذن كربلاء من بعيد... والمقبل إلى العتبات  
المقدسة في العراق يرتعش؛ لأنه مكان محجته... دخلت إلى مقام الحسين  
فصعقت وذهلت... هو ذا من استشهد فأصبح رمزاً للانتفاض على الظلم، هو  
ذا من استشهد في سبيل العدل وترك الملايين تتطلع إليه مثلاً للإنسان الذي أفنى  
جسده في سبيل الكمال البشري... المسألة لم تتحمل علامات استفهام... بعد  
ربع ساعة وجدت نفسي أبكي ثم أبكي ثم أبكي...»<sup>(١)</sup>.

وهناك كتابات أخرى ممن هم خارج النطاق الإسلامى، كجورج جرداق  
وسليمان كتاني، وروكس بن زائد العزيزي، ومارون عبود، ونعيم فراشري  
صاحب الملحمة الحسينية المؤلفة من عشرة آلاف بيت من الشعر كان لها الأثر في  
الحضور الكربلائي في الأدب الألباني الحديث، والشاعر بولس سلامة،  
وأنطوان بارا الذي قال: «لو كان الحسين منا لنشرنا له في كل أرض راية،  
ولأقمنا له في كل أرض منبراً، ولدعونا الناس إلى المسيحية باسم الحسين»<sup>(٢)</sup>،

وغيرهم ممن صوّروا ملحمة الطفّ الدامية وأعلنوا تضامنهم مع الموقف الحسينيّ وشجّبهم للموقف المضادّ<sup>(١)</sup>.

فهؤلاء الكتّاب والأدباء تفاعلوا مع القضية الحسينيّة لتوافر بعدها الإنسانيّ ضمن حركيّة عناصرها الداخليّة المؤسّسة لإبداعها وعالميّتها، ولأنّ الإمام الحسين عليه السلام خطّط لها بوعي وعمق، فأراد لها تجاوز العناصر الزمانيّة والمكانيّة والظروف الموضوعيّة المعاشة، لتتجاوز ضمير الإنسانيّة ووجدان العالم. ولم يقتصر التأثير الحسيني الإنسانيّ على طبقة الأدباء والكتّاب، أو على وجدان أصحاب الأديان المنزلة، بل تعداه إلى طبقة الساسة والقادة وأصحاب الرؤى الوضعيّة.

فهذا «غاندي» صاحب الكلمة الشهيرة «تعلّمْتُ من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر»، وهو من قادة الإصلاح الاجتماعيّ والسياسيّ في الهند، يصرّح بتأثير النهضة الحسينية في نهضة الهند، قائلاً:

«أنا لم آت بشيءٍ جديد لأبناء الهند، وما قدّمته للشعب الهندي هو عصارة الدراسات والأبحاث التي أجريتها حول تاريخ حياة أبطال كربلاء، فإذا أردنا تحرير الهند، فما علينا إلّا سلوك الطريق الذي سلكه الحسين بن علي»<sup>(٢)</sup>. كما يقول محمّد جناح مؤسس الباكستان: «لا يوجد في العالم مثال للشجاعة أفضل ممّا أبداه الإمام الحسين من تضحية وإقدام، وأعتقد أنّه يجب على كافّة المسلمين اقتفاء أثر هذا الشهيد الذي ضحّى بنفسه على أرض العراق»<sup>(٣)</sup>.

:

يعكس سلوك سيد الشهداء عليه السلام وسيرته الأخلاقية والإنسانية سموّ نفسه وتربيته في حجر جدّه محمد ' وأبيه علي عليه السلام، وتجسيده للقرآن الكريم في عمله وأخلاقه.



وقد تجسّدت خصاله الكريمة وسجاياه السامية في مختلف الميادين والمواقف في ثورة الطفّ، منها: رفضه القاطع مبايعة يزيد، فخرج من المدينة وامتنع عن مبايعته حتى في أقسى الظروف التي مرّت به في كربلاء، من حصار وعطش ومختلف التحديات، بل استقبل الموت بعزّة وشموخ.

وفي الطريق إلى كربلاء التقى الحسين عليه السلام بالحرّ بن يزيد الرياحي على رأس ألف فارس بعثهم ابن زياد (والي الكوفة من قبل حكومة يزيد) ليحاصروا الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه. وكان جيش الحرّ قد تاه في الصحراء، وانقطع عنهم الماء، وبلغ بهم العطش حدّ الموت، فقال الإمام الحسين عليه السلام لفتيانه: «اسقوا القوم وارووهم من الماء وارشفوا الخيل ترشيفاً»، ففعلوا وسقوا حتّى الخيل بأجمعها<sup>(١)</sup>.

ولقد كان بإمكان الإمام الحسين عليه السلام القضاء عليهم بلا قتال ولا منازعة، بل بتركهم يهلكون من الظمّ، وهذه ينظر إليها كورقة رابحة لو كانت بيد غير الإمام الحسين عليه السلام من أولئك الذين لا تهمهم مثل هذه المفردات الإنسانية، ولا يتراءى لأعينهم إلّا ذلك النصر المادّي العسكري الذي يشغف به القادة والمخطّطون.

ولكنّ الإمام عليه السلام كان يريد أن يسطر ملحمة ويتفنّن في تشييدها على ضوء منهج أخلاقي وإسلامي دقيق يغور في العمق، ويزرع برعمه في ذات الإنسان، ليثمر بعد ذلك أجيالاً وثوراتٍ وتواريخٍ مضيئة ومواقف فاعلة.

وهكذا أثمر هذا الموقف الإنساني الرفيع المملوء بالعطف والرحمة والشفقة، حتّى على العدو وخيله، وأثر في نفسيّة ذلك القائد الزاحف لإيقاف خطى القافلة الحسينية، وحوّله إلى رمزٍ من رموز النهضة الحسينية الخالدة؛ إذ تاب بعد ذلك وأبلى بلاءً حسناً، فخلّده التاريخ كبطل حسيني إسلاميّ فذٍّ، إنّه الحرّ بن يزيد الرياحي، عليه الرحمة والرضوان.

وكذلك احتضانه ﷺ في ساحة المعركة لمشاعر «جون»، مولى أبي ذرّ الغفاري، و«واضح» التركي، وهو غلام لأحد أصحابه، وعطفه وخوفه عليهما، ودعاؤه لهما، يكشف عن قدرة الثورة الحسينية على استقطاب العناصر التي يظنها المجتمع ضعيفة، أو خالية عن الإبداع، فحوّلتها الأصابع الحسينية إلى منجمٍ ثرّ بالكنوز واللالئ، وصيّرتهم رموزاً إسلامية يقتدى بها في طبيعة الصراع الإنساني المتكرّر في كلّ مراحل التاريخ.

وفي ساحة كربلاء وقاموسها الأخلاقيّ يتمّ صهر كلّ الفوارق الاجتماعية والطبقية المصطنعة، حتّى تلك التي هي متأصلة في ذات الإنسان، فمساواة الحسين ﷺ بين غلام تركي وعبد أسود وبين ابنه الحبيب والآخر الرضيع من حيث الحفاظ عليهما والخوف والشفقة والبكاء والتأثر والحزن والاعتصار ألماً، هو خير دليل وأوضح برهان على مدى عظم الأخلاقية لهذه النهضة، ومدى وعي الإمام الحسين ﷺ بمتطلباتها وأهدافها ومتبنياتها، مدلاً للقادة والدعاة والمصلحين والثوّار على قدرة الرؤية الإصلاحية الإسلامية على العطاء والصنع والارتقاء الروحيّ والسموّ الأخلاقيّ.

ثمّ هذه المرونة والشفافية التي اتّبعها القائد الشهيد ﷺ أثناء اشتجار الرماح واشتباك السيوف وإثارة الغبار ولغة الموت والدمار، اتّبعها مع المقاتلين والصغار الذين يطلبون الخروج إلى القتال.

وتلك المرأة التي راعى الإمام الحسين ﷺ مشاعرها، فقد روى أصحاب المقاتل أنّ عمرو بن جنادة الأنصاري خرج مستأذناً للإمام الحسين ﷺ لمقاتلة الأعداء وهو ابن إحدى عشرة سنة، بعد أن قتل أبوه في المعركة نفسها، فأبى الحسين ﷺ أن يأذن له، قائلاً: «هذا غلام قتل أبوه في الحملة الأولى، ولعلّ أمّه تكره ذلك». فقال له الغلام: إنّ أمّي أمرتني. فأذن له، فما أسرع أن قتل، ورُمي برأسه إلى جهة الحسين ﷺ فأخذته أمّه ومسحت الدم عنه... ثم أرادت أن

تخرج هي بعمود، فردها الحسين عليه السلام إلى الخيمة<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من كلّ المواقف العصبية والوحدة القاتلة والعطش الشديد، قاتل الإمام الحسين عليه السلام أعداءه كالليث، ولم ترهبه كثرتهم. كان يرى أنّ نهضته قائمة على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأشار عدّة مرّات أثناء مسيره إلى كربلاء إلى هوان الدنيا وتصرّمها وبّين زهده فيها، وتحمل في يوم الطفّ كلّ ما رآه من عدوّه من سوء الخلق ولؤم الطباع. وبعد استشهاده وجدوا على أكتافه آثار أكياس الطعام التي كان يحملها إلى الفقراء، إلى غير ذلك من خصال نفسه الزكيّة، وسمات نهضته الأخلاقيّة التي يمكن الإشارة إلى أهمّها في النقاط التالية:

. . . :

لقد كان آل الرسول ' أمثلةً خالدة في الشجاعة والإقدام وثبات الجنان، وكانت قلوبهم خالية من الخوف في مواجهة الخوف، وكانت ساحات القتال في زمن الرسول ' وحروب علي عليه السلام في الجمل وصفين والنهروان شاهداً يعكس شجاعة آل البيت عليهم السلام.

وقد اعتبر الإمام السجّاد عليه السلام الشجاعة من جملة الخصال البارزة التي منّ الله بها على هذه الأسرة الكريمة، وذلك لما قال في خطبته في قصر الطاغية يزيد: «فضّلنا أهل البيت بستّ خصال: فضّلنا بالعلم والحلم والشجاعة والسباحة والمحبة والمحلة في قلوب المؤمنين، وآتانا ما لم يؤت أحدًا من العالمين من قبلنا، فينا مختلف الملائكة وتنزيل الكتب...»<sup>(٢)</sup>.

وكتيجة لما يتحلّى به الحسين عليه السلام وأسرته من شجاعة حصلوا على أكبر عدد من أوسمة الشهادة، يقول عباس محمود العقاد: «فليس في العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدّة وقدرة وذكرًا... وحسبه أنّه وحده

في تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء في مئات السنين»<sup>(١)</sup>.

كان لهذا الشجاعة موارد مختلفة، فهي في مجال القول واللّسان، وفي تحمّل أهوال المنازلة ومقاتلة العدو، والإغارة الفردية على صفوف جيشه، وكذلك في تحمّل المصائب والشدائد، وعدم الانهيار والقبول بالدنيّة. بدليل أنّه لما اشتدّ القتال، قال: «أما والله لا أجيبهم إلى شيء ممّا يريدون حتى ألقى الله تعالى وأنا مخضب بدمي»<sup>(٢)</sup>، حتى أنّ العدو والصديق معاً أثنيا على شجاعة الحسين عليه السلام وصحبه وأهل بيته.

ألم يخاطب عمر بن سعد قومه بالقول: «الويل لكم، أتدرون من تبارزون! هذا ابن الأنزع البطين، هذا ابن قتال العرب، فاحملوا عليه من كلّ جانب»<sup>(٣)</sup>!! وما أمر المجرم عمر بن سعد بالهجوم الشامل على أفراد جيش الإمام ورميهم بالحجارة إلّا دليل على تلك الشجاعة الفريدة. فالشجاعة هي الإقدام عند منازلة الخصوم وعدم تهيّب المخاطر، واقتحام الخطوب، وهي من الصفات المهمة التي تميّزت بها شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته؛ إذ نقرأ عن الاندفاع والحماس المنقطع النظير الذي جسّده في سوح الوغى، والتسابق على بذل الأرواح رخيصة، فداءً للدين والمبادئ.

وقد رسمت ملحمة كربلاء - منذ انطلاقها وحتى مراحلها الأخيرة - مشاهد تتجسّد فيها معالم الشجاعة بشتّى صورها، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ فالتصميم الذي أبداه الإمام الحسين عليه السلام في معارضة يزيد ورفض البيعة له، وعزمه الراسخ على المسير نحو الكوفة والتصديّ لأنصار يزيد، من أمثال ابن زياد، وعدم انهيار معنوياته لسماع الأخبار والأوضاع التي كانت تجري في الكوفة، وإعلانه على الملأ عن الاستعداد لبذل دمه والتضحية بنفسه في سبيل إحياء الدين، وعدم الخوف من كثرة الجيش المعادي، على الرغم من كثرة عدده وعُدّته، ومحاصرة هذا الجيش له في كربلاء، مع عدم استسلامه، والقتال العنيف

الذي خاضه بعد ذلك مع جنوده وأهل بيته، وصور البطولة الفريدة التي أبداهَا أخوه العباس، وعلي الأكبر، والقاسم، وعامة أبناء عليّ، وأبناء عقيل، والحُطَب التي ألقاها الإمام السجّاد وزينب ' في الكوفة والشام وغيرهما من المواقف والمشاهد البطوليّة، تعكس بأجمعها عنصر الشجاعة الذي يعدّ من أوّليات ثقافة عاشوراء.

ومع أنّ الأرقام التي تذكرها كتب المقاتل عن عدد قتلى العدو نتيجةً لهجوم أصحاب الإمام عليهم قد تكون مبالغاً فيها، إلّا أنّ الأمر الثابت الذي لا يمكن إنكاره هو الشجاعة المثيرة لهذه الثلّة المؤمنة، التي بذلت نفسها في سبيل الله، ولم تطاوعها نفسها بترك قائدها في الميدان وحده.

.

تمثّل ذلك عند الحسين (عليه السلام) والأئمّة الأطهار (عليهم السلام)، وهم في أحلك الظروف والشدائد، فلم يذكر حالة واحدة يصوّر فيها ضعفاً، أو تخاذلاً، أو موقفاً متذبذباً في قضية سياسية، أو أخلاقية، أو عسكرية، أو ما شابه ذلك، بل بلغ الحسين (عليه السلام) مستوى الكمال وقمة الإنسانية، ويؤكد ذلك: انعكاس الداخل على الخارج، فحقيقة الحسين (عليه السلام) واحدة؛ إذ إنّها مستمدّة من نفسه القويّة، ومن البناء الصلب الذي يتّسم بالفضيلة والخير والعدل، بما هو حقيقة، وفق مقتضيات الهداية الإلهية إلى الصراط المستقيم، والتربية المحمّدية على المنهج الصحيح، والشجاعة العلوية التي تمثّلت في ضبط النفس من أيّ مؤثر من المؤثرات.

«روي أنّ غلاماً وقف يصبّ الماء على الحسين، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرذاذ في وجهه، فقال الغلام: يا مولاي والكاظمين الغيظ، قال: كظمت غيظي: قال: والعافين عن الناس، قال عفوت عنك، قال: والله

يحبّ المحسنين، قال: اذهب، فأنت حرّ لوجه الله الكريم»<sup>(١)</sup>.

هذه القدرة على ضبط النفس التي تصوّرها هذه الحادثة الأخلاقية انعكست على شخصيّة الحسين عليه السلام، وتجسّدت فيه يوم الطفّ عند قتل كلّ صحبه وأهل بيته، فلم يرَ إلّا صابراً، محتسباً أمره إلى الله، رابط الجأش، لم يضعف ولو للحظة واحدة، مع علمه بما يجري على أهل بيته بعد مقتله، وقد خرج الحسين لهذه المعركة، وقتل شهيداً، وهو يعيش أكبر حالة من الاطمئنان، فوقع على الأرض وقد رماه أحدهم بسهم في قلبه الشريف، فشخص ببصره نحو السماء، وهو يقول: «بسم الله وبالله، وعلى ملّة رسول الله»، إلهي إنّك تعلم أنّهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض ابن بنت نبيّ غيره». وأخرج السهم من قفاه، فانبعث الدم كالميزاب، فأخذ يتلقّفه بيديه، فلمّا امتلأتا رمى به نحو السماء، وهو يقول: «هَوَّنَ ما نزل بي أنّه بعين الله». ثمّ أخذ من دمه الشريف ولطّخ به وجهه ولحيته، وهو بتلك الهيبة التي تحكي هيبة الأنبياء، واندفع يقول: «هكذا أكون حتى ألقى الله، وجدّي رسول الله، وأنا مخضّب بدمي»<sup>(٢)</sup>. وهذه الشجاعة التي تمثّلت فيه عليه السلام، هي قدرته على ضبط النفس، حتى عندما سقط وهو مضرّج بدمه، وهي أساس قوّة الشخصيّة، وقوّة الخلق معاً، بل وقاعدة الكرامة والكبرياء والإنسانيّة جميعاً.

إنّ آية شخصيّة تفقد قوّتها على ضبط النفس، فهي لا تملك نفسها في المواقف الصعبة، والظروف القاهرة، وبالتالي: فهي تفقد صفة الشجاعة التي تعني الاستعداد الرجوليّ والبطوليّ للمواجهة، وتسيير الخطة المعدّة سلفاً لمقاومة عدوّ لا يضع أيّ اعتبارٍ لمعاني الإنسانيّة وقيمها.

: .

بالغ الإمام عليه السلام مع أصحابه وأهل بيته في الدعوة إلى السلم، مع الحرص

الشديد على مدّ جسور الفهم والتفاهم مع أعدائه، وعليه: كان يُحجم عن إصدار أوامر القتال على الرغم من تدفق القوات المعادية من حوله كالسيل، حرصاً منه على حقن دماء المسلمين، وحلّ النزاع بالطرق السلمية، ولا سيما أنّه اتّبع وسائل سلمية عديدة، منها: تذكيرهم بالكتب المرسلة إليه، والعهود التي قُطعت له بالولاء والنصرة، كما أنّه عرفهم بنفسه وحسبه ونسبه وقربه من رسول الله ، زد على ذلك: أنّه عقد مباحثاتٍ مطوّلة مع أركان وقادة الجيش المعادي له.

ومن هذا المنطلق فقد صرّح عليه السلام في بواكير حركته: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدي محمد ...»<sup>(١)</sup>، وهذا تشخيص منه عليه السلام بأنّ الحالة الطبيعية للمجتمع، وهي السلام والأمن، قد اختُرقت من قبل الحكومة القائمة آنذاك، فلم يعد هناك شيء اسمه (أمن) في خضمّ هذه الحالة المزرية التي يتعرّض لها المجتمع، فلا بدّ من ثورة تهزّ جذور الواقع وتستبدله بآخر مشرق، آمن، ملؤه السلام والطمأنينة، فإن لم يكن بالفعل المباشر لهذه الثورة، يكن بتحريك كوامن طاقات الأمة، واستفزاز عناصرها الإبداعية والفطرية الدينية. وليكن عبر تاريخ طويل يؤسّس منهجية المواجهة الساخنة مع هذه القوى التخريبية التي تُعيد إنتاج نفسها عبر العصور والأزمنة.

ولأنّ الإسلام هو دين السلام والأمن والحرية؛ {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢]، {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ} [يونس: ٢٥]، ولأنّه لم يبدأ بالحرب والقتال والموت إلّا بعد أن طغى المشركون وظلموا واستبدّوا واعتدوا وخربوا، فكذلك هي رسالة الحسين عليه السلام وغايته أثناء تحرّكه ونهضته، فهو عليه السلام يدرك تمام الإدراك، ويعي تمام الوعي، أنّ الحالة الطبيعية للمجتمع والتوجّه الطبيعيّ للدين الإسلامي هو السلام

والأمن.

نعم، لم يقرّ الإسلام الأديان الوثنيّة والاعتقادات الخرافيّة، بل قاتل أصحابها...

ولكن من دون أن يخرق حالة السلام الطبيعيّة في المجتمع، إلّا من أجل إحلال السلام نفسه في الأمّة. وأساساً، فإنّ النهضة الحسينيّة إنّما قامت من أجل إحلال السلام في المجتمع، كما هو مقتضى الرسالة الإسلاميّة التي لم تقم إلّا من أجل إلغاء قيم الغاب وقانون المال والقوّة والسيادة الذي كان يهدّد شرائح واسعة من المجتمع، لترزح هذه الشرائح تحت نير الاستعباد والاستغلال، فيما استأثّر بالثروة والسيادة طبقة الأعيان والسادة والمتموّلين بمكّة.

هذا ما دار في خلد الحسين (عليه السلام) وهو يخطّط لاستراتيجية النهضة بعمق وبعد ودقّة، ومع هذا كلّه - انظر إلى دقة التخطيط الحسينيّ - لم يكن هو من ابتدأ بالحرب والقتال في مراحل عديدة من تحرّكه، مع توافر الفرص الكثيرة له في هذا المجال.

ففي المدينة، استدعاه الوليد بن عتبة لأخذ البيعة منه، فرفض الإمام (عليه السلام) أن تكون سرّاً، وانصرف في جمع مواليه وأهل بيته، فقال مروان للوليد: «والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرتّ منه على مثلها أبداً حتّى تكثر القتل بينكم وبينه، احبس الرجل ولا يخرج من عندك حتّى يبايع أو تضرب عنقه»<sup>(١)</sup>.

مما يدلّ على أنّ الإمام (عليه السلام) كان يمتلك القاعدة الشعبيّة والعسكرية التي تؤهّله للإطاحة بعامل يزيد على المدينة، وفي أقلّ التقادير، كان يمتلك من الرجال والعدّة ما يفوق رجاله وعدّته يوم عاشوراء، ولكنّه (عليه السلام) لم يُرد أن يبتدئ هو بالقتال والموت والدمار، فهذا ما لا ترمي إليه نهضته إطلاقاً، وهو لم يكن في حسابات هذه النهضة الإصلاحية التي أراد إيقاظ المجتمع بها، فالحرب كانت ردّة فعل لما قام به الطرف الآخر من إعداد العدّة والبدء بالقتال.



وفي مكة، قال له عبد الله بن الزبير: «أما إنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمرها هنا ما خولف عليك إن شاء الله»<sup>(١)</sup>.

وهذا اعتراف من الرجل الخبير بأهل الحجاز وتوجهاتهم وتطلعاتهم، فإذا ضممنا إليه تلك الكتب والرسائل التي كانت ترد على الإمام عليه السلام من أهل الكوفة لاستنفاره وحمله على القدوم إليهم للثورة على السلطة، نجد أن من الممكن ابتداء الحسين عليه السلام نفسه بالحرب وإشعالها بعد توفر الظروف الموضوعية له.

ولكنه عليه السلام لا يفكر بطريقة ابن الزبير الذي لا همّ له سوى القيام وأخذ السلطة والإمساك بزمام ولاية الأمر، وسحب البساط من تحت يزيد، كان عليه السلام يفكر بطريقة المصلح الذي يضع الأمن والسلام نصب عينيه في كل تحرك وموقف، بحيث لا يبتدئ هو بالقتال أو النزاع قبل الآخر، ليمنحه بذلك صفة المعتدي على حرمة رسول الله ' ووريثه وممثل الرسالة الإسلامية...

كان يفكر بطريقة الداعية إلى الهداية والسلام والرؤية الإصلاحية الصحيحة، بعيداً عن تجاذبات الصراع وصراع المصالح. وهكذا، فالأمة الإسلامية اليوم تعيش حالة من فقدان الأمن والعدالة والسلام، وهي تسيء فهم المنظور الإسلامي لحالة السلم والسلام والهداية وتحصره في منطقة الدعة والهدوء والدبلوماسية...

فيما أن المنظور الإسلامي لهذه الكلمة (السلام) أوسع من ذلك، كما فهمه الإمام الحسين عليه السلام بحيث شمل عنده حالة الحرب والقتال والتضحية من أجل إرساء هذا المفهوم في عمق المجتمع، وترسيخه في ذهنية الأمة، فقد رأى الإمام عليه السلام أنه: إمّا سلام على الأرض، وإمّا السلام الأبدي عند المهيمن السلام تعالى شأنه...

وهذه السجّية قد استقاها من أبيه أمير المؤمنين عليه السلام الذي غلب جيش الشام في صفّين، وانتزع منهم شريعة الفرات، ثم قال لجنده: «خلّوا بينهم وبينه»<sup>(١)</sup>، ولكن لؤم معاوية الذي ورثه يزيد دعاه إلى منع الماء عن جيش الحسين بن علي عليه السلام.

روى الشيخ الصدوق + أنّ عبيد الله بن زياد كتب إلى عمر بن سعد: «إذا أتاك كتابي هذا، فلا تمهلنّ الحسين بن علي، وخذ بكظمه، وحلّ بين الماء وبينه»<sup>(٢)</sup>.

فالحسين عليه السلام قد ورث الشهامة عن علي عليه السلام، ويزيد ورث الخسّة عن معاوية.

وفي قيظ يوم عاشوراء، واشتداد حر الرضاء، لما رأى الحسين عليه السلام هجوم الجيش على خيام عياله صاح بهم يعتفهم:

«إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون»<sup>(٣)</sup>.

فهو ما دام حيّاً لم يكن قادراً على رؤية العدو وهو يهجم على عياله، وهذا خير شاهد على مروءته وشهامته.

والشهامّة والمروءة من المعالم الأخلاقية والنفسيّة البارزة لدى الحسين عليه السلام وأنصاره، والتي تجسّدت في ملحمة عاشوراء، وهذه النفسيّة التي تجعل الإنسان يشمّر من الطغاة، ويرفض الانصياع لسلطان الظلم، ويحبّ الحرّيّة والفضيلة، ويتجنّب الغدر ونقض العهد وظلم الضعفاء، ويدافع عنهم، ولا يتعرّض للأبرياء، ويقبل العذر، ويقل العثرة، ويعترف بالحقّ الإنسانيّ للآخرين. هذه الأمور كلّها تعتبر من معالم الشهامة والمروءة التي تجسّدت على أرض الطفّ.

:

من صفوة القول: وصفت ثورة الحسين عليه السلام بأنها قامت على أساس الأخلاق والمروءة، وكانت جهاداً للقضاء على الرذيلة ونشر الفضيلة. وكانت تنتهج الأسلوب الشريف عند مواجهة الخصم، وتحلّى أفرادها بالغيرة والشجاعة والتضحية، والصبر على الشدائد، والثبات على طريق الحق. وعلى الضدّ من موقف أهل الكوفة الذين كتبوا إلى الحسين عليه السلام يدعونه، ولما جاءهم غدروا به، وهبوا لقتاله، بينما وقف آخرون على العهد وضحّوا بأنفسهم فداءً للحسين عليه السلام، وهم الذين أشارت إليهم الزيارة: «السلام عليك وعلى الأرواح التي حلّت بفنائك»<sup>(١)</sup>.

وأشار الحسين عليه السلام في خطبه وكلماته على طول الطريق إلى غدر وخذلان وغرور ونكث أهل الكوفة، ونقضهم العهد، وخلعهم البيعة، وعاب فيهم هذه الصفات. أمّا الحسين عليه السلام فقد وفى بعهده مع ربّه، وكثيراً ما تطلّعنا الزيارات بعبارات، من قبيل: «وأشهد أنّك بلغت ونصحت ووفيت وأوفيت»<sup>(٢)</sup>.

وجاء في زيارة العباس عليه السلام: «وأشهد الله أنّك مضيت على ما مضى عليه البدريّون والمجاهدون في سبيل الله... فجزاك الله أفضل الجزاء، وأكثر الجزاء، وأوفر الجزاء، وأوفى جزاء ممّن وفى ببيعته، واستجاب له دعوته، وأطاع ولاية أمره»<sup>(٣)</sup>.

وكانت عاشوراء ساحة وفاء من جهة، وغدر من جهة أخرى، وضرب العباس بن علي عليه السلام مثلاً في الوفاء، فقد رفض كتاب الأمان الذي عرضه شمر بن ذي الجوشن عليه.

ولم يترك أخاه الحسين وحيداً، وقدم إخوته الثلاثة فداءً له؛ فإنّ الوفاء معناه التمسك بالعهد والثبات على الميثاق والعمل بالواجب الإنساني والإسلامي في إزاء شخص آخر جدير بذلك.

وهذه الخصلة من أولويات معجم عاشوراء، ولها في قاموس الشهداء مكانة رفيعة، وهي من أشرف الخصال ودليل على المروءة. قال علي عليه السلام: «أشرف الخلائق الوفاء»<sup>(١)</sup>.

:

إنَّ الحبَّ الإلهيَّ في قلوب الأولياء والدعاة الربانيين يمثل القاعدة التي ينطلق منها هؤلاء نحو كلِّ الميادين، خصوصاً ميدان الجهاد والتضحية، مندفعين بدافع الشوق إلى لقاء المحبوب والانتقال إلى جواره، وشوق أبي الأحرار إلى أسلافه ناشئ من شوقه إلى لقاء الله، وذلك عندما قال: «وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه»<sup>(٢)</sup>، وقد ترشَّح هذا الشوق على أرواح تلك الصفوة من أنصاره عليهم السلام، فكان الرجل منهم يستقبل الرماح والسيوف ب صدره ووجهه، حتى تفاعلت أرواحهم مع حبِّ الله والشوق إليه، فلم يعد أحدهم يرى غير عالم الملكوت، ولا غاية يريدتها إلاَّ الانتقال إلى جوار الله تعالى.

وأما المظاهر والممارسات التي تشير إلى الدلالات الروحية لهذه النهضة فيمكن الإشارة إليها فيما يلي:

:

إنَّ الصلاة والمناجاة هي الرابطة الوثيقة بين الإنسان والرب، بين المخلوق وخالقه. والصلاة هي المهدئ والباعث على اطمئنان القلوب المضطربة والمتعبة، وأساس لصفاء الباطن وتنوير الروح.

إنَّها الميثاق والباعث للتحرك والاستعداد بصورة عميقة بعيدة عن التلون والخذاع، للتخلُّص من كلِّ ما هو سيء ورديء، وتحصيل كلِّ ما هو صالح

وجميل، وهي برنامج للعثور على النفس، ومن ثمّ صناعتها وتهذيبها. وبكلمة موجزة: هي رابطة واستفاضة دائمة من منبع ومبدأ كلّ الخيرات، وهو الله تبارك وتعالى.

وبما أنّ الصلاة تحتل هذه المرتبة في نظر الشريعة، فمن الطبيعي، بل من الضروري أن يؤكد عليها الإمام سيد الشهداء (عليه السلام) في ممارسته يوم الطفّ، وهذا هو الذي يلتقي مع أهداف الثورة؛ فإنّ الهدف الرئيسي من هذه الثورة المقدسة الحفاظ على حقائق الشريعة وإعطاء الفرائض الإسلامية مدلولها الصحيح. وكما عن علي (عليه السلام) قال: «قال رسول الله: إنّ عمود الدين الصلاة، وهي أول ما ينظر فيه من عمل ابن آدم، فإن صحت نظر في عمله، وإن لم تصح لم ينظر في بقيّة عمله»<sup>(١)</sup>.

ولقد أفاض أبو عبد الله (عليه السلام) من روحه الملكوتية نوراً على تلك الأرواح المقدسة من حوله، حتى أصبحوا في أعلى درجات التعلّق بالله، حيث لم تشغلهم المعركة - والحرب قائمة أوزارها - عن التفكير في الصلاة وإقامتها خلف إمامهم جماعة، أمام أنظار الجيش المعادي، ففي أثناء اشتداد المعركة وبعد أن قُتل قسم كبير من الأنصار، حضر وقت صلاة الظهر، فرفع أحد الأصحاب - وهو أبو ثمامة الصائدي - رأسه ينظر إلى الشمس ثم التفت إلى الإمام وقال: «يا أبا عبد الله، نفسي لك الفداء، إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تقتل حتى اقتل دونك إن شاء الله، وأحبّ أن ألقى ربّي وقد صلّيت هذه الصلاة التي دنا وقتها». فرفع الحسين رأسه ثم قال: «ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين. نعم، هذا أول وقتها... سلوهم أن يكفّوا عنّا حتى نصلي»<sup>(٢)</sup>.

فصلّى (عليه السلام) بمن بقي من أصحابه صلاة الخوف، وكانت صلاته في تلك اللحظة الرهيبة من أصدق مظاهر الإخلاص والطاعة لله، وانبرى أمام الحسين (عليه السلام) سعيد بن عبد الله الحنفي يقيه بنفسه السهام والرماح التي تواجهه

من معسكر الأعداء، الذين خانوا ما عاهدوا الإمام عليه من إيقاف عمليات الحرب حتى يؤدّي فريضة الله، فقد اغتنموا الفرصة وراحوا يرشقون الإمام وأصحابه بسهامهم، وكان سعيد الحنفي - فيما يقول المؤرخون - يبادر نحو السهام فيستقبلها ب صدره ونحره، ووقف ثابتاً كأنه الجبل، لم تزعزعه السهام التي اتخذت منه هدفاً لها، ولم يكد يفرغ الإمام من صلاته حتى كان قد أثنى بالجراح، فهوى إلى الأرض يتخبط بدمه وهو يقول بنبرات خافتة: «اللهم العنهم لعن عاد وشمود، وأبلغ نبيك مني السلام، أبلغه ما لقيت من ألم الجراح، فأني أردت بذلك ثوابك ونصرة ذرية نبيك». ثم التفت إلى الإمام ليرى هل أدى حقه ووفى له بعهده قائلاً: «أوفيتُ يا بن رسول الله؟» فأجابه الإمام شاكرًا له: «نعم أنت أمامي في الجنة»<sup>(١)</sup>.

نعم، إنه الحب الإلهي الذي يصنع العجائب في حياة الإنسان، هكذا عَشِقَ هؤلاء الأبرار إمامهم وقائدهم واتّصلت أرواحهم بروحه كما يتّصل الضوء بمصدره، وكانوا يشعرون بأنهم إنّما خلقوا من أجله، ومن أجل أن يضحو بأرواحهم الطاهرة دفاعاً عن شخصه؛ لأنّه يمثل دين الله في الأرض، فعشقه عشق لله، والدفاع عنه دفاع عن قيم الله ودينه.

:

إنّ الأدعية بأنواعها وأساليبها المتعددة تمتدّ مع جميع شؤون الإنسان وأبعاده المختلفة، فهي تستنزل دموع حياتنا في لحظات الإنابة إلى الله الغفور الرحيم، وتُجسّد تضرّعنا إليه، وترفع أيدينا الملتزمة إلى مالك الوجود، وتعفّر جباهنا بالتراب استكانة له، وتبصّرنا عجزنا وضعفنا وفقرنا وذلتنا تجاهه جلّت عظمته، وتكشف لنا قدرته المطلقة، وحكمته البالغة ورحمته الواسعة.

ونحن كمسلمين، مدينون لأهل البيت عليهم السلام على ما أفاضوا علينا من الأدعية

الغنيّة بمضامينها، الجليّة بمعانيها. فعن الرسول الأعظم : «إنّ الدعاء سلاح المؤمن وعمود الدين ونور السماوات والأرض»<sup>(١)</sup>.

وإنّ من أشهر وأعظم الأدعية الواردة عن المعصومين عليهم السلام الدعاء المعروف بدعاء عرفة الوارد عن الإمام الحسين عليه السلام، ويعتبر هذا الدعاء من أجلّ الأدعية وأعظمها من حيث المضامين التي أشار إليها أبو الأحرار في دعائه، والتي تعتبر من أرقى وأدق ما طرح في مقام التوحيد والعرفان وسائر المعارف الأخرى.

وإليك مقتطفات من هذا الدعاء: «إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري، إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جاهلاً في جهلي، إلهي إنّ اختلاف تدبيرك وسرعة طواء مقاديرك منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء، واليأس منك في بلاء، إلهي مَنّي ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك»<sup>(٢)</sup>.

وبالدعاء أيضاً يختتم أبو الأحرار عليه السلام لحظات حياته، ومواقف جهاده، ليبرهن للأجيال أنّ كلّ ما أعطاه في هذه الثورة المقدّسة من تضحياتٍ ودماء إنّما هي في سبيل الله تعالى والحفاظ على رسالته، فهو يتضرّع إلى خالقه، وقد كسسته الدماء القانية التي رسم بها للأمة طريق الحياة الحرّة الكريمة، وكتب بها صفحات الإباء لتقرأها الأجيال كلّما ضعفت في نفوسها روح التضحية والجهاد لتُبعث من جديد.

فكانت آخر مناجاته بعدما انتهى من ترتيل الجهاد، وأدّى سيفه دوره وأخذ مأخذه من رقاب أولئك المارقين، وبعد أن أثخن بالجراح، أخذ يناجي ربّه قائلاً:

«اللهمّ متعالى المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غنيّ عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادر على ما تشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء، قريبٌ إذا دُعيت، محيط بما خلقت، قابل التوبة لمن تاب إليك، قادر

على ما أردت، ومُدرك ما طلبت، وشكور إذا شكرت، وذكرور إذا ذكرت. أدعوك محتاجاً، وأرغب إليك فقيراً، أفزع إليك خائفاً، وأبكي إليك مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً، وأتوكل عليك كافياً، احكم بيننا وبين قومنا؛ فإنهم غرّونا وخدعونا وخذلونا وغدروا بنا وقتلونا، ونحن عترة نبيك وولد حبيبك محمد بن عبد الله الذي اصطفيته بالرسالة وائتمنته على وحيك، واجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً يا أرحم الراحمين<sup>(١)</sup>.

: .

لقد ضرب أبو الأحرار رقماً قياسياً في صبره، فكان كالطود الأشم الذي لا تحرّكه الرياح العاتية، وهو مع ذلك يزود من حوله بروح الصبر والتسليم لقضاء الله تعالى.

كان صبره عليه السلام صبر العمل والجهاد والتضحية، لا صبر الخنوع والاستلام، وهذا هو صبر الأنبياء والرسل على ما يواجهونه من أمهم ومجتمعاتهم عندما يدعونهم إلى الله ويحاولون إصلاح تلك الأمم والمجتمعات، فقد وطّئوا أنفسهم على كلّ مشاق الطريق ومتاعبه.

وقد رسمت واقعة كربلاء أجمل صور الصمود والثبات في سبيل العقيدة وتحمل الصعاب، حتى أضحت سبباً لمجد وخلود تلك الملحمة، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الصبر يهون الفجيرة»<sup>(٢)</sup>، ولقد كان بحق - هو وتلك الصفوة من حوله - أعظم مدرسة للأجيال في الصبر والصمود واللامبالاة بالموت في سبيل الأهداف المقدسة، فقد اندفع أولئك الأبطال للقتال بكل صبر وثبات، فكان كلّ واحدٍ منهم إذا أراد القتال أتى الحسين ليودّعه قائلاً: السلام عليك يا أبا عبد الله.

وهكذا كان رجال الإمام من حوله يستمدّون منه روح الصبر، وكان عليه السلام



يُجْتَنَّبُ عَلَى الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ بِوَجْهِ الْعَدُوِّ الَّذِي كَانَ يَتَفَوَّقُ عَلَيْهِمْ عِدداً وَعَدَّةً، قَالَ ﷺ: «صَبْرًا بَنِي الْكَرَامِ، فَمَا الْمَوْتُ إِلَّا قَنْطَرَةٌ تَعْبُرُ بِكُمْ عَنِ الْبُؤْسِ وَالضَّرَاءِ إِلَى الْجَنَانِ الْوَاسِعَةِ النَّعِيمِ الدَّائِمِ، فَأَيُّكُمْ يَكْرَهُ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ سَجْنٍ إِلَى قَصْرِ، وَمَا هُوَ لِأَعْدَائِكُمْ إِلَّا كَمَنْ يَنْتَقِلُ مِنْ قَصْرِ إِلَى سَجْنٍ وَعَذَابٍ، إِنَّ أَبِي حَدَّثَنِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: 'إِنَّ الدُّنْيَا سَجْنٌ الْمُؤْمِنُ وَجَنَّةٌ الْكَافِرُ وَالْمَوْتُ جَسَرٌ هَؤُلَاءِ إِلَى جَنَّتِهِمْ، وَجَسَرٌ هَؤُلَاءِ إِلَى جَهَنَّمِهِمْ، مَا كَذَبْتُ وَلَا كَذَبْتُ'»<sup>(١)</sup>.

وهذه أخته زينب الحوراء تبكي لما تنتظره من فقد الإخوة وباقي الرجال، فأقبل عليها الإمام مخاطباً لها ليعدها لمهمتها القادمة التي تمثل حلقة من حلقات الثورة، قال ﷺ: «يَا أُخِيَّةُ، اتَّقِي اللَّهَ وَتَعَزِّيْ بِعِزَاءِ اللَّهِ، وَاعْلَمِي أَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ يَمُوتُونَ، وَأَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ لَا يَبْقُونَ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ بِقُدْرَتِهِ وَيَبْعَثُ الْخَلْقَ فَيَعُودُونَ، وَهُوَ فَرْدٌ وَحْدَهُ، أَبِي خَيْرٌ مِنِّي، وَأُمِّي خَيْرٌ مِنِّي، وَأَخِي خَيْرٌ مِنِّي، وَلِيْ لَهُمْ وَلِكُلِّ مُسْلِمٍ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُسُوءَةٌ»<sup>(٢)</sup>.

وبهذا فقد أمدَّ أبو الأحرار شقيقته بطلة كربلاء بروح العزيمة والصمود حتى ضربت الحوراء زينب أروع الأمثلة في تاريخ المرأة المسلمة في ميادين الصمود والمواجهة للانحراف والطاغوت.

لقد فهمت زينب مغزى رسالته ووعتها جيداً، فبسطت يديها تحت بدنه المقدس بعد مقتله، رافعةً طرفها نحو السماء، هاتفة: «اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنَّا هَذَا الْقُرْبَانَ». وصمدت بقوة غريبة أمام أكبر كارثة يمكن أن تحلَّ بامرأة قُتِلَ أَهْلُ بَيْتِهَا وَحَمَاتِهَا فِي لَحْظَاتٍ قَلِيلَةٍ.

إنَّ هَذَا الْمَوْقِفَ الَّذِي لَمْ يَحْدُثِ التَّارِيخُ بِمِثْلِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقِفَهُ إِلَّا الَّذِينَ يَحْمِلُونَ أَرْوَاحاً تَجَاوَزَتْ الْحُدُودَ الدُّنْيَوِيَّةَ الْمَحْسُوسَةَ فَأَصْبَحَتْ تَعِيشُ فِي عَالَمِ الْمَلَكُوتِ، أَجْسَادُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَأَرْوَاحُهُمْ مَعْلُوقَةٌ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى.

ويقف أبو الأحرار صامداً يواجه تلك الكوارث بثبات الصابرين قائلاً:

«صبراً على قضائك يا ربّ، لا إله سواك، يا غياث المستغيثين، ما لي ربّ سواك، ولا معبود غيرك، صبراً على حكمك يا غياث من لا غياث له»<sup>(١)</sup>.

وختم أبو الأحرار فصول ملحمة حينما وقع على الأرض مرماً بدمائه الزكية على أثر أصابته بسهم في صدره قائلاً: «بسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله». ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: «إلهي إنّك تعلم أنّهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض ابن بنت نبيّ غيره»<sup>(٢)</sup>. ووضع يديه تحت الجرح فلمّا امتلأت دماً رمى به نحو السماء وقال: «هون عليّ ما نزل بي أنّه بعين الله»، فلم يسقط من ذلك الدم قطرة إلى الأرض، ثم مدّ يديه ثانياً فلمّا امتلأت لطّخ به رأسه ووجهه، وقال: «هكذا أكون حتى ألقى الله وجدّي رسول الله وأنا مخضّب بدمي»<sup>(٣)</sup>. وهكذا تبقى يا أبا الأحرار مدرسة الأجيال في كلّ ميدان من ميادين العظمة والنبل والفضيلة، وتبقى مصباحاً للهدى تضيء للأمة طريقها وتعلّم الأحرار كيف يعيشون أو كيف يموتون.

موضوع مقالتنا هذه كما رأينا يتخذ بعداً حيويّاً؛ لأنّ الثورة الحسينيّة تناول أهمّ قضية من القضايا المعاصرة للأمة الإسلامية، تتمثّل في تعرّض بنائها الفكريّ لهجمة قويّة في سياق المنظومة العالميّة الجديدة، تعضدها ثقافات (يزيديّة) معاصرة تدعو إلى الخنوع والركون إلى الظالم، ومفاهيم مقلوبة عن الكون والحياة والإنسان.

هذه هي المساحة التي حاولنا إشغالها وبيانها في هذه المقالة، على أنّنا لم نخرج عن سمت المتبنّيات الفكرية والعقائدية والتاريخية المودعة في كتب علمائنا الأعلام في كلّ عمليّة تحليليّة لأيّ حدثٍ من أحداث الثورة الحسينيّة. وقد أشرنا فيما تقدّم لبعض الدلالات الأخلاقية والروحية للنهضة الحسينيّة

وأسبابها ونتائجها، متضمنةً الكثير من المواقف النادرة والحقائق التاريخية، سواء تلك التي سبقت النهضة أو تزامنت معها؛ إذ لا ينفصل الحديث عن نهضة الإمام الحسين عليه السلام عن المنعطفات الخطيرة التي شهدها تاريخ الإسلام السياسي بعد وفاة الرسول '؛ لأنه ليس من المعقول أن تتجلى المبادئ والقيم الإسلامية في زمان الإمام الحسين عليه السلام دون أن تكون هناك علاقة وثيقة بين حجم تلك المؤامرة على الإسلام وبين تلك المنعطفات السياسية التي ألمت به من قبل، ولو كانت الفترة ما بين الرسول ' وسبطه مكرسة لتعميق الخطأ المحمدي في نفوس الأمة لما حصل هذا الانقلاب دون أن تنبس الأمة ببنت شفة، على أن هناك نقاط التقاء كثيرة بين أسباب نهضة الإمام الحسين عليه السلام والمنعطفات السياسية التي شهدها تاريخ الإسلام السياسي في حياة الرسول ' وبعد رحيله أيضاً.

في الوقت الذي نرى أن تلك الأحداث التي ألمت بها الأمة الإسلامية، لم تبعد أصحاب القرار الأموي الحاسم في التعايش نفاقاً مع الإسلام بعد فتح مكة عن السلطة، بل عملت على الضد من ذلك؛ إذ أتاحت لهم الفرصة السانحة إلى ما يتغون يوم تجاوزت النص، ولم تضع في حساباتها أيّاً من العلم، أو الاستقامة، أو العدل، أو السابقة، أو القرابة، أو الشورى ك شروط للخلافة، واكتفت بشرط واحد فقط وجعلته فوق كل اعتبار وهو أن لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد! وبهذا مهّدت الطريق لكل من وهب دّب للوصول إلى الخلافة، واستامها كل مفلس بما في ذلك الطلقاء.

فكانت تلك - الأحداث المرة - البوابة الطبيعية التي نفذ منها يزيد إلى الملك العضوض. وما كان الإمام الحسين عليه السلام ليقف مكتوف الأيدي أمام هذا التحدي الخطير الذي أطاح بكل ما تبقى من قيم الإسلام ومثله، وما كان عليه السلام ليستسلم أمام محاولة معاوية بجعل المنهج الأموي بديلاً عن الإسلام، ومن هنا

ولدت نهضة الحسين عليه السلام لتدين لها كلّ المواقع المشرقة في تاريخ الإسلام؛ لأنها هي التي صنعت بالدماء الزاكيات تاريخاً جديداً لها.

\* \* \*

## الهوامش:

- (١) ويقصد بذلك بطلان السلطة الحاكمة وقتلة الإمام الحسين عليه السلام، لا الدين الإسلامي، بدليل أنه أسلم وشهد بالشهادتين، كما تنص المرويات. انظر: القندوزي، ينباع المودة ٣: ٢٩، بتحقيق علي جمال أشرف الحسيني.
- (٢) ابن أعثم، الفتوح ٥: ٢٤٦.
- (٣) نقلاً عن حسن السعيد في مقاله: الإمام الحسين.. رؤية نصرانية، مجلة رسالة الحسين، العدد ٢، السنة ١، ١٤١٢ هـ. نقله عن مجلة الحوادث الصادرة بتاريخ ٥/٩/١٩٧٥.
- (٤) محدّثي، جواد، موسوعة عاشوراء: ص ٢٩٣، ط دار المحجة البيضاء.
- (٥) مجلة الحوادث الصادرة بتاريخ ٥/٩/١٩٧٥، ونقله حسن السعيد في مقاله: الإمام الحسين.. رؤية نصرانية، مجلة رسالة الحسين العدد ٢، السنة ١، ١٤١٢ هـ.
- (٦) نقلاً عن مقدّمة (ملحمة الشمس)، نقلها: محمد اليزدي في كتابه: الحسين بن علي.. نحو معرفة أفضل.
- (٧) المصدر السابق، مقدمة (ملحمة الشمس)، نقلاً عن مجلة نور العلم، العدد ١، السنة ٢، ص ٩٦.
- (٨) ابن الأثير، أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ ٤: ٣٩؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٠٢، تحقيق نخبة من العلماء؛ الأزدي، أبو مخنف، مقتل الحسين عليه السلام، ص ٨٢، تحقيق ميرزا حسن الغفاري.
- (٩) السماوي، محمّد، أبصار العين في أنصار الحسين: ص ١٥٩، تحقيق محمد جعفر الطوسي؛ مقتل الخوارزمي ٢: ٢٢.
- (١٠) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٥، تحقيق لجنة من الأساتذة.
- (١١) العقّاد، الحسين أبو الشهداء ٢: ٢٨٠، تحقيق محمد جاسم الساعدي، الناشر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، ط ١، ١٤٢٥ هـ.
- (١٢) ابن طاووس، اللّهُوف: ص ١٢٦، ط مؤسسة الأعلمي.

- (١٣) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٨.
- (١٤) القرشي، حياة الإمام الحسين: ص ١٢٤.
- (١٥) الخوارزمي، مقتل الحسين ٢: ٣٤.
- (١٦) البحراني، العوالم: ص ١٧٩؛ الأمين، محسن، لوايح الأشجان: ص ٣٠.
- (١٧) الطبري، تاريخ الطبري: ٤: ٢٥١.
- (١٨) المصدر نفسه ٤: ٢٨٨.
- (١٩) شرح ابن أبي الحديد ٣: ٣٣١.
- (٢٠) الأمالي: ص ٢٢٠، المجلس الثلاثون.
- (٢١) ابن عنة، عمدة الطالب: ص ٧.
- (٢٢) ابن قولويه، كامل الزيارات: ص ٣٢٨، مؤسسة النشر الإسلامي ط ١، ١٤١٧ هـ.
- (٢٣) الكليني، الكافي ٤: ٥٧٦، دار الكتب الإسلامية ط ٣، ١٣٦٧.
- (٢٤) ابن قولويه، كامل الزيارات: ص ٤٤١.
- (٢٥) الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ: ص ١١٧.
- (٢٦) ابن طاووس، اللهوف: ص ٣٨.
- (٢٧) الحر العاملي، وسائل الشيعة ٣: ٢٣.
- (٢٨) الطبري، تاريخ الطبري ٣: ٣٢٦.
- (٢٩) القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين ٣: ١٢٣.
- (٣٠) الكليني، أصول الكافي ٢: ٤٦٨، باب الدعاء سلاح المؤمن.
- (٣١) القمي، مفاتيح الجنان، ص ٣٥٤.
- (٣٢) الطوسي، مصباح المتعبد، ص ٥٧٢ طبع الأعلمي.
- (٣٣) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، ص ٣٣، دار الحديث ط ١ - ١٣٧٦ ش.
- (٣٤) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، ص ٢٨٩، تحقيق علي أكبر غفاري.
- (٣٥) موسوعة كلمات الإمام الحسين: ص ٤١٤.
- (٣٦) المقوم، مقتل الحسين: ص ٢٨٣، ط قم.
- (٣٧) ابن طاووس، اللهوف: ص ٧١.
- (٣٨) المقوم، مقتل الحسين: ص ٢٧٩.

# المرأة المسلمة والتحديات العالمية

من خلال بعض الاتفاقيات الدولية

□ الشيخ محمد علي التسخيري (\*)

تقديم

جعل الاسلام الأسرة لبنة المجتمع الإسلامي، وبنى الكثير من أحكامه على هذا الأساس. وإنّ الوضع الحالي للمرأة في مجتمعنا الإسلامي متأثر جداً ببعض العادات الغربية من جهة، والتقاليد الغربية على الإسلام من جهة أخرى. إنّ علينا أن ننظّم روابط أكثر انسجاماً بين الرجل والمرأة، بعيداً عن أيّ إفراط أو تفريط، كذلك علينا أن نصحّ نظرة الغرب للمرأة المسلمة من خلال التوعية الشاملة إعلامياً، ومن خلال إعطائها حقوقها المشروعة. وإلى جانب ذلك، فنحن نؤيّد التعامل مع اتفاقية (القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة) بإيجابية، ودونما انغلاق أو انجرار. كما ندعو - أيضاً - لتبادل التجارب بين الدول الإسلامية للوصول إلى حلول أفضل لوضع المرأة.

(\*) الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية/ إيران.

إننا نشهد اليوم حركة لا تهدأ، مؤتمرات وندوات علمية، ودراسات شاملة تُقام هنا وهناك. كل ذلك لمواجهة القرن الحادي والعشرين وتحدياته المتنوعة. الدول بمؤسساتها الكثيرة، والمنظمات الدولية، بل وحتى المؤسسات الخاصة، والمشاريع التجارية والإعلامية، منهمكة اليوم في مجال تقييم حالتها العشرينية، استعداداً للانطلاق إلى القرن التالي، وربما تجاوز الأمر الحالة القرنية ليصل إلى الحالة الألفية، فنحن ندخل في الألفية الثالثة، وإذا كانت الدول لا تُقيم مسيرتها بالتقييم الألفي؛ فإن الإنسانية - بلا شك - يجب أن تقيم مسيرتها الألفية حضارياً.

ومما يؤسف له أن البشرية ليست على مستوى التقييم الألفي، ولم تصدر أية دراسة تتحدث عن خصائص الألفية الثانية وحوادثها لتنتقل إلى تحديات الألفية الثالثة وكيفية مواجهتها. ولم تفكر الأمم المتحدة بهذا العمل وكأئها (أي: البشرية وأممها المتحدة) تجد نفسها عاجزة عن هذا العمل العظيم؛ نظراً لسرعة التحوّلات وتنوعها وانقلاب الموازين والمفاهيم.

فحتى النموّ الإنساني الذي استغرق انتقاله من المليار الأوّل إلى الثاني ١٢٣ سنة لم يستغرق انتقاله من الخامس إلى السادس سوى ١١ عاماً، ولم تعد الأرقام تكفي بحدّها المتعارف لتحسب مستوى التحوّلات المالية، فإنّ الأرقام - مثلاً - تتحدّث عن تبادل العملات الصعبة ومضارباتها بمستوى الألف وخمسمائة مليار دولار في اليوم، الأمر الذي يترك اقتصاديات الدول في مهبّ التلاعب الطامع، حتى ولو كانت من أمثال النمرور الآسيوية القويّة، وحتى التكنيك المتقدّم للحاسوب، والذي ينظّم سير الطائرات والصواريخ وحركة الصناعة والتجارة، أمكن التلاعب به عبر قدرة فيروسية تسحق كلّ قدراته وتلاعب بمقدراته.

ومن هنا، يقف العالم عاجزاً أمام تقييمه لألفيته الثانية، فضلاً عن قدرته على التخطيط لمواجهة الألفية الثالثة والدخول بخطى قوية حكيمة ونظرة واعية بعيدة.

والحقيقة التي تتجلى يوماً بعد يوم، هي عجز الإنسان وضعفه، مهما بلغ من القوة أمام خالقه العظيم الذي تتصاغر أمامه الألفيات حتى تعود أياماً. {وَلَا يَكُونُ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [الحج: ٤٧]، {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج: ٤]، ويعود عمر الإنسان كله ساعة من نهار: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ} [الأحقاف: ٣٥]، وهكذا يشعر الإنسان بحاجته إلى الرؤية الكونية التي تتجاوز أَلْفِيَّاتِ التاريخ.

ويحلّل القرآن التاريخ، مُرجعاً إياه إلى خطيّن: خطّ خلافة الإنسان: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} [الأنعام: ١٦٥]، وخطّ التدخل الربّاني لهداية الإنسان، وهو خطّ الشهادة: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣]، فالرسول هو الشهيد على الأمة الإسلامية، والأمة الإسلامية هي الشهيدة على مسيرة الحضارة الإنسانية نحو تحقيق مقتضيات الخلافة الإلهية.

والقرآن عندما يحلّل مصائب التاريخ يُرجعها - بدورها - إلى أمرين: الإلحاد، أو عدم الإيمان بأية قيمة، والشرك، وهو الإيمان بالآلهة الوهمية، التي تحوّلت من نسيبَات إلى مطلقات: {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ} [يوسف: ٤٠].

ويأتي دور الأنبياء ليحلّوا هاتين المشكلتين. يقول تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦]، لتنتفي



المشكلتان معاً. وهكذا، فإنّ علينا كمسلمين أن نعود إلى قرآننا العظيم إذا أردنا أن نقيّم المسيرة تقييماً يمكنه أن يستوعب التاريخ، وأن نستعدّ لمسيرةٍ يمكنها أن تستوعب الألفيات المقبلة.

وبعد هذا، فلنعد إلى التحديات التي تواجه المرأة المسلمة اليوم، ويمكن لنا أن نصنّفها على النحو التالي:

:

ودون حاجة إلى الاستدلال، نجد اليوم تخطيطاً عالمياً لمحو الدور العائلي للمرأة، من خلال المناداة بشعارات التحرير والتطوير، وضرورة تغيير تعريف العائلة ودورها الاجتماعي، وتغيير نوعيّة العلاقة بين المرأة والرجل في المحيط العائلي، إلى ما يتصوّرونه من المساواة في جميع الأحوال، وبالمقياس الماديّ الحسابي، دون أيّ لحاظ للاعتبارات الأخرى، وكأنّ المساواة هي القيمة العليا التي لا تتعارض معها أيّة قيمة أخرى.. وحتى عندما كنّا نقترح في بعض المؤتمرات الدوليّة أن نقيدها بالعدالة أو الإنصاف، كان المخطّطون يرفضون ذلك بكلّ إصرار، معتبرين ذلك ذريعةً لظلم المرأة باسم العدالة.

أمّا الحقيقة القرآنيّة فهي تؤكد ما يلي:

أولاً: إن البناء العائليّ بمفهومه المتداول بين الأديان والمجتمعات هو لبنة البناء الاجتماعيّ، ولا يمكن تصوّر قيام مجتمع إنسانيّ إلا عبر تصوّر اللبنة العائليّة، بها بدأت المسيرة الإنسانيّة وبها تستمرّ، وعلى أساسٍ منها وبافتراضها يأتي التشريع الاجتماعيّ ويقوم البناء التنظيمي، ويجب أن يحافظ المجتمع عليها وينمّيها ويسدّ كلّ سبل الإشباع الغريزيّ من خلالها: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا } [الفرقان: ٥٤]، { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا } [الروم: ٢١].

ثانياً: إنّ المرأة تشكّل حجر الزاوية في البناء العائليّ، وإنّ الجنّة تحت أقدام الأمّهات، وهي يجب أن تقوم بالدور العاطفيّ الكبير لتربية الأبناء، وتحويل البيت إلى جنّة لزوجها وأطفالها: جنّة الرحمة والسكينة والعفاف.

ثالثاً: إنّ المسؤوليّات توزّع بين أعضاء العائلة تبعاً لمقتضيات العدالة الإنسانيّة. والدور الإنسانيّ لكلّ عضو وفقاً لتصوّر وقيم مذهبيّة تنسجم مع مجمل النظريّة الاجتماعيّة الإسلاميّة. وهذه المسؤوليات هي تارةً اقتصاديّة، وأخرى تربويّة، وثالثة قياديّة. وعليه: فإنّ على المرأة المسلمة دائماً، وفي كلّ عصر، أن تستعيد القيم العائليّة، وتنميها وتفضّلها على أيّة قيم أخرى حتى توفّر أرضية التنمية الإنسانيّة المستدامة.

. :

ونظراً للتعريف الجامع للثقافة، والذي يعني التهذيب العلميّ والأخلاقيّ والفكريّ، وبملاحظة الطبيعة الأنثويّة لها والقدرة التي تمتلكها في المجال الإنسانيّ، باعتبارها إنساناً يستطيع أن يتكامل على خطّ الفطرة، ويملأ الجوّ الاجتماعيّ بالعاطفة الإيمانيّة والتقوى والعقّة، بل وينتقل بالإيمان العقليّ إلى الوجدان، بل الوجود الإنسانيّ كلّ، تحقيقاً لقوله تعالى: { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } [الحديد: ١٦]؛ فإنّ المرأة لها تأثيرها الكبير في المجال الثقافيّ.

هذا من جانب.

ومن جانبٍ آخر، تمتلك المرأة القدرة الأخرى التي يمكنها بها أن تخرج هي، وتُخرج المجتمع عن خطّ الفطرة إلى خطّ الفسق والانحراف والتمزّق.

ومن هنا عادت غرضاً لأعداء الأمّة والطامعين في سلبها شخصيّتها

وعليه: فإنَّ على المرأة المسلمة أن تُعَدَّ العِدَّةَ لتكاملها العلمي والفكري والأخلاقي، وبالتالي: التأثير على مجمل المسيرة الاجتماعية التأثير الإيجابي المطلوب، لتعود مثلاً يُحتذى به: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَاتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ} [التحریم: ١١].

ولأمرٍ ما، نجد القرآن الكريم يؤكد على تساوي الجنسين في عملية التكامل، وفي مواضع عديدة، إذ يقول تعالى: { أَلَيْسَ لَنَا أُضْيَعُ عَمَلٍ عَمِلْنَا مِنْكُمْ مَنْ ذَكَرِ أَوْ أَنْتَى } [آل عمران: ١٩٥]، { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ } [النساء: ١٢٤]، {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} [الحديد: ١٢]، {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِعِينَ وَالصَّانِعَاتِ وَالْحَفَظَةَ وَالْحَفَظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } [الأحزاب: ٣٥].

إنّ هذا الإصرار وهذا التكرار إنّما هو لتقرير حقيقة المساواة على طريق التكامل الإنسانيّ، ونفي أيّ تمايز إنسانيّ بين الرجل والمرأة، وتأكيد دورهما المشترك في عمليّة البناء. فالمرأة المسلمة مدعوّة لاتّخاذ دورها الثقافيّ المناسب وإثراء الفكر الإسلاميّ بكلّ ما يؤهّله لصنع أمّة صاعدة.

رغم القدرات التي تمتعت بها المرأة عبر التاريخ في المجالات السياسيّة والاقتصاديّة - وقد حدّثنا القرآن عن بعضٍ منها موضّحاً العبرة فيها - إلا أنّ المرأة ظلّت، وإلى عهدٍ قريب جدّاً، على المستوى العالميّ محرومةً من التمتع بحقوقها الإنسانيّة الاجتماعيّة بفعل ظروف خاصّة بها، بل ظلّت محرومةً حتى في ظلّ السيطرة الإسلاميّة - مع الأسف - رغم أنّ الإسلام منحها حقوقها الاقتصاديّة كاملةً، وأوكل اليها، كما أوكل إلى الرجل مسألة الولاية المتبادلة: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [التوبة: ٧١]، {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى: ٣٨].

وتحمّلت، إلى جانب أخيها الرجل، مسؤوليّة الخلافة الإنسانيّة منذ البدء، حيث آدم وحواء '، إلا أنّها بقيت بعيدةً عن القرار السياسيّ، بفعل بعض الموروّثات، وربما بعض الاستدلالات الناقصة، في رأيّنا. وإنّ عليها اليوم أن تستفيد من حقّها الطبيعي في المشاركة في البناء السياسيّ والاقتصاديّ للمجتمع، بما لا يتنافى مع وظائفها الاجتماعيّة الأخرى، ولا يخلّش جانب العقّة الاجتماعيّة.

إنّ الأُمّة الإسلاميّة اليوم محرومة من كثير من الطاقات النسائيّة التي تستطيع صنع المستقبل الرائع، وإنّ عليها أن تواجه تحدّي الإقصاء السياسيّ والاقتصاديّ وتدخل إلى الساحة والمعتك بكلّ قوّة ونشاط لتحمّل مسؤوليّاتها قبل أن تتّجه بروح استيفاء حقوقها المشروعة.

ما الذي يمنع المرأة المسلمة المفكّرة أن تساهم في صنع القرار السياسيّ، وما الذي يمنعها من صياغة السوق الاقتصاديّة ودفع عملية الإنتاج إلى الأمام؟ إنّ تاريخنا الإسلاميّ يزخر بالنساء اللّواتي صنعن التاريخ، وكفى المرأة فخراً أنّها ساهمت في توفير الجوّ الصالح لانطلاقة الرسالة من مكّة، ولولاها لما أمكن

لنبنة الإسلام أن تنمو وتترعرع.

إنّ القرآن ليحدثنا عن بلقيس ملكة سبأ، وحكمتها، وتشاورها، وقرارها الحكيم.

وقد كانت المرأة أيضاً الطليعة في صنع التغيير السياسيّ الكبير في إيران. فالمرأة المسلمة إذاً يجب أن تساهم في صنع البناء الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ للمجتمع إلى جنب أخيها الرجل وتحمل عبء الولاية المتبادلة لتحقيق هدف الخلافة الإنسانية.

المسؤوليّة الدوليّة ضرورة، وقد اهتمّ القرآن الكريم بقضية المظلومين والمستضعفين منذ انطلاقة الكبرى ووجه همّ المسلمين إلى الأرض، كلّ الأرض، حتى حينما كان المسلمون في أشدّ الضعف، واعتبر رسالته عالمية: {وَأَن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَزْلُقُونَكَ أَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [القلم: ٥١-٥٢]. إنه يخاطب الإنسان ويعتبره مسؤولاً عن الكيان البشريّ بعرضه العريض.

إلا أنّ تشكيل المؤسسات الدوليّة هو تشكيل حديث، وربما أملت ضرورة استعماريّة لحفظ توازن القوى، أو المتاجرة بالرأي العالمي، أو حتى لمنع المحرومين من الثورة، كما يبدو من العبارات التي تبرّر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان نفسه.

وما زلنا نشهد الدول الكبرى تستغلّ المحافل الدوليّة لتفرض إرادتها على الشعوب وتستمدّ منها مشروعيتها وتسوق فيها شعاراتها البرّاقة.

والذي يهمنّا من هذا الموضوع أنّها بدأت تستغلّ موضوع المرأة وحقوقها المغتصبة والظلم الواقع عليها لصالح فرض مفاهيمها التحليليّة ولا أخلاقيّاتها

المنحطة على كل الشعوب، وخصوصاً شعوب العالم الثالث، باعتبار ذلك تنفيذاً لقراراتٍ دوليةٍ تستفيد هي من قدرتها الاقتصادية ونفوذها العالمي لصياغتها وإقرارها، لتحقيق الكثير من أهدافها المعادية للإنسانية، من قبيل: تغيير تعريف العائلة، وفسح المجال لما يُسمى بالحرية الجنسية!، وتعميم ما يسمى بالحقوق الجنسية للشباب، وكذلك فتح باب التعليم الجنسي الإباحي وأمثال ذلك. والمرأة المسلمة هنا مدعوة عبر جهودها الشخصية أو جهودها المنظمة بشكل منظماتٍ غير حكومية أهلية أو إقليمية أو دولية مدعوة للوقوف بوجه هذا التحرك الهدام، بل واستغلاله للاتجاه الإيجابي، دفاعاً عن حقوق المرأة، وإعلاء شأنها، تحقيقاً للجو المناسب لنشاطاتها في صنع المسيرة الحضارية. فالمرأة المسلمة إذاً تحمل مسؤولية إنسانية في التصدي لمحاولات استغلالها وتحويل الجهود الدولية لصالح البناء الاجتماعي الإنساني الحضاري.

:

لا ريب أنّ عملية التنمية استأثرت من أنشطة الأمم المتحدة بالخط الوفير، وخصوصاً في السنوات الأخيرة، وعقدت لها مؤتمرات دولية على مختلف المستويات، كمؤتمر بخارست ١٩٧٤، ومؤتمر مكسيكو سيتي ١٩٨٤، ومؤتمر القاهرة ١٩٩٤، ومؤتمر كوبنهاجن عام ١٩٩٥، وغيرها من الاجتماعات الدولية، وخصوصاً تلك المنعقدة لدراسة حقوق المرأة بالخصوص، كمؤتمر نيروبي ومؤتمر بكين.

وكان التركيز على دور العائلة في عملية التنمية ملحوظاً تماماً في كل الاجتماعات الدولية. إلا أنّ الملاحظ في مختلف الوثائق المقترحة أنّها نُظمت تنظيمياً يبعدها عن المسيرة المتوازنة، ويُنسبها دور الدين في الحياة، ويتغافل أثر العناصر المعنوية في هذا الصدد. بل يُفسح المجال لاستغلالها سلعة وألعوبة

وتميع المجتمع بها وتفكيك الروابط العائليّة وفسح المجال لعمليات الإجهاض القاتلة.

وكانت وثيقة القاهرة المقترحة على مؤتمر السكّان والتنمية القنبلة الضخمة التي فجّرت الوضع. ورأى المخلصون التآمر الاستعماريّ الواضح على كلّ القيم والمقدّسات الإنسانيّة؛ لأنّها سعت إلى تفكيك الروابط العائليّة، وطرح مفاهيم متنوّعة للعائلة، وفسح المجال لعلاقات وروابط خارج الإطار العائليّ. وقد حضرت هذا المؤتمر على رأس الوفد الإسلاميّ الإيراني على أمل أن نترك أثراً إيجابياً على الوثيقة، وهذا ما حدث؛ إذ رغم عدم التنسيق بين مواقف الدول الإسلاميّة - التي قاطع بعضها المؤتمر - ورغم قوة الضغط الغربيّ المعادي للإسلام، فقد استطعنا تشكيل مجموعة إسلاميّة قويّة تعاونت مع المجموعة المسيحيّة الدينيّة، واستطاعت أن تغيّر عشرات المصطلحات والمواقف في الوثيقة من قبيل حذف مصطلحات «الحقّ الجنسيّ» و«العلاقات الأخرى غير علاقات الزواج»، وحذف عنصر الإلزام في الوثيقة، وكذلك تعديل المادّة التي تسمح بالإجهاض وغير ذلك.

وكنت قد أقيمت في الاجتماع الدوليّ خطاباً أكّدت فيه على الحقائق التالية: أولاً: إنّنا إذ نحاول تنظيم تحرّك السكّاني في إطار من التوسعة المطلوبة، علينا قبل كلّ شيء أن ننظر إلى الإنسان بكلّ أبعاده: الماديّة والمعنويّة، ليكون تخطيطنا منسجماً مع فطرته الإنسانيّة وموقعه من الكون.

وفي هذا الصدد، نعتقد أنّ هذه المشكلة الاجتماعيّة لا تكمن في عدم استجابة الإمكانيات الطبيعيّة لمعدّلات النموّ السكّاني، بل هي تنبع من عدم الاستثمار الجيّد لهذه الإمكانيات وأنماط الظلم في توزيعها، يقول القرآن الكريم بعد أن يذكر النعم الإلهيّة الكثيرة: ﴿وَوَاعظُكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّكُم لَأَنسَنَ لَظُلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ثانياً: إنّ ملاحظة الواقع الإنسانيّ عبر التاريخ، وما تقرّره الشرائع الإلهيّة في نظريّاتها الاجتماعيّة، تؤكّد أنّ الكيان العائليّ يشكّل حجر الزاوية في البناء الاجتماعيّ، وأنّ أيّ تحرّكٍ يُوْهن من استحكامه، أو يطرح بديلاً عنه، يشكّل ضربةً للمسيرة الإنسانيّة الأصيلة. ولكنّ هذا لا يعني مطلقاً أن لا نلجأ إلى تنظيم هذا الكيان بالأساليب المشروعة، فذلك جزء من تحكيمه وتوجيهه.

ثالثاً: إنّ للمرأة باعتبارها نصف المجتمع الإنسانيّ دورها الأساسيّ في صياغة البناء الاجتماعيّ والسياسيّ، ويجب - بكلّ تأكيد - أن تلعب دورها بكلّ ثقة، ودونما أيّ حطٍّ لكرامتها، أو امتهانٍ لقدراتها الإنسانيّة.

رابعاً: إنّ آيّة خطّة واقعيّة لإقامة تنمية مستقرّة لا يمكنها أن تتغافل دور القيم الأخلاقيّة والعقيدة الدينيّة في تحكيم أسس التنمية والإشباع المتوازن لمطلّبات الإنسان باعتباره محور الإعمار. فلا بدّ إذًا من التأكيد على هذه القيم، والعمل على دعمها ونفي كلّ ما ينافيها.

خامساً: إنّ مبدأ التساوي في إمكانيّة الاستفادة من الخيرات الطبيعيّة، وهي هبة الله تعالى، ليدعونا جميعاً للعمل على تحقيق تقارب كبير بين مستويات المعيشة، وعلى المستوى العالميّ. الأمر الذي يحمّل الدول الغنيّة عبئاً كبيراً لتحقيق هذا الهدف الكبير، بحيث لا يمكنها التنصّل عنه إن شاءت تحقيق الاندماج الإنسانيّ المطلوب.

سادساً: إنّ حقوق الإنسان كما تقرّرها الوثيقة العالميّة والوثائق الأخرى، كالوثيقة الإسلاميّة، تجب مراعاتها بشكلٍ دقيق. إلّا أنّ من الطبيعيّ التأكيد على أنّه لا يحقّ لأيّة دولة أو مجموعة أن تحمّل مفهومها عنها على الدول الأخرى، أو تحاول الاستهانة بالعناصر الثقافيّة والدينيّة التي يحملها الآخرون بذريعة فهمها هي، بل يجب الوصول إلى تعريفاتٍ مشتركة مقبولة يمكن من خلالها تشخيص الحقيقة دونما أيّ تحميل، ولتكون الوثائق معتمدة عن بصيرة ودقّة، فلا يمكن



استغلالها بسهولة.

أما مؤتمر بكين الرابع للمرأة، فرغم أنه كان يُعلن استهدافه لتمكين المرأة وإسهامها في عملية التنمية، رافعاً شعار «التساوى والتنمية والسلام»، فإنه أكمل رسالة مؤتمر القاهرة التخريبية، بل أجهز على ما قدّمناه هناك من إصلاحات، وراح من جديد يؤكد على ما يسمّيه بالحقوق الجنسية، وما هي في الواقع إلا محاولة تفكيك الروابط العائلية وحذف عنصر المرأة من عملية التنمية.

:

التأكيد على ضرورة الاعتناء بالنساء ولزوم سلامة الحمل في نفسه أمر سليم، ويجب الاعتناء به نظراً لأنه في كلّ عام:

- ٥٨٥ ألف امرأة تموت نتيجة عوارض الحمل.

- ٢٠٠ ألف امرأة تموت نتيجة عدم الاستفادة الصحيحة من موانع الحمل.

- ١٢٠ إلى ١٥٠ مليون امرأة لا تستطيع الحصول عليها إن أرادت.

- ٧٥ مليون امرأة تحمل حملاً غير مرغوب فيه.

- ومن كلّ ١٧٥ مليون امرأة حامل تُسقط ٤٥ مليون حملها.

- وهناك ٧٠ ألف امرأة تعاني من إسقاط غير مأمون للحمل وعدد غير

معلوم من عوارض الإسقاط.

- وتموت مليون امرأة نتيجة التهابات المجاري التناسلية.

- وهناك ٣٣٣ مليون حالة مرضية تنتج من الأمراض المعدية عن طريق

الاتصال الجنسي، كما أنه يوجد في الكثير من الأقطار حوالي ٦٠٪ من النساء

التي تحمل أمراض الاتصال الجنسي المعدية، وهي مستعدة للتعرض لمختلف

الأمراض.

- وفي سنة ١٩٩٦ ابتلي ٣ ملايين بفيروس الإيدز، وبلغ عدد المصابين ٤٠ مليوناً.

- وقد أُهملت ٦٠ مليون بنت في الإحصاءات نتيجة الترويج الجنسي للذكور على البنات.

- كما أنّ هناك مليوني بنت تُعرض كلّ عام في سوق الدعارة.  
- وتوجد ٦٠٠ مليون امرأة تعاني من الأمية، في حين يعاني ٣٢٠ مليون من الرجال منها.

- إلى غير ذلك من الإحصائيات الرهيبة التي نقلناها عن الباحث الدكتور ملك أفضلي<sup>(١)</sup>، ممّا يتطلّب بذل رعاية خاصّة للأمر.

والواقع، أنّ تأمين هذا الجانب يعني مراعاة حقّ الحياة الذي يؤكّد عليه الإسلام كثيراً، ومن هنا، نعتبر ما جاء في وثيقة القاهرة: «إنّ تقوية العدالة الجنسية، واقتدار النساء، وحذف أنماط العنف في حقّهنّ، وتمتّعهن بحقّ تنظيم حملهنّ من الأسس المبدئية لتنظيم السكّان والتنمية»، نعتبر ذلك أمراً صحيحاً وإيجابياً تماماً.

ومن هنا، فقد حاولت الجمهورية الإسلامية تنفيذ الجوانب الإيجابية فيه، بالإضافة إلى أنّها كانت قد خطّطت من قبل لتمكين المرأة من استرجاع حقوقها الطبيعية والمساهمة الفعّالة في عملية البناء الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وغير ذلك.

ومن البرامج التي نفّذتها في مجال تحسين حالة العائلة وصحة النساء والأطفال:

١. الاهتمام الصحيّ بأمور الولادة، وتنفيذ برامج صحيّة متنوّعة، فهبطت نسبة الوفيات من المواليد في السنة من ٩٠ بالألف عام ١٩٧٨ إلى ٢٨ بالألف.
٢. تنفيذ برامج اجتماعية غير إجبارية لتنظيم النسل، لتحوّل نسبة النمو في

السكان من ٢ / ٣٪ إلى ٤ / ١٪ خلال مدة عشر سنين.

٣. إدغام خدمات تنظيم العائلة في نظام المراقبة الصحيّة للبلاد.

٤. تشجيع الشعب للإقبال على محو الأميّة، والتعلّم، ليصل الأمر إلى تمتّع ٧٠٪ من النساء في سنّ الخامسة عشر فما بعد، بنعمة القراءة والكتابة.

هذا، وقد أدّى تنفيذ هذا البرنامج إلى منح الجمهورية الإسلاميّة الإيرانية جائزة عام ١٩٩٨ لتنظيم السكان من قبل الأمم المتّحدة<sup>(١)</sup>.

هذا بالإضافة لبرامج تمكين المرأة من الحضور في مختلف الصعد: الإعلاميّة والسياسيّة والاجتماعيّة والبرلمانيّة والاجتماعيّة والمدنيّة وغير ذلك.

:

وقد خَطَّت البشريّة خطواتٍ واسعة على طريق إيجاد تشكيلات دوليّة شاملة تعمل على حلّ مشاكلها، وتحقيق تفاهم ممكن بين أعضائها، وتحاول الوصول إلى طروحات عالميّة تترك آثارها الإيجابية على المستوى العالميّ.

ولقد تمّ إنشاء الأمم المتّحدة كأوسع منظّمة دوليّة، بما لها من منظّات فرعيّة في مختلف المجالات: الثقافيّة، والاقتصاديّة، والصحيّة، والتجاريّة وغيرها. كما تمّ إنشاء حركة عدم الانحياز في مجالٍ أضيّق، ومنظّمة المؤتمر الإسلاميّ في إطار العالم الإسلاميّ. وهناك منظّات وتجمّعات دوليّة كبرى أخرى لها أثرها الكبير في المسيرة.

إلا أنّ أكثر المنظّات الدوليّة ما زالت مبتلاةً بنقاط كبرى تمنعها من تحقيق أهدافها الإنسانيّة، ويمكننا أن نشير إلى بعضها فيما يلي:

١. إنّ قرارات هذه المنظّات إنّما تحقّق - في أحسن الحالات - مصالح الحكومات وتوجّهاتها، ولا ضمانة فيها لتحقيق أهداف الجماهير. على أنّها في الواقع إنّما تحقّق مصالح القوى المتحكّمة في هذه المنظّات، إن لم نقل إنّها إنّما

تحقق مصالح القطب الواحد المتحكم اليوم فيها.

٢. إن واقع الحال المشاهد في هذه المنظّمات يقضي بأنّها في كثيرٍ من الأحيان تقع تحت تأثير اتجاهات معادية للإنسانية، كالاتجاهات الصهيونية والاتجاهات الماديّة الإلحادية وغيرها، الأمر الذي يعود بأعظم الخسائر على المسيرة الإنسانية. ٣. كما أنّ التأمل في قراراتها يكشف لنا أحياناً عن قيام هذه المنظّمات بإشباعٍ كاذبة لتطلّعات الجماهير، دون أن يكون وراء الشعارات المرفوعة واقع مؤثر، وذلك كما في قرارات حقوق الإنسان، ومحاربة العنصرية، والدفاع عن حقوق المرأة، وتنظيم عملية التنمية الاجتماعية وغيرها. في حين أنّنا نجدّها في هذا المجال تكيل بمكايل متعدّدة، حسبما تقتضيه المصالح الضيقة. على أنّ القرارات الحقيقيّة تبقى حبراً على ورق ما لم تتفق مع مصالح القوى الكبرى. وغير ذلك من النقائص المشهودة.

ومن هناك، فإنّنا نجد مجاًلاً واسعاً لقيام المنظّمات غير الحكومية بالاشتراك في الاجتماعات الدوليّة والسعي للضغط على الجهات الرسميّة لتتخذ القرارات الأكثر انسجاماً مع الأهداف المطلوبة. إنّ مشاركة هذه المنظّمات يمكنها أن تترك أثراً إيجابيّةً من جهاتٍ عديدة من قبيل ما يلي:

١- لما كانت هذه المنظّمات الشعبيّة أقرب إلى واقع المشكلات الاجتماعيّة، فإنّها أكثر تفهّماً للحلول المطلوبة جماهيرياً. وهي - بالتالي - تستطيع أن تقرّب القرارات من هذه الأهداف. وتستطيع أن تصل إلى كافّة شرائح المجتمع المدني وطبقاته.

٢- ولما كانت هذه المنظّمات غير الحكوميّة حرّة في تحليلاتها، وغير مقيدة بالقيود الرسميّة، فإنّها تستطيع أن تصل إلى الحلّ الواقعيّ، وتطرح ذلك بقوة أمام المحافل الدوليّة.

٣- على أنّ حضور هذه المنظّمات يشكّل تواصلاً جماهيرياً جيّداً قد يشكّل

رأيًا عامًا دوليًا لا تستطيع معه الجهات الرسمية إلا الاستجابة لمقتضيات هذا الرأي العام، مما يمنحها روحاً جماهيرية وإقداماً على خطوات أكثر واقعية في مجال تحقيق العدالة الاجتماعية، والتوزيع العادل، واحترام البيئة.

٤- وتساهم هذه المنظمات في تنظيم العلاقة بين التنمية والدولة؛ إذ توحد الطاقات وتكمل النشاطات الخيرية والصحية والترفيهية والمهنية وغيرها، فهي - إذاً - أبنية اجتماعية وسطية<sup>(١)</sup>.

٥- وتؤمن أيضاً بيئة منظمة للعمل الإنساني غير الربحي والتطوعي، وبكلفة قليلة.

٦- وتتنامى مع مثيلاتها في مختلف الدول لتشكّل تياراً عالمياً يطرح مختلف القضايا.

على ضوء ما تقدّم، يمكن أن نقرّر الحقائق التالية:

(١) إنّ عملية التنمية الاجتماعية هي عملية إنسانية لا تحدّها حدود جنسية أو جغرافية أو مادية، وإنّ المرأة في التصرّو الإسلامي - عنصر أساسي في هذه المسيرة - وبدونها سوف تبقى العملية بتراء غير فاعلة.

(٢) إنّ العالم أدرك بشكل متأخر هذه الحقيقة، في حين سبقه الإسلام إليها بأكثر من عشرة قرون، حينما جعل المرأة عدل الرجل في عملية «الولاية الاجتماعية» ومنحها كلّ ما يحقّق لها مشاركتها في القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

(٣) إنّ للحكومات والجهات الرسمية دورها الكبير في تحقيق هذه الأنماط من المشاركة، ولكنّ ذلك لن يحقّق النتيجة المطلوبة ما لم تقم المنظمات الشعبية باحتلال مركزها في دفع هذه العملية إلى الأمام.

(٤) إنَّ منظَّمة المؤتمر الإسلاميّ لم تحقّق الأمل المطلوب منها في الانسجام مع النظرة الإسلاميّة للمرأة، ولم تُعْطِها الدور الأساس المطلوب، فبقيت مع الأسف متخلّفة عن الطبيعة الإسلاميّة الرائدة، وإنَّ عليها اليوم أن تسابق الزمن في تأمين هذا الانسجام.

والحقيقة، أنَّ القرار الصادر عن مؤتمر القمة الثامن المنعقد بطهران يشكّل سابقة جيّدة في هذا المجال، إلّا أنّني أعتقد أنّه يبقى متخلّفاً عن مسيرة التطوّر المطروح دوليّاً في هذا المجال.

وهنا أقول: إنّنا يجب أن لا ننسى التحدّيات التي تواجهنا - في مطلع القرن الحادي والعشرين - على الصعيد السياسيّ أو الاقتصاديّ أو الاجتماعيّ، تحدّيات العولمة، تحدّيات الهيمنة الثقافيّة، تحدّيات القرية الصغيرة إعلاميّاً، وتحدّيات الشعارات البرّاقة التي يتسرّ خلفها أعداء العلاقات الإنسانيّة السليمة، وصولاً حتى إلى قوانيننا الفرعيّة لتطويرها وفق مقاصدهم.

ولذا، فيجب الإبداع في كلّ الحقول، وأذكر - مثلاً -: الحقل الرياضيّ، فلا يمكننا أن ندع المرأة كسولة بدينة مريضة، وإنّما يجب ابتكار الأساليب السليمة المتّسمة بالعفة والخلق الإسلاميّ الرفيع لتقديم البديل المطلوب عن الأساليب المعروفة عالميّاً، والمنافية لكلّ قيمنا وأعرافنا، إنّهُ مثّل واحد على ضرورة التطوير والتغيير في مختلف الحقول.

وكذلك الحقل السياسيّ، فلا مجال لتناسي دور المرأة الفعّال في صياغة القرار السياسيّ، وهذا ما تفتقده بعض مناطقنا الإسلاميّة، بل نجد بعض الفئات المتحرّجة تفرض على المرأة أن تكون حبيسة بيتها، بعيدة عن التعليم، فضلاً عن المشاركة في الحياة الاقتصاديّة، وذلك طبقاً لاجتهادات قشريّة غريبة على الروح الإسلاميّة، ونصوص غير ثابتة.

وهذا العمل، فضلاً عن تشويهه للصورة الإسلاميّة، يكبّل مسيرة الأمة نحو

مواجهة التحدي الذي أشرنا اليه. إننا نشعر - بكل تأكيد - بالحاجة، لا لكتابة استراتيجيتنا الثقافية في مختلف الحقول، ولا للموافقة على لائحة رسمية لحقوق الإنسان في التصور الإسلامي، ولا حتى لاستراتيجية إعلامية أو اجتماعية لعالمنا الإسلامي؛ فإنها جميعاً قد دُوت بعد تداول طويل، بل تكاد تكون واضحة في خلد كل من له معرفة بالتوجهات الإسلامية، وإننا نشعر بالحاجة للعمل المنظم والمتكامل - على صعيد العالم الإسلامي - بهذه الاستراتيجيات المتفق عليها، سواء في مؤتمرات إسلامية دولية، كمؤتمر القمة السادس بدار (السنغال)، أو مؤتمر وزراء الخارجية الثامن عشر بالقاهرة أو غيرها. ومما يؤسف له أن أعلن أن العالم الإسلامي على مستوى منظمة المؤتمر الإسلامي لم يتفق بعد على الصيغة العملية للتنفيذ، رغم وجود صور تنفيذ هنا أو هناك.

وأؤكد على أن هذه الأمة الإسلامية لها خصائص معينة تحدّد لها هويتها وترسم لها معالمها القرآنية، ومنها: الخصيصة الإلهية والانتساب في العقيدة والتشريع إلى الله تعالى، كما أن منها الخصيصة الأخلاقية الإنسانية التي تتحلّى من خلالها بكل السمات الأخلاقية الإسلامية، وتتخلص من كل أنماط الفساد والصور اللاأخلاقية، والتي تلعب الغرائز الجنسية دورها فيها لتشويه الصورة الصحيحة، فلا يمكن لهذه الأمة أن تفتخر بانتسابها للإسلام إلا إذا طبقت الصورة الإسلامية السامية، وأقامت علاقاتها على أساس من معايير الإسلام، وحصّنت جماهيرها بالوعي المطلوب، بل أوجدت فيها - بما فيها العنصر النسائي ذو النسبة الكبيرة - الدوافع الكبرى لمواجهة التحدي المذكور.

إن الصحوّة الإسلامية هي قدرنا، وإلا، أدركتنا التحديات وقضت على خصائصنا. وهنا يبرز دور العلماء، رجالاً ونساءً، ليقوموا بدور ورثة الأنبياء. وإننا نوّكد - من جديد - على أننا مضطرون للاعتراف أولاً بأن المرأة المسلمة

لا تملك اليوم، وعلى صعيد الواقع العملي دورها المطلوب في عملية التنمية الاجتماعية، فنحن بحاجة بعد هذا إلى خطة تنموية شاملة تعتمد الأسس التالية: أولاً: تعميم التوعية بين المسلمين رجالاً ونساءً بحقوق المرأة ودورها في عملية التنمية الضرورية.

ثانياً: توفير المساواة المنصفة والمعقولة بين الرجل والمرأة في الفرص التنموية، كفرص العمل، والتخطيط، والإدارة، وترشيد الثروة، وتحقيق المشاركة السياسية والإدارية، والثقافية وأمثال ذلك.

ثالثاً: التركيز على العملية التعليمية والارتقاء العملي بين النساء.

رابعاً: إيجاد المنظمات النسوية غير الحكومية ودعمها بقوة.

خامساً: حل مشكلة الهجرة الداخلية والخارجية بالقضاء على أسبابها، واستيعاب آثارها؛ لأن أكثر المهاجرين نتيجة العوامل المختلفة هم من النساء.

سادساً: توفير الحلول الناجعة للمشكلات الاجتماعية التي تعاني منها المرأة، والعمل على تغيير النظرة الاجتماعية للمرأة العاملة.

سابعاً: العمل على تقوية بنية المرأة صحياً، وتخليصها من حالات الضعف والأوبئة وتشجيع التربية البدنية والرياضية المناسبة بعيداً عن الاستغلال والتحلل.

:

تُعدّ هذه الاتفاقية التي وافقت عليها الأمم المتحدة في ٣ سبتمبر ١٩٧٩ من أكثر الاتفاقيات الدولية إثارة للجدل. وربما اعتبرت تنويعاً للحركة الفيمينية التي انطلقت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في الغرب لغرض استرجاع المرأة حقوقها.

والحقيقة: أنّ الإنسان الغربي منذ بدء عصر ما يُسمّى بالنهضة (بين منتصف



القرن ١٧ وحتى القرن ١٨) ورواج الروح العلميّة والعقليّة، سعى للابتعاد عن الدين، وكان للاتّجاهات الحسيّة للفلاسفة من أمثال: فرنسيس بكن، وتوماس هوبز، وجون لوك، وديفيد هيوم، وجورج باركلي، والاتّجاهات العقلية لأمثال: رينيه دكارت، وإسبينوزا، ونييتس، كان لها دورها في ذلك.

وقد ركّز هذان الاتّجاهان: الحسيّ (أمپريسم) والعقليّ (راسيوناليسم) على محوريتين الإنسان (الأومانية)، ورفض الفكرة الإلهية فأمعن الإنسان الغربيّ في تمجيد نفسه. ولما كان قد امتلك زمام القدرة الصناعيّة فقد راح - بالتدريج - يعتبر نفسه سيّد الكون، وبدأ يصدر ثقافته إلى الأرض كلّها كي يسيطر عليها باعتبار ذلك مصدر السعادة للبشريّة، وتطوّرت الشعارات حتى طرحت أخيراً فكرة «النظام العالمي الجديد» و«القرية العالميّة»، وتمّ العمل على تأسيس المنظّمات الدوليّة وسنّ «القوانين الشموليّة» في مختلف الأبعاد. وأوكلت بعض المهامّ إلى هذه المنظّمات لتحقيقها، مع الاحتفاظ بصمّام الأمان الغربيّ فيها. وقد أعطيت صفة المشروعية الدوليّة لتستطيع التدخل في مختلف الشؤون، ومنها: الشؤون الاجتماعيّة.

ويمكننا أن نعتبر هذه الاتّفاقيّة نموذجاً صارخاً لعمليّة فرض الهيمنة الثقافيّة الغربيّة على الثقافات الأخرى، وإن كنّا لا ننكر إيجابياتها.

:

تتكوّن الاتّفاقيّة من تمهيد مفصّل نسبياً يتحدّث عن إيمان ميثاق الأمم المتّحدة بحقوق الإنسان الأساسيّة، ومنها المساواة في المنزل والقيمة بين الرجل والمرأة، وعن أنّ الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان يرفض التمييز بينهما، ويعلن قلقه لاستمرار التمييز ممّا يمنع من إمكان إسهام المرأة في عمليّة التنمية في مختلف المجالات، كما يمنع من تحقيق سعادة المجتمع والعائلة، وكذلك القلق

من أنّ المرأة في ظروف الفقر لا تحصل على المستوى الأدنى من الغذاء والصحة، والعلاج، والتعليم، وفرص العمل، وباقي الحاجات. ويؤكد أنّ إقامة النظام العالمي الاقتصادي الجديد القائم على العدل والإنصاف يقوم بدور مهم في تحقيق المساواة بينهما، وأنّ ذلك يعتمد على محور التمييز (الأپارتايد)، والاستعمار بأشكاله، والعنف، والاحتلال، والتدخل في الشؤون الداخلية، كما يؤكد على أنّ تحكيم السلام العالمي، ومنع التوتر، والتعاون المتبادل بين الأقطار بغض النظر على نظمها، ونزع السلاح العام والكامل، وخصوصاً السلاح النووي، يساهم في تحقيق الهدف، ويشير إلى الدور الأساسي للمرأة في تحقيق الرفاه والتنمية الاجتماعية التي لم تُعرف أبعادها بعد، وأهمية الأمومة ودور الوالدين في العائلة وتربية الأطفال وتقسيم المسؤوليات.

وبعد هذا التمهيد تأتي ثلاثون مادة في ستة فصول مؤكدة - في الإجمال - على ما يلي:

١. تعريف التمييز بأنه يعني حذف أية تفرقة على أساس الجنس.
٢. إدانة كلّ الدول للتمييز بكل أشكاله، وإدخال ذلك في دساتيرها وقوانينها الفرعية، والعقاب عليها، وحماية حقوق النساء في قبال التمييز، والامتناع عن أي عمل تمييزي وأمثال ذلك.
٣. تعهد الدول بتمتع النساء بحقوق الإنسان كلّها.
٤. إصلاح الأنماط الاجتماعية لسلوك الجنسين، والتي تبتني على أفضلية أحدهما على الآخر، والثقة بتعليم عائلي سليم يفهم دور الأمومة كواجب اجتماعي ومعرفة المسؤولية الاجتماعية المشتركة في تربية الأطفال وتحقيق مصالحهم.
٥. إسهام المرأة في الحياة السياسية والحكومية، كالانتخابات والاستفتاءات والتعيينات وتدوين السياسات والمشاركة في المؤسسات الاجتماعية والنشاطات

الدولية.

٦. منحها حق المواطنة وتغيير الجنسية، واختيار الزوج، وكذلك الأمر بالنسبة للأبناء.

٧. منحها حقوق مساوية للرجال في مجال التعليم في كل مستوياته وتشجيع التعليم المختلط والاستفادة المتساوية من المنح والبرامج التكميلية والتربية البدنية وغير ذلك.

٨. منحها فرص العمل المتساوية بكل أنواعها.

٩. منحها فرص التمتع بالحماية الطبية وخصوصاً في دورات الحمل والولادة والإرضاع وما بعدها.

١٠. منحها حقوقها المتساوية في سائر الأمور الاجتماعية، كالاستفادة من حقوق العيولة والقروض الاجتماعية والنشاطات الترفيهية والرياضية والثقافية.

١١. التركيز على المرأة الريفية ومشكلاتها وحلّها.

١٢. منحها حقوقها العائلية في عقد الزواج، واختيار الزوج، والطلاق، وعدد الأولاد، والقيمومة، والحضانة، والتبني، واختيار الاسم العائلي، والتخصّص، والعمل، والملكية، والكسب، والإدارة، ومنع زواج الأطفال.

١٣. تشكيل لجنة لتنفيذ الاتفاقية.

١٤. كل تحفظ لا ينسجم مع أهداف الاتفاقية وموضوعها مرفوض.

وقد تراوحت الدراسات التي أُجريت على الاتفاقية في هذا المجال بين مضيق وموسع تبعاً لإطلاقات الألفاظ وملاحظة ملازماتها وتفسيراتها. وبالتالي، تراوحت المواقف من الانضمام إليها بين مجموع الدول الإسلامية، بل

وغير الإسلامية. فكانت المواقف الثلاثة التالية أهم ما طرح في البين:

الأول: عدم الانضمام للاتفاقيات وعدم المشاركة في محافلها الدولية مطلقاً.

الثاني: الانضمام إليها بدون تحفظ.

الثالث: الانضمام إليها مع التحفظ على ما يخالف الإسلام منها، والسعي لتغييرها بما يناسب الرؤية الإسلامية.

وقد اتهمت النظرية الأولى بالانزوائية وعدم الاستفادة من الإيجابيات والوقوف بوجه العرف العالمي، مع انضمام الأكثرية الساحقة من الدول للاتفاقيات، فلم يبقَ إلا بضع دول مترددة. واتهمت الثانية - بحق - بالانجرار الفظيع لتحقيق الأهداف المنحرفة. واتهمت الثالثة بأنها تخادع نفسها، وأنها لا تستطيع أن تحقق ما تريد في وسط هذا الحشد الدولي، وإن الاتفاقية نفسها ترفض التحفظات المنافية لروحها. ومن هنا، فعلينا تبين الموقف بروح موضوعية مبدئية، وهنا نقول:

إن موارد التعارض المتصورة تُلخّص فيما يلي:

(١) المادة ١ والمادة ١٥ تتعارضان مع أحكام الحجاب الإسلامي.

(٢) المادة العاشرة تتعارض مع أحكام حرمة النظر لغير المحارم.

(٣) المادّتان ١ و ١٥ تتعارضان مع أحكام الشهادة وأحكام الدية وإذن الأب في الزواج والعقوبات الإسلامية وأحكام الإرث، وإقامة الزوجة، والولاية.

(٤) المادّتان ١ و ١٦ تتعارضان مع أحكام اختلاف الابن والبنت من حيث سنّ البلوغ، زواج المسلمة بغير المسلم، وإذن الأب.

(٥) المادة ١٦ تتنافى مع أحكام حرمة الزواج بالمحارم، وأخت الزوجة، وحرمة العقد حال الإحرام، وبعض أحكام الزنا، والطلاق، وواجبات الزوجة، وتعدّد الزواج، وعيوب الفسخ، والعدّة، والحضانة والإجهاض وأمثال ذلك.

ونعود فنكرّر أنّ بعض التعارض ناتج من عمومات الألفاظ وإطلاقاتها، ونحن قد نختلف مع بعض ما ذكر من تعارض، إلا أنّ الحقيقة التي لا مرأى فيها: أنّ هناك تنافياً بين أصل الفكرة وإطلاقات بعض المواد، بل وبعض نصوصها مع أحكام الشريعة بلا ريب. ولكننا لا نستطيع أن ننكر الأفكار الإيجابية التي تحملها، والتي ستعود بالنتائج الإيجابية - بلا ريب أيضاً - على وضع المرأة في عالمنا الإسلاميّ.

:

إنّنا نعتقد - على ضوء ما تقدّم - أنّ الموقف الثالث هو الأقرب للصواب، وإن كنّا في الجمهوريّة الإسلاميّة لم نقرّر ذلك بعد. وهناك معارضة واسعة من قبل العلماء والجمعيات النسويّة وغيرها لهذه الاتّفاقيّة. فنحن نرجّح الانضمام النشط الإيجابي للاتّفاقيّة، ولكن بتحفّظ يشمل ما يلي:

أولاً: المادّة الأولى يُتحفّظ عليها بالنقاط التالية:

أ. بملاحظة وجود الاختلاف الطبيعيّ بين الرجل والمرأة، ممّا يؤديّ - بشكلٍ طبيعيّ - للاختلاف في المسؤوليّات الاجتماعيّة؛ فإنّ وجود التفاوت المناسب مع ذلك لا يُعدّ من التفرقة المرفوضة.

ب. حينما نحاول أن ندرس الحقوق في أيّ نظام، فإنّ علينا أن نلاحظ التناسب العامّ بينها وبين الواجبات في إطار النظريّة الاجتماعيّة لذلك النظام.

د. يجب تعميم النقطتين السابقتين لكلّ موادّ الاتّفاقيّة.

ثانياً: المادّة السابعة (البند ب): لا نرى ضرورة الالتزام بموضوع صدور الحكم القضائيّ من قبل المرأة، وإن كان لها الحقّ في العمل في الشؤون القضائيّة الأخرى.

ثالثاً: المادة التاسعة: يُتَحَفَّظُ عليها لمخالفتها للقوانين الداخليّة.  
رابعاً: المادّتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة: يُتَحَفَّظُ عليهما بالتفصيل.  
خامساً: المادة ٢٩: يُتَحَفَّظُ على البند رقم (أ) منها وترتبط بالتحكيم.

\* \* \*

الهوامش:

(١) انظر: الدكتور ملك أفصلي، الصّحة العائليّة / ١٤، السنة ٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) غسان منير، أكرم أحمد، العولمة والدولة: ص ١٩٦.

## الحالة الحضارية والثقافية

□ الدكتور: محمد علي آذرشب (\*)

المقدمة

الإسلام هو «الحياة»: { يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال: ٢٤]، والحياة هنا هي حركة الإنسان على طريق تكامله لإنتاج حضارة. ومن هنا نرى الارتباط الوثيق بين الحياة والحضارة. الجسم الحي مترابط عضويًا، إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمى، وإذا فقد الحياة فقد أيضاً هذا الارتباط العضوي، ولو أخذنا معادلة ارتباط الحضارة بالحياة لأمكننا القول: إن المجتمع المتحضر مترابط عضويًا، رغم ما بين أعضائه من اختلاف، وهذه هي الحالة المذهبية، وأمّا المجتمع المتخلف حضاريًا فهو مفكك ومجزأ، وهذه هي الحالة الطائفية. إنَّ التخلف الحضاري هو أكبر ظاهرة تهيمن على حياتنا الإسلامية المعاصرة؛ فإنَّ كلَّ ما نشهده اليوم من مظاهر سلبية يعود إلى هذه الظاهرة، وإنَّ كثيراً من المعالجات لمشاكلنا تذهب هدرًا بسبب عدم إعادتها إلى جذورها الحضارية.

(\*) أستاذ بجامعة طهران.

والمقصود من التخلّف الحضاريّ هو ابتعاد الأُمّة عن المساهمة في دفع المسيرة البشريّة على طريق التطوير والإبداع والإثراء في مجالات الحياة الإنسانيّة. لقد كانت الأُمّة الإسلاميّة رائدة في هذا المجال خلال قرون ازدهارها الحضاريّ، واستطاعت أن تطوي طريق الازدهار هذا بسرعة مذهلة بعد ممارساتها للتجربة الإسلاميّة، ثمّ تضافرت عوامل عديدة أدّت إلى اتّجاه منحنيها الحضاريّ نحو الهبوط منذ القرن السابع، وسقطت حضاريّاً بعد عصر الاستعمار، حتى لم يعد لها اليوم مكانة تُذكر في هذا المضمار. ولغرض أن نبيّن ارتباط التخلّف الحضاريّ بالطائفيّة في عالمنا الإسلاميّ نلقي الضوء أولاً على بعض الآراء التي حلّلت هذا التخلّف وبيّنت خلفيّاته وعامله الأساس، ثم نبيّن إفرازاته، وبخاصّة فيما يرتبط بالحالة الطائفيّة.

من الطبيعيّ أن تشغل هذه المسألة ذهن كلّ المصلحين والإحيائيّين المسلمين، وأن تكون في صدر اهتماماتهم الفكرية والعملية. لذلك نراهم تناولوها من وجهات نظر مختلفة، وبيّنوا فيها آراءهم، لكنني، وفي حدود اطلاعي، لم أجد في ذلك دراسة مستوعبة قائمة على أساس منظومة فكرية متكاملة تطرح هذه المسألة وتبيّن عواملها وسبل تجاوزها، وإنّما نرى أفكاراً في هذا المجال تحتاج إلى بذل جهدٍ علميٍّ وفكريٍّ لوضعها في منظومة منسجمة متكاملة موجهة.

كما أنّني - وفي حدود اطلاعي أيضاً - لم أجد أقسام دراسات الحضارة الإسلاميّة في الجامعات تتناول هذه المسألة، بل الاهتمام ينصبّ على دراسة تاريخ الحضارة الإسلاميّة في عصور إنتاجها وحركتها، أمّا في واقعها ومستقبلها فقلّ أن نرى تناولاً لها.



أذكر هنا بعض آراء الإحيائيين المتأخرين ممن حملوا همّ التخلف الحضاريّ في أمّتنا.

من أوائل الذين حرّكوا موجة الإحياء في القرن التاسع عشر: السيّد جمال الدين الأسد آبادي المعروف بـ «الأفغاني» (١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م - ١٣١٤هـ / ١٨٩٧م).

هذا الرجل رأى المشكلة كامنةً في السلطة السياسيّة المهيمنة على العالم الإسلاميّ، سواء كانت قاجاريّة أم عثمانيّة أم خديويّة، ورأى أنّ هذه السلطة المستبدّة هي سبب كلّ فساد في المجتمعات المسلمة.

وقد أقام مشروعه على ثلاثة محاور:

١. يقظة الشرق.

٢. العودة إلى الإسلام.

٣. وحدة المسلمين<sup>(١)</sup>.

ويعود سرّ نجاحه في رأينا إلى:

أ. انفتاحه على الآخر المسلم والغربيّ، فقد تجاوز التقسيمات العرقيّة والإقليميّة والطائفية بين المسلمين، وأصبح ينتمي إلى كلّ الأمة الإسلاميّة، كما أنّه انفتح على الحضارة الغربيّة، ودعا إلى الأخذ بإيجابيّاتها.

ب. الجمع بين الأصالة والمعاصرة ممّا أعاد الأمل إلى النفوس المهزوزة بإمكان عودة الإسلام إلى الحياة، بلغة العصر، وعلى مستوى متطلّبات العصر، وإمكان الإصلاح والنهضة من منطلق إسلاميّ، لا غربيّ<sup>(٢)</sup>.

ومن طلائع النهضة عبد الرحمن الكواكبي (١٢٧١هـ / ١٨٥٥م - ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م)، وهذا الرجل - أيضاً - مثل السيّد جمال الدين، جمع بين الأصل الفارسيّ أو التركيّ (من الأسرة الصفويّة الإيرانيّة) والمحتد العربيّ (حلب سوريا)، وامتاز بعمق التفكير وبالثورة على الواقع. وذهب إلى أنّ

مشكلة الأمة تكمن فيما سبّاه «الفتور»، وهذا الفتور ناشئ عن فقدان الحرّية<sup>(١)</sup>. وبالمناسبة، أذكر هنا رأياً آخر لشاب لم يمهلّه الأجل لتقديم مشروعه النهضويّ، وهو أبو القاسم الشابيّ (١٩٠٩-١٩٣٤).

ولو قدّر لهذا النابغة التونسي أن يمتدّ به العمر لكان في مقدمة الإحيائيّين المعاصرين، فهو يتحدّث عن سبب ما هو مشهود في الساحة البشريّة من تفاوت بين الشعوب في ابتكارها وإبداعها وفنونها وآدابها، بين شعب يطفح بالحياة والحيويّة، وشعب آخر هو أقرب إلى البطالة والفراغ والكسل والخمول، وينقل رأياً يقول: إنّه الحرية. ويرفض ذلك، ويرى أنّه «يقظة الإحساس»، لا الحرّية.. «يقظة روحية عميقة سامية تملأهم شعوراً بأنفسهم وبالحياة»<sup>(٢)</sup>.

ولعلّ أكبر مفكّر مسلم اهتمّ بدراسة التخلّف الحضاريّ في العالم الإسلاميّ وسبل الإقلاع الحضاريّ هو «مالك بن نبي»، فقد كرّس أكثر كتاباته على هذا الموضوع، وأقام مشروعه على أساس «بناء الذات ومقاومة مخطّط الاستعمار»<sup>(٣)</sup>. يرى مالك بن نبي أنّ الحركة الحضاريّة تنتج من تفاعل «الإنسان» و«التراب» و«الوقت»<sup>(٤)</sup>. وهذا التفاعل يحتاج إلى طاقة روحية لا يمكن أن يوفرها إلّا الدين.

ويقصد بالدين: أن ينشد الإنسان إلى معبودٍ غيبيّ بالمعنى العام<sup>(٥)</sup>... أي أن ينشد إلى أهداف بعيدة يضع حجرها الأوّل جيل، وتواصل بناءه الأجيال المتعاقبة.

ونفس الحقيقة يلامسها الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر إذ يطرح نظريّة المثل الأعلى، ويرى أنّ الأمة تتحرّك بمقدار ما يملك مثلها الأعلى من طاقةٍ للدفع، فإذا كان مثلها الأعلى هابطاً، فإنّ الأمة تعيش همومها اليوميّة التافهة وتراوح في مكانها. أمّا إذا كان ذلك المثل الأعلى كبيراً، فإنّه يدفع الأمة إلى أهداف كبرى. والدين الحقّ يدفع بالمسيرة الإنسانيّة لأنّ تتّجه نحو الله سبحانه. والإنسان في

حركته نحو الله يسير على طريق غير متناه، ومجال التطور والإبداع والنمو متواصل دائماً دون توقف<sup>(١)</sup>.

ويمكن جمع كل الآراء السابقة، سواء من رأى أن العامل في التحرك الحضاري يكمن في التخلص من «الاستبداد السياسي»، أو الذي رأى أنه في «يقظة الشعور»، أو «بناء الذات» و«مقاومة الاستعمار»، أو الانشداد إلى «المثل الأعلى الحق». يمكن جمع كل تلك الآراء - في اعتقادنا - بعبارة واحدة، هي: أن عامل التحرك الحضاري هو «العزة».

فالعزة تمنح «الحياة»، وبعكسها الذل، عامل قهر وموت للإنسان والمجموعة البشرية.

وإذا نشطت روح الحياة في الكائن الإنساني والمجموعة البشرية استيقظ فيها الشعور، وتوفرت عوامل بناء الذات، وتصاعدت روح المقاومة، واتجهت نحو الأهداف الكبيرة.

الإحيائيون بمختلف اتجاهاتهم حاولوا أن يغرسوا روح «العزة» في النفوس، ويزيلوا من أمامها عوامل الإذلال.

كلامنا عن «العزة» باعتبارها منطلق الحركة الحضارية له ما يؤيده في الدراسات القديمة والحديثة.

ولئن اختلفنا مع «فوكوياما» في كتابه «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» في مشروعه الذي يطرحه عن الليبرالية الديمقراطية باعتبارها نهاية التاريخ، نقرب منه كثيراً في تبني نظرية «التيמוש» الأفلاطونية لتفسير حركة التاريخ. و«التيמוש» هو النزعة الموجودة في نفس الإنسان لأن يعترف به الآخرون، ولا أجد في العربية مقابلاً لهذه النزعة سوى «العزة».

«إنَّ رغبة الاعتراف قد تبدو للوهلة الأولى مفهوماً غير مألوف تماماً، ولكنه في الواقع قديم قدم تراث الفلسفة السياسيَّة الغربيَّة وهو يشكِّل جزءاً لا يتجزأ من الشخصيَّة الإنسانيَّة. كان أفلاطون أوَّل من وصف هذه الرغبة في الجمهوريَّة، عندما أشار إلى أنَّ الكائن الإنسانيَّ يتكوَّن من ثلاثة مركَّبات: جزء راغب، وجزء عاقل، وجزء يسمِّيهِ: تيموس (thymos) أو روح الحياة. هناك جزء كبير من السلوك الإنسانيَّ يمكن تفسيره من خلال اندماج العنصرين الأوَّلين: الرغبة والعقل، فالرغبة تدفع البشر للبحث عن أشياء موجودة خارج ذواتهم، بينما العقل والحساب يبيِّنان لهم أفضل السبل للحصول عليها. ولكن بالإضافة إلى ذلك يبحث الإنسان عن الاعتراف بكرامته الذاتيَّة أو بكرامة الشعب أو الأشياء أو المبادئ التي يشحنها بالكرامة. فالنزوع إلى شحن الأنا بقيمة معيَّنة، وإلى طلب الاعتراف بهذه القيمة، يتوافق مع ما نسمِّيهِ في اللُّغة الجارية (احترام الذات). هذا النزوع لاحترام الذات يولِّد من هذا الجزء في الكائن الذي يسمِّيهِ أفلاطون تيموس. فهو يشبه عند الإنسان نوعاً من الإحساس الفطريِّ بالعدالة.

يعتقد الناس بأنَّ لهم قيمة معيَّنة، وإذا ما عاملهم الآخرون وكأنَّ قيمتهم أقلَّ من ذلك، فإنَّهم يشعرون بانفعال الغضب. وبالمقابل، عندما لا يرفع الناس حياتهم إلى مستوى ما يعتبرونه قيمتهم، فإنَّهم يشعرون بالخجل، وأخيراً عندما يُقيَّمون بشكل صحيح يتناسب مع قيمتهم، فإنَّهم يشعرون بالاعتزاز. فرغبة الاعتراف والانفعالات التي ترافقها - الغضب والخجل والاعتزاز - تشكِّل جزءاً لا يتجزأ من حياة أيَّة شخصيَّة إنسانيَّة. وبحسب هيغل، إنَّها محركات السيورة التاريخيَّة بكاملها»<sup>(١)</sup>.

وهيغل تبنَّى هذه النظرية لتفسير حركة التاريخ.. «بالنسبة لهيغل، إنَّ للكائنات الإنسانيَّة، شأن الحيوانات، حاجات ورغبات طبيعيَّة لأشياء خارجة

عن ذاتها: الغذاء والشراب والمسكن وكل ما يحافظ على الجسد الذاتي. إلا أن الإنسان يختلف جذرياً عن الحيوانات؛ لأنه بالإضافة إلى ذلك يرغب في (رغبة) الناس الآخرين، أي: أنه يريد أن يتم (الاعتراف به)، وخاصة يريد أن يعترف به ككائن إنساني، أي كائن مزود بكفاءة معينة وبكرامة معينة.

هذه الكرامة ترتبط بالدرجة الأولى بإراداته في احتمال تعريض حياته في صراع من أجل الاعتبار فحسب. فالإنسان وحده يستطيع أن يتجاوز غرائزه الحيوانية الخالصة - ومن بينها بشكل رئيسي غريزة البقاء - من أجل الالتزام بمبادئ وأهداف أسمى وأكثر تجريداً.

بالنسبة لهيغل إن رغبة الاعتراف هي التي قادت أول خصمين مصارعين إلى السعي المتبادل كي (يعترف) الآخر بطبيعة الكينونة الإنسانية لخصمه مع تعريض حياتهما في صراع مميت.

وعندما يؤدي الخوف الطبيعي من الموت بأحد المصارعين للخضوع، فإن علاقة السيد والعبد تُولد إذ ذاك. إن أسباب هذه المعركة الدامية في بدايات التاريخ، ليست الغذاء ولا المأوى ولا الأمن، ولكن الهيبة والاعتبار وحسب. ولأن سبب هذه المعركة لا يتحدد بالبيولوجيا، فإن هيغل يرى فيه بالضبط النور الأول للحرية الإنسانية<sup>(١)</sup>.

إفرازات التخلف الحضاري

الحديث عن إفرازات التخلف الحضاري، هو كما ذكرنا، الحديث عن الحالة النفسية للإنسان الذليل والحالة الاجتماعية للمجتمع الذليل، وهذه الإفرازات أو الأعراض أوجملها فيما يلي:

١. فقدان قيمة الإنسان:

حالة الذل تخلق عقدة الحقارة في نفس الإنسان، والحقارة هي أن لا يرى لنفسه وزناً ولا قيمة.. ومن الطبيعي أن لا يرى للآخر الذي يعيش في مجتمعه

قيمة. ولذلك تنعدم أخلاق الاحترام وحفظ الحقوق في مثل هذا المجتمع، ويصبح الإنسان أرخص شيء فيه، وتهدر كرامته لأتفه الأسباب.

## ٢. الروح العدوانية السلطوية:

الذلل لا يستطيع أن يقضى على فطرة العزة أو التيموس في نفس الإنسان، بل يمسحها، وكل العوامل للمضادة للفطرة السليمة لا تقضي عليها، بل تضلل طريقها وتغير معالمها. من هنا، فإن الإنسان المقهور يطلب العزة، ولكنه يطلبها في العدوان على من هو أضعف منه، ولذلك نرى طغيان روح الدكتاتورية في كل أطر هذا المجتمع، السياسية منها، والعائلية، والثقافية، والاقتصادية.

## ٣. الدوبان والتماهي في القوى المسيطرة:

وفي مقابل الروح العدوانية للقوي تجاه الضعيف، يتخذ الضعيف موقف العبودية تجاه القوي، يشعر أمامه بالصغر، ويود أن يُقيم له فروض الطاعة، ويستسلم لأوامره، وقد يرتكب أبشع أنواع الجرائم وأفظع ألوان الخيانات من أجل استرضائه.

## ٤. قصور الفكر المنهجي:

الإنسان المقهور يفقد قدرة التفكير الشمولي المنطقي القائم على منهج علمي، وتصبح تحليلاته للأمور فجّة وناقصة، وتكون مواقفه القائمة على أساس تلك التحليلات مواقف مهزوزة لا تصبّ في مصلحته ولا تتّجه نحو مقصد واضح.

يشير الكواكبي إلى هذه الحالة فيقول<sup>(١)</sup>:

«ليس من شأن الشرقي أن يسير مع الغربي في طريق واحدة، فلا تطاوعه طباعه على استباحة ما يستحسنه الغربي، وإن تكلف تقليده في أمر، فلا يحسن التقليد، وإن أحسنه، فلا يثبت، وإن ثبت فلا يعرف استناده، حتى لو سقطت الثمرة في كفه تمنى لو قفزت على فمه!.. فالشرقي مثلاً يهتم في شأن ظالمه إلى أن

يزول عنه ظلمه، ثم لا يفكر فيمن يخلفه ولا يراقبه، فيقع في الظلم ثانية، فيعيد الكرة ويعود الظلم إلى ما لا نهاية. وكأولئك الباطنية في الإسلام: فتكوا بمئات الأمراء على غير طائل، كأنهم لم يسمعوا بالحكمة النبوية: (لا يلدغ المرء من جحر مرتين)، ولا بالحكمة القرآنية: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ٤]، أما الغربي إذا أخذ على يد ظالمه فلا يفلته حتى يشلّها، بل حتى يقطعها ويكوي مقطعها».

##### ٥. الانفعال والتأرجح بين الإفراط والتفريط:

قد يندرج هذا العارض ضمن فقدان الفكر المنهجي، ولكنه لبروزه أكثر وأهميته أضعه في عنوان مستقل، فالانفعال يعني عدم مواجهة الواقع بخطة فاعلة، بل الانجراف في أحداث الواقع لتفعل به ما تشاء. وتجاه هذا الانجراف أو الانفعال يتخذ أحد موقفين: إما الإفراط أو التفريط..

إما أن يتشدد أكثر مما ينبغي أو يتراخى أكثر مما ينبغي، وفي كلتا الحالتين، لا يستطيع أن يحافظ على الوسطية، وعلى التعادل، ويبقى متأرجحاً كشعرة في مهبّ الريح.

##### ٦. سيطرة الخرافات:

حين لا يستطيع الإنسان المقهور أن يتّجه نحو فهم الأسباب الحقيقية لواقعه المؤلم، يتّجه إلى الخرافات ليرجع مظاهر قهره وتخلّفه إلى أسباب غيبية، وفي السير الشعبية التي ظهرت في عصور الانحطاط. وفي العقائد الجبرية التي سادت في ظروف الإذلال خير مثال على سيطرة الخرافات التي تتخذ مع الأسف - أحياناً - طابعاً دينياً.

وفي هذا الصدد يصف الكواكبي أسير الاستبداد، وهو المصاب بداء الذل والتخلف الحضاري فيقول<sup>(١)</sup>:

«إنّ أخوف ما يخافه الأسير هو أن يظهر عليه أثر نعمة الله في الجسم أو المال، فتصيبه عين الجواسيس (وهذا أصل عقيدة إصابة العين)! أو أن يظهر له شأن في

علم أو جاه أو نعمة مهمة، فيسعى به حاسدوه إلى المستبد (وهذا أصل شرّ الحسد الذي يتعوّذ منه)! وقد يتحيل الأسير على حفظ ماله الذي لا يمكنه إخفاؤه كالزوجة الجميلة، أو الدابة الثمينة، أو الدار الكبيرة، فيحميها بإسناد الشؤم، وهذا أصل التشاؤم بالأقدام والنواصي والأعتاب».

#### ٧. غياب الأهداف البعيدة:

الإنسان العزيز هو الإنسان الحيّ، ومن مظاهر الحياة: التطلع إلى المستقبل، والدليل يفقد النظرة المستقبلية، ولا يستطيع أن يتجاوز واقعه. بل إنه يقدّس هذا الواقع، ويرى في كلّ تطوير تهديداً لوجوده وكيانه: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ} [الزخرف: ٢٢].

#### ٨. التمزّق الاجتماعي:

ظاهرة التمزّق حالة طبيعية لغياب الهدف الذي يجمع الأمة؛ إذ يكون هدف كلّ فرد في المجتمع المقهور ذاتياته وأهواءه. والذاتيات الفردية لا تلتقي غالباً، بل تتصارع المصالح الفردية في حالة غياب المصالح الاجتماعية.

أضف إلى ذلك، فإنّ دافع حبّ الاعتراف تدفع المقهورين للانضمام إلى جماعات لا هدف لها سوى تحقيق الذاتيات أيضاً، غير أنّ هذه الجماعات إما أن تحمل عنوان قبيلة أو عشيرة، أو تتخذ صفة حزب وجماعة هي - وإن حملت شعارات قومية أو وطنية - لكنها في الواقع عشائرية محضة. ثمّ إنك ترى داخل هذه الجماعات نوعاً من الارتباط، غير أنّه ظاهري؛ لأنّ كلّ فرد يعيش همومه الذاتية: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ} [الحشر: ١٤].

#### ٩. الانكفاء على الذات:

الذاتية المستفحلة في الفرد المقهور والمجتمع المقهور لا تخلق حالة الانفتاح على الآخر، بل تجعل نظره قاصراً على نفسه ومحيطه، فيرى نفسه محور الكون ويرى قريته ما بعدها قرية.



الخطاب الصادر عن المجتمع المقهور يتحدث مع نفسه، لا مع الآخر؛ لأنه لا يعرف الآخر، والتعصب ينتج عن هذا الانكفاء؛ لأن المتعصب لا يتحرى الصحة، بل ينشد ذاتيته ويطلب الانتصار على الرأي الآخر بشتى أنواع المغالطات والمكابرات.

#### ١٠. تكريس الذاتية:

وإذا كان الانكفاء على الذات يحول دون الانفتاح على الآخر، فإن تكريس الذاتية تجعل الفرد في كل المجالات لا يفكر إلا بمصالحه الذاتية، حتى في موقفه من أقرب الناس إليه. لذلك قل أن تجد عند المقهورين مشاريع عامة، وقل أن تجد خططاً ناجحة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية، وقل أن تعثر على ابتكارات واختراعات؛ لأن كل ذلك يحتاج إلى تجاوز الذات والتفكير في المصلحة العامة.

#### ١١. استفحال الشهوات:

الإنسان طبعاً له شهوات، ومن الطبيعي أن يكون جزء من وقته مخصصاً لتلبية حاجة هذه الشهوات، ولكن الإنسان الذليل تستعر عنده الشهوات حتى تستوعب كل تفكيره ومشاريعه. وللإحساس بالكرامة ارتباط مباشر بانخفاض ضغط الشهوات. وفي النصوص الدينية: «من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته».

ويرى الكواكبي أن «الأسير» (وهو تعبيره عن المتخلف) لا يعرف من اللذات سوى اللذات البهيمية يقول:

«وهذه الحال تجعل الأسير لا يذوق في الكون لذة نعيم، غير بعض الملهيات البهيمية. بناءً عليه، يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وإن كانت تعيسة، وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها؟! أين هو من الحياة الأدبية؟! أين هو من الحياة الاجتماعية؟! أما الأحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة، ولا يعرف ذلك إلا من كان منهم، أو كشف عن

بصيرته» (١).

## ١٢. انسداد منافذ المعرفة:

استفحال الذاتية وتضخمها يجعلها طاغوتاً يقف سداً أمام الحركة التكاملية نحو الله، ويسد منافذ المعرفة، ويحول دون «الاستماع» ودون قدرة انتخاب الأحسن مما يسمع.

وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ١٧} الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ { [الزمر: ١٧ - ١٨]، وفي هذه الحالة ينعدم الحوار؛ لأن الحوار يتطلب قولاً واستماعاً، وإذا انسدت منافذ الاستماع لا يبقى إلا القول. حتى في المناظرات. الجانبان يقولان ولا يستمعان. أحدهما يقول بلسانه، والثاني يقول مع نفسه ليرد على الآخر.

في مثل هذه الحالة لا يمكن أن نتوقع حالة مذهبية؛ لأن الحالة المذهبية حالة علمية فكرية تحتاج إلى جو يشعر فيه الإنسان بقيمته، ويفكر بمنهجية، ويتعد عن الانفعال والإفراط والتفريط، ويلبّي نداء العلم والمعرفة، ولا ينساق إلى الأوهام والخرافات، ويكون متطلّعاً إلى أهداف بعيدة ومثلى عليا سامية، ويتحرّر من ذاتياته وأنانياته، ولا ينساق مع غرائزه وأهوائه، ويفتح منافذ معرفته.. وهذا هو الإنسان المتحضّر.

أما إذا انعدمت هذه الظروف، فیلجأ إلى إثبات وجوده بالانتماء الطائفي وبالتعصب للطائفة، وبممارسة العدوان تجاه الطوائف الأخرى.

وفي تاريخنا الإسلامي نرى الظاهرة المذهبية تبرز باعتبارها نتيجة طبيعية للاجتهاد وحرية الفكر، أي: تبرز باعتبارها نتيجة طبيعية لما يحمله الإسلام من

مقومات الحركة الحضارية.

الدكتور فاضل الأنصاري بعد أن يتحدّث عن دور الإسلام في إعادة صياغة الإنسان المسلم وفي توفير مقومات النهوض الحضاري يقول:

«ولا تعدو المذهبية التي وُلدت وتنامت في رحم ذلك الزخم غير واحدة من مفردات النهوض ومقوماته، فيتسق تباين المناهج وتنوع الاجتهادات اتساقاً لازماً لحركة المعاصرة والتغيير، وهي الظاهرة التي أتاحتها مرونة الإسلام واحتمالية النص فيه. وبهذا تعددت المذاهب في مدارس فقهية فكرية، وظهر الأئمة الكبار، ونشطت المجادلات والمناظرات بغير عصبية أو حدية. وإن تطرّف القلّة، فإنّ البيئة من ذلك النوع تستكمل هويتها عادةً بالمتطرّفين، ولا ينشر فيها الاستثناء»<sup>(١)</sup>.

ويرى الأنصاري أنّ السبب في الانتكاس الحضاري وتحول المذهبية إلى طائفية يعود إلى انتصار القوى المعارضة للتطوير بما في ذلك السلطة؛ إذ «عندما بلغ التطور عتبة التغيير الشمولي للأطر القائمة تهيئة لمرحلة جديدة متقدمة، دخلت المنطقة في مخاضات الانتقال ودوامات الصراع الاعتيادي بين القديم والجديد. فاشتدّت المعارضات نشداناً للمرحلة الجديدة في جانب، بينما استنفرت في الجانب الآخر قوى المحافظة على القديم، وتضافرت هيكليات البنى الاجتماعية والسياسية التقليدية القائمة، بما فيها مؤسسة الدولة، للدفاع عن مصالحها وبقائها.

وكان من مفرزات الصراع: سعي الدولة لحرف الأفكار والعقائد التي باتت تؤثر بقوة في نزعات العامة وعقولهم، وبهذا جهدت المؤسسات الحاكمة لتحويل التمدّج عن مساراته الاجتهادية، وزجّ المذاهب في العصبية والتطوؤف. فتفاقم المخاض، وأُنْمِك المجتمع بالتناقضات والمزق، وتدنى زخمه التعبويّ التغييريّ، وتراجعت حصاناته، ليجد المتربصون من وراء الحدود فرصتهم

لولوج المنطقة، سواء سلماً في البداية عبر تحالفات السلطة التي اختارت الاستعانة على شعبها بالغرباء، أو حرباً في اجتياحات متوالية عادت بالمجتمع إلى غياهب الانحطاط مجدداً في عصر مديد الزمن والرجع<sup>(١)</sup>.

والواقع: أن انتصار قوى الظلام في المجتمع يؤدي إلى خيبة أمل لدى كل المفكرين والمبدعين وتسود حالة تراجع نفسيّ يسبب في الشعور بالإذلال، وبالتالي في تخلف حضاريّ تبرز خلاله الطائفية.

المذهبية مظهر للحالة الحضارية التي بشر بها الإسلام وربى الأمة عليها في دعوته للفكر وللاجتهاد والنظر، والطائفية إفراز للتخلف الحضاريّ في المجتمع، من هنا، فإن عملية التقريب لا تنفك عن عملية استئناف مسيرة الحضارة الإسلامية.

يؤيد ذلك: أن كل دعاة التقريب كانوا أيضاً دعاة عودة الأمة إلى ساحة الحياة وإلى الحراك الحضاريّ.

\* \* \*

### الهوامش:

(١) سالشماري علامه سيد جمال الدين اسد آبادي، علي أكبر ذاكري، العروة الوثقى، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية ١٣٧٥ هـش (بالفارسية).

(٢) دور السيّد جمال الدين في الأدب العربي الحديث، محمد علي آذرشب، مقال في المصدر المذكور أعلاه.

(٣) أم القرى، ص ٥٨، وما بعدها، دراسة وتحقيق محمد جمال الطحان، ط ١، دمشق ٢٠٠٢ م.

(٤) الشابي، المجلد الثاني، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، إعداد محمد

- الحليوي، ط ١، تونس ١٩٩٤.
- (٥) ثقافة المقاومة بين العودة إلى الذات ونموذج الوعد الصادق، محمد حسن يزي، ثقافتنا، العدد ١٥ ص ١١٩.
- (٦) شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط ٤، دمشق ١٩٨٧، ص ٤٩.
- (٧) المصدر نفسه: ص ٥٦.
- (٨) مقدمات للتفسير الموضوعي للقرآن: ص ١٢٩-١٥٢، ط ١، بيروت ١٤٠٠هـ.
- (٩) نهاية التاريخ والإنسان الأخير، فرانسيس فوكوياما، ترجمة فؤاد شاهين وآخرون، مركز الإنماء القومي، بيروت ١٩٩٣، ص ٢٧-٢٨.
- (١٠) المصدر نفسه: ص ٢٧.
- (١١) عودة الكواكبي، د. محمد جمال الطحان، طبائع الاستبداد: ص ٤٣١، حلب، ٢٠٠٦م.
- (١٢) المصدر نفسه: ص ٤٤٧.
- (١٣) طبائع الاستبداد، مصدر سابق: ص ٤٢٠.
- (١٤) فاضل الأنصاري، قصة الطوائف / الإسلام بين المذهبية والطائفية: ص ٢-٣ دمشق ٢٠٠٠.
- (١٥) المصدر نفسه: ص ٧.

## مبدأ العفو والتسامح

عند الإمام علي عليه السلام

□ الأستاذ: أحمد محمد جواد محسن (\*)

التمهيد

تقوم الأخلاق الإسلامية الحميدة على مبادئ محدّدة، منها: المساواة والعدل والمساواة والعفو والحزم والمحبة والمحافظة على الأنفس والأموال والحقوق كافة، التي تختلف عن الأخلاق في الجاهلية التي كان يستند قسم منها على الانتقام وأخذ الثأر والشجاعة الطائشة والتفاخر بالقتل. لكننا في هذه الدراسة سنركّز على واحد من المبادئ الحميدة، هو العفو.

والعفو، هذا الخلق الكريم، هو من صفات الله تعالى، كقوله عزّ وجلّ: {وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ} [المجادلة: ٢]؛ لذلك كان الرسل والأنبياء والأولياء والصالحون قدوة البشر جميعاً في العفو.

فالنبي يوسف × مثلاً، عفا عن إخوته الذين أرادوا قتله، فقال لهم بعد أن أصبحت له القدرة: {لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ

(\*) باحث وأكاديمي عراقي، ماجستير في الرياضيات، وعضو سابق في هيئة التدريس في جامعة سبها/ ليبيا..

الرَّحِيمِ { [يوسف: ٩٢].

وعفا رسولنا الكريم محمد ' عن قومه بعد فتح مكة وقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فلم ينتقم من أحد لنفسه قطّ. وسار الإمام علي × بالاتّجاه نفسه، فكان يوصي أولاده وولاته ورعيّته بالعفو، مع كلّ الاضطرابات والفتن والعصيان الذي حدث في زمانه.

وسنبيّن في هذه المقالة مبدأ العفو بتفاصيله من خلال خطبه × ووصاياه ومخاطباته التي وردت في نهج البلاغة. لكننا سنبدأ أولاً بمعنى العفو وصلته بمفاهيم أخرى مثل الصفح والغفران، ثمّ نبحث في الأهداف العامة للعفو، وسياسة الإمام × تجاه العفو، والمعايير والشروط اللازمة له.

جاء في تاج العروس للزبيدي: أنّ العفو هو المحو، ومنه: عفا الله عنك، أي: محّا، من عفّت الرياح الأثر، أي: درستته ومحتته. والعفو ترك عقوبة المستحقّ، أي: التجافي عن الذنب، وقد عفا له ذنبه: تركه، ولم يعاقبه. وكوّن العفو لا يكون إلّا عن ذنب، وإن اشتهر في التعارف، غير صحيح، فإنّه يكون بمعنى عدم اللّزوم، وأصل معناه الترك، وعليه تدور معانيه، فيفسّر في كلّ مقام بما يناسبه، من ترك عقاب، وعدم إلزام مثلاً. والعفو هو القصد لتناول الشيء، هذا هو المعنى الأصلي<sup>(١)</sup>. والعفو هو إسقاط العقاب. وقد يكون قبل العقوبة، وقد يكون بعدها.. ولا يوصف بالعفو إلّا القادر على ضده<sup>(٢)</sup>. فالعفو إذن هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب. وبهذا المعنى ذكر الله تعالى ذلك بقوله: {فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ} [البقرة: ١٨٧]، وكذلك بقوله: {أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عِقْدَةُ الزِّكَاغِ} [البقرة: ٢٣٧].

ويتداخل مع معنى العفو ويذكر معه في أحيان كثيرة مفهوم آخران، هما:

الصفح والغفر. فالصفح يعني الجانب، وَصَفَحَ: ولّاه صفحة وجهه، أي: أعرض عنه<sup>(١)</sup>. وصفححت عن ذنب فلان وأعرضت عنه فلم أواخذه به<sup>(٢)</sup>. وبمعنى الإعراض عن الذنب، ورد في القرآن الكريم: { فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الزخرف: ٨٩]، والصفح أصله أن تنحرف عن الشيء فتولّيه صفحة وجهك، أي: ناحيته. وهو ترك التثريب، وهو أبلغ من العفو، وقد يعفو الإنسان ولا يصفح<sup>(٣)</sup>. والتثريب يعني اللوم والتأنيب، فالصفح إذن أعلى درجة من العفو، ولهذا ورد في القرآن الكريم في آيات كثيرة متزامناً مع العفو، ولكن بعده، كما في الآية الكريمة: { وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا } [النور: ٢٢]، وإذا وصف الصفح بالجمال صار أبلغ عفواً، كما في قوله تعالى: { فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } [الحجر: ٨٥]، أي: أوله صفحة جميلة، معرضاً عن ذنبه، واترك التأنيب، واعف من غير عتاب أو جدال.

أمّا الغفر فهو الستر والتغطية، وكلّ شيء سترته فقد غفرته. والغفور والغفار من صفات الله.

والغفور: كثير المغفرة، وهي صيانة العبد عمّا استحقّه من العقاب بالتجاوز عن ذنوبه (من الغفر وإلباس الشيء ما يصونه عن الدنس). والغفران يقتضي إسقاط العقاب ونيل الثواب، ولا يستحقّه إلا المؤمن، ولا يستعمل إلا في البارئ تعالى<sup>(٤)</sup>.

قال تعالى: { غُفْرَانُكَ رَبَّنَا } [البقرة: ٢٨٥]، ورافق الغفران أيضاً مع العفو كقوله تعالى: { فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ } [آل عمران: ١٥٩].

إنّ عملية التجاوز عن العقوبة أو الذنب وردت في القرآن الكريم متدرّجة تصاعديّة، تبدأ بالعفو، ثم الصفح، وأخيراً: الغفران، وذلك في آية واحدة، وهي قوله تعالى: { وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا } [التغابن: ١٤]، إن تعفوا: بقصد إزالة الذنب. وتصفحوا: بترك التثريب. وتغفروا: تستروا النقيصة<sup>(٥)</sup>.



يُعدّ العفو أحد الوسائل التربويّة السليمة التي تساعد في إصلاح المجتمع واستقراره وتصحيح الأخطاء. فالعفو يزيل ما في القلوب من الأحقاد والبغضاء، أضف إلى ذلك: أنّه يربط بين أفراد المجتمع، فتسود الألفة والرحمة والمحبة. وكلّما كان الإنسان محباً للعفو، سليم العقل، لا يحمل حقداً ولا كراهية لمن عفا عنه، كان أقرب إلى الله تعالى وطاعته. إذ يقول الله في كتابه العزيز: { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران: ١٣٤]، فالإنفاق وكظم الغيظ والعفو من صفات المحسنين، التي تخلص أعمالهم لوجه الله وتأتي بأعمالهم على وجه الحسن من جهة الاستقامة والثبات على الإيمان بالله سبحانه<sup>(١)</sup>.

كذلك يُعدّ العفو جزءاً من التقوى التي من معانيها اجتناب المحرمات، كقوله تعالى: {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [البقرة: ٢٣٧]؛ لأنّ من أعرض عن حقّه الثابت له شرعاً فهو أقوى وأقدر على الإعراض عمّا ليس له بحقّ من محارم الله<sup>(٢)</sup>. كما أنّ العفو صفة من صفات الله الكمالية، كما في قوله: {أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: ١٤٩]، ومعنى: (تعفوا عن سوء)، أي: بالستر عليه قولاً، بأن لا يذكر الظالم بظلمه. ومعنى: (فإن الله كان عفواً قديراً)، أي: فإن عفوتهم عن السوء فقد اتّصفتهم بصفة الله، العفو عن قدرة، وهي من صفات الله الكمالية<sup>(٣)</sup>.

فالغاية إذن من العفو هي الإصلاح والتهديب والتوجيه والمسامحة والتنازل عن الحقّ عند المقدرة، وفي الوقت ذاته، حتى لا ييأس المذنب من العفو فيحمله ذلك على التمرّد والعصيان، أي: ردع المذنب أو المجرم وتقويمه، غير أنّ ذلك لا يعني التسيّب وفقدان المحاسبة على الأخطاء والمعاصي؛ لأنّ فقدان المحاسبة على مثل هذه الأعمال يكون عاملاً من عوامل انتشارها، وهو أمر يرفضه الدين

الحنيف.

عليه السلام

لقد كان الإمام علي عليه السلام من أشد الناس تمسكاً بأوامر الله وطاعته؛ لذلك فقد سار كما سار الأنبياء والرسل من قبله تجاه مبدأ العفو. لهذا نجده، وهو في أحلك الظروف، يوصي بالعفو قبيل شهادته لما ضربه ابن ملجم: «وإن أعفُ فالعفو لي قربة، وهو لكم حسنة، فاعفوا، {أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} [النور: ٢٢]»<sup>(١)</sup>.

فالعفو إذن حسنة وقربة إلى الله تعالى ومغفرة منه. ويبيّن الإمام كذلك: أن العفو صفة من صفات المتقين، حيث قال في خطبة المتقين: «يعفو عن ظلمه، ويعطي من حرّمه، ويصل من قطعه»<sup>(٢)</sup>.

وفي عهده للأشتر النخعي لما ولّاه مصر، يوصيه بالعفو والصفح عن الرعية عندما يفرط منهم الزلل والخطأ؛ لأنّ الوالي بحاجة أيضاً إلى عفو الله وغفرانه: «يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحته»<sup>(٣)</sup>.

فما دام الوالي محتاجاً إلى عفو الله، فإنّ عليه أن يعطي لرعيته عفوه وصفحته. فالعفو من الله مطلوب، وحتى الإمام نفسه يقول إنّّه بحاجة للعفو، مع أنّه كان المثل الأعلى في إطاعة أوامر الله ونواهيه، فهو يقول: «اللهم احملني على عفوك ولا تحملني على عدلك»؛ لأنّه يعتقد أنّه ربما قصّر في شيء، فيطلب العفو من الله عوضاً عن العدل.

كما أنّ سياسة الإمام في العفو تختلف عن أولئك الذين يؤمنون أنّ العقاب الصارم وسيلة وحيدة لتصحيح الأخطاء عند الرعية، ولا يستطيعون أن يغفروا

لمن أساء إليهم، حتى إذا كان الخطأ بسيطاً؛ لذلك نجد الإمام يسلك طريقاً تربوياً لمحاسبة المسيء، مباشراً أحياناً، وغير مباشر في أحيان أخرى. فمن الطرق المباشرة: استخدام العتاب، ولكن بالإحسان للمسيء، كقوله: «عاتب أخاك بالإحسان إليه، واردد شره بالإنعام عليه». وأمّا الطريقة غير المباشرة، فهي مكافأة المحسن على إحسانه، عندها يقلع المسيء عن إساءته طلباً للمكافأة، كقوله: «ازجر المسيء بثواب المحسن»<sup>(١)</sup>.

ليس من السهولة العمل بمبدأ العفو دائماً، وتطبيقه تطبيقاً سليماً؛ لأنّه بحاجة إلى معايير معيّنة تعتمد على أطراف ثلاثة:

الأول: الجهة التي تعفو، وهي قد تكون فرداً أو جماعة أو سلطة، وطبيعة هؤلاء كلّهم قد تكون ظالمة أو مستبدّة أو عادلة.

والطرف الثاني: المعفو عنه، وهو أيضاً قد يكون فرداً أو جماعة أو سلطة، وهؤلاء قد يكون من بينهم الضعيف والقوي، والكريم والليث.

أما الطرف الثالث: فهو طبيعة الذنب أو الجرم أو القضية المطلوب العفو عنها، وقد تكون بسيطة أو متوسطة أو كبيرة. كذلك قد يكون الذنب متعمّداً أو غير مقصود.

لذلك ينبغي التعامل مع الاحتمالات جميعها المتكوّنة من الأطراف الثلاثة السابقة. مثلاً: العفو بين القوي والضعيف، بين الأقوياء، بين الضعفاء أنفسهم، بين الظالم والمظلوم، بين الإخوان، بين الأتقياء، إلخ..

ومن الشروط التي ينبغي أن تتوفر في العفو:

أولاً: القدرة، أي: إمكانية إنزال العقوبة بالمدّنب.

يقول الإمام في هذا الجانب: «أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة».

كذلك: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدره عليه». وأيضاً: «اصفح مع الدولة تكن لك العافية»، أي: عندما تكون لك السلطة. وأيضاً: «العفو زكاة الظفر». فمثلاً: كان الإمام قادراً على إنزال العقوبة على أحد الخوارج الذي قال له حينما كان يتحدث مع أصحابه: «قاتله الله كافراً ما أفقهه»، فوثب القوم ليقتلوه فقال ×: «رويداً إنما هو سبّ بسبّ، أو عفو عن ذنب». فالخارجي سبّ الإمام بالكفر، غير أن الإمام لم يسمح بقتله وقال: إمّا أن أسبه، أو أعفو عنه<sup>(١)</sup>. فخير العفو وأكرمه هو ما يكون عند المقدرة.

الشرط الثاني: أن يكون العفو في مواضعه ومع أهله.

ولا بدّ من الأخذ بنظر الاعتبار الأصناف المختلفة من الناس، فهناك مثلاً - كما ذكرنا - الضعيف والقوي، والكريم واللئيم. وكلّ من هؤلاء ينبغي التعامل معه تعاملًا مختلفًا. فالضعفاء قد أوصى الإمام جنوده بضرورة الرأفة بهم، ومعاقتهم عن طريق التهذيب، بالتجاوز عن هفواتهم ضمن الحدود الشرعية. أمّا الأقوياء وأصحاب النفوذ فابطش بهم إذا أذنبوا بطشاً يتناسب مع طبيعة الذنب. وسبب ذلك هو أنّ العفو عن القويّ ربما يجعله يعتقد بأنّ ذلك العفو ناتج عن نفوذه فيتهادى في الذلّة. هذا من الناحية النفسية.

وأما من الناحية الاجتماعية فقد يحلّل للآخرين أنّ نفوذ المجرم المعفو عنه كان عاملاً من عوامل العفو عنه، الأمر الذي يشجّعهم على ارتكاب الباطل، خاصّة إذا كانوا من ذوي النفوذ، فتنتفي في الحالتين الغاية من العفو. وأمّا الكريم فهو الذي يعتبر العفو عنه وسيلة لزرجه وإرشاده، فيسير في طريق الهداية متحاشياً تعاطي المعاصي في تصرّفاتة اللاّحقة، وبالنتيجة: فالعفو يصلح الكريم. لهذا، فإنّ العفو والصفح عن الكريم يجعله يندم على ما بدر منه، ويحمّله على تجنّب الهفوات والبعد عن الزلّات. واللئيم الذي يعتبر العفو عنه تهرباً من إيدائه فيركب رأسه ويسير غير مبالٍ في طريق الضلال، ومن ثمّ، فإنّ

العفو يفسده. وقد عبّر المتنبي عن المعروف للكريم واللئيم بقوله:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته      وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا  
أي: أن الكريم يقرّ بالإحسان ويرعى حقّ المحسن، فإذا أنت أكرمت  
الإنسان النزيه النبيل حفظ لك إكرامك، وجعل نفسه تحت تصرّفك وطوع  
أمرك. وأمّا اللئيم الدنيء الأصل، شحيح النفس، فإنّك كلّما أكرمته وداريته  
وعملت كلّ شيء في سبيل إرضائه ازداد استكباراً وتجاوز الحدّ وازداد جرأة  
عليك.

غير أنّ العفو لا يعني التساهل في تطبيق الحدود والمحاسبة، الأمر الذي  
يؤدّي إلى الفوضى والتسيّب، وإنّما ينبغي أن يكون في موقعه الصحيح وعند من  
يستحقّونه. فاللئيم والقويّ قد لا ينفعه العفو، كما يقول المتنبي:

ومن يك ذا فم مريض      يجد مرّاً به الماء الزلالا

الشرط الثالث: الإقرار بالذنب.

إنّ العفو عن الشخص يكون حسناً عن المقرّ بذنبه، لا عن المصّرّ عليه، وكما  
يقال: من اعترف بذنبه لا ذنب له. ويقول الإمام في شعر منسوب له مخاطباً به  
الله تعالى:

أنا العبد المقرّ بكلّ ذنب      وأنت السيّد الصمد الغفور  
ويقول أحد الشعراء في هذا المجال أيضاً:

أقرّ بذنبك ثمّ اطلب تجاوزنا      عنه فإنّ جحود الذنب ذنبان  
والجحود بمعنى النكران. كما أنّ الإقرار بالذنب لا بدّ أن يتبعه ندم المذنب  
على ما قام به والتوبة. لذلك، اعترف إخوة نبيّ الله يوسف بخطئهم، فطلبوا  
المغفرة من أبيهم، كما في قوله تعالى: {قَالُوا يَتَابْنَا أَسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا  
خَاطِئِينَ} [يوسف: ٩٧].

الشرط الرابع: أن لا يتكرّر العفو عن الذي يرتكب ذنباً مرّة أخرى:

لذلك نجد الإمام يحذّر أهل البصرة، بعد أن عفا عن مجرميهم، بقوله: «فعفوت عن مجرمكم، ورفعتم السيف عن مدبركم، وقبلت من مقبلكم، فإن خطت بكم الأمور المردية، وسفه الآراء الجائرة، إلى منابذتي وخلافي، فهذا أنا ذا قد قرّبت جيادي، ورحّلت ركابي». خطّت: تجاوزت. والمردية: المهلكة، وسفه الآراء: ضعفها. والجائرة: المائلة عن الحق. والمنابذة: المخالفة<sup>(١)</sup>.

فإذا عفا الحاكم مثلاً عمن ارتكب ذنباً يستحقّ العقاب، وكانت النتيجة تمادي ذلك المذنب في سلوكه عوضاً عن التوقّف عنه، فإنّ الحاكم يميل في العادة لاستخدام الشدّة في التصرّف بمثل هذا الأمر. لذلك ينبغي للمعفو عنه أن يعقد العزم على عدم المعادة لأيّة مخالفة مرّة ثانية.

#### الشرط الخامس: صدور العفو من جهة صالحة:

حتى ينجح مبدأ العفو ويعطي ثماره التربويّة، لا بدّ أن يكون صادراً من جهة صالحة، خاضعة للحقّ؛ لأنّه إذا كان الحاكم - مثلاً - جائراً، ظالماً، وعفا عن إنسان قد يكون مظلوماً، ففي هذه الحالة، يعتبر المظلوم ذلك اعترافاً من الحاكم أنّه مذنب، وبهذه الحالة قد يرفض ذلك. لذلك، على الحاكم أن ينصف المظلوم ومعاقبة من أساء إليه وليس العفو عنه فحسب. أضف إلى ذلك، فإنّ عفو الحاكم الجائر غالباً ما يكون مزاجياً لا يخضع لضوابط معيّنة، ولا يرجع لحكم القضاء، وإنّما الذي يحدّد العفو هو الشخص الذي يقف بين يدي الحاكم، طبيعته، وحسن تصرّفه، ولباقة في تلك اللحظة، مثلاً، بجملة طريفة أو حكمة أو بقول أو شعر أو حركة يستحسنها الحاكم. والروايات التاريخية تذكر لنا الكثير مثل هذه المواقف.

وقد وضع الإمام شروطاً ستّة ينبغي للمذنب أن يقوم بها حتى يصل إلى الدرجة العالية من التوبة والمغفرة من الله، وهي: الندم، وترك العودة للذنب، وأداء حقوق المظلومين، وأداء الفرائض، وإزالة المال الحرام، وطاعة الله.

فيقول: «الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معاني: أولها: الندم على ما مضى. والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً. والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة. والرابع: أن تعتمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد. والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية»<sup>(١)</sup>.

إنّ العفو عن المسيء، والصفح عن المذنب، والتسامح، هي من المبادئ الأخلاقية التي تأمرنا بها الشرائع السماوية كلّ زمان ومكان، غير أنّ لها مقاييس وأحكاماً معينة لا بدّ من الاسترشاد بها عند تطبيق هذه المبادئ.

وقد جاهد الإمام علي، مستخدماً العفو في سبيل استقرار المجتمع وإصلاحه، فكان يوصي به كثيراً حتى إنّّه قال لأحد ولاته: إذا عفوت عن أحد واكتشفت فيما بعد أنّ هذا العفو كان في غير موضعه، فلا تندم على ذلك. ففي عهده للأشتر يقول: «ولا تندمنّ على عفو»<sup>(٢)</sup>.

لذلك لا بدّ من اللجوء إلى العفو كلّما كان ذلك ممكناً. وبالاتّجاه ذاته يقول أحد الحكماء: «أن تخطئ في العفو أفضل من أن تخطئ في العقوبة».

ولا بدّ أن نشير في الختام، أنّ العفو لا يمكن أن يفعله ويطبّقه كلّ إنسان؛ لأنّه ليس باستطاعته أن يرى المجرم أو المسيء طليقاً حرّاً دون عقاب. لذلك، فالعفو بحاجة لوسائل تمهيدية تربوية ومبررات مقنعة تؤدي إلى القبول به. ومع أنّنا في الزمن الحاليّ نستخدم القانون والقضاء لمحاسبة المسيء، غير أنّ العفو يبقى مطلوباً، خاصّة عند التحوّلات السياسية وانتقال الحكم من فئة ظالمة إلى أخرى، عندها يظهر الانتقام والأخذ بالثأر من بعض النفوس الضعيفة، دون

الرجوع إلى القضاء، فالانتقام يولد الانتقام، وعليه: لا بدّ من قطع هذه السلسلة، ولا يقطعها غير العفو والتسامح. إذن، الإلحاح على العفو يغدو ضرورة نواجه بها الكثير من الاضطرابات التي تزعزع المجتمع.

\* \* \*

### الهوامش:

- (١) عبد المجيد قطامش، تاج العروس للزبيدي، ج ٣٩، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠١، ص ٦٧.
- (٢) عدنان درويش ومحمد المصري، الكلّيات لأبي البقاء الكفوي، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣، ص ٦٣٢.
- (٣) المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، ط ٦، بيروت، ١٩٨٢، ص ٤٢٧.
- (٤) حسين نصار، تاج العروس للزبيدي، ج ٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٦٩، ص ٥٤٠.
- (٥) الكلّيات لأبي البقاء الكفوي، مصدر سابق، ص ٢٨، ٥٦٢.
- (٦) المصدر السابق: ص ٦٦٣، ٦٦٦.
- (٧) كمال مصطفى شاكر، مختصر تفسير الميزان للطباطبائي: ص ٦١٩.
- (٨) المصدر السابق: ص ٨٨.
- (٩) المصدر نفسه: ص ٥٣.
- (١٠) المصدر نفسه: ص ١٢٧.
- (١١) محمد عبده، نهج البلاغة للإمام علي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٣، ص ٥١٠.
- (١٢) المصدر السابق: ص ٤١٧.
- (١٣) المصدر نفسه: ص ٥٧٢.
- (١٤) المصدر نفسه: ص ٤٧٢، ٦٦٤، ٦٦٧.
- (١٥) المصدر نفسه: ص ٦٣٨، ٦٢٨، ٦١٥، ٦٧٢، ٧٢١.
- (١٦) المصدر نفسه: ص ٥٢٤.
- (١٧) المصدر نفسه: ص ٧١٩.
- (١٨) المصدر نفسه: ص ٥٧٣.



## المساجد ودورها في تحقيق الأمن

□ د. أحمد راسم النفيس (\*)

(\*\*)

يقول الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن:  
السجود أصله: التطمئن والتذلل، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله  
وعبادته، وهو عام في الإنسان والحيوانات والجمادات، وذلك ضربان: سجود  
باختيار، وليس ذلك إلا للإنسان، وبه يستحق الثواب، نحو قوله: {فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ  
وَأَعْبُدُوا} [النجم: ٦٢]، أي: تذللوا له. وسجود تسخير، وهو للإنسان والحيوانات  
والنبات، وعلى ذلك قوله: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا  
وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد: ١٥]، وقوله: {يَنْفِثُوا ظِلَالَهُ عَنِ الْأَيْمِينِ  
وَالْأَسْمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ} [النحل: ٤٨]، فهذا سجود تسخير، وهو الدلالة الصامتة  
الناطقية المنبّهة على كونها مخلوقة، وأنها خلق فاعلٍ حكيم.. وقوله: {أَسْجُدُوا  
لِأَدَمَ} [البقرة: ٣٤]، قيل: أمروا بأن يتخذوه قبلة، وقيل: أمروا بالتذلل له، والقيام

(\*) كاتب وباحث في الفكر الديني والسياسي/ مصر.

(\*\*) نصّ هذا المقال مقدّم لمؤتمر المساجد الذي انعقد بطهران في ٨ - ٩ أغسطس ٢٠١٠، والذي  
منعنا من السفر لحضوره.

بمصالحه، ومصالح أولاده، فاثمروا، إلا إبليس، وقوله: {ادخلوا الباب سجداً} [النساء: ١٥٤]، أي: متذللين منقادين، وخصّ السجود في الشريعة بالركن المعروف من الصلاة، وما يجري مجرى ذلك من سجود القرآن، وسجود الشكر، وقد يُعبر به عن الصلاة بقوله: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ} [ق: ٤٠]، أي: أدبار الصلاة.. والمسجد: موضع الصلاة اعتباراً بالسجود، وقوله: {وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ} [الجن: ١٨]، قيل: عني به الأرض، وقيل: المساجد: مواضع السجود: الجهة والأنف واليدان والركبتان والرجلان<sup>(١)</sup>.

المساجد إذاً هي أماكن الصلاة، وقد حملت هذا الاسم لاختصاص الصلاة في الإسلام بالسجود لله عز وجل على الأرض، وقد ورد في الحديث الشريف: «جعلت لي الأرض مسجداً وتراها طهوراً»<sup>(٢)</sup>.

والمساجد - حال توافر الشروط اللازمة - هي بيوت الله عز وجل التي طهرها وهيأها لاستضافة عباده المؤمنين؛ ليتوجهوا بالعبادة الخالصة نحو خالقهم عز وجل، وعندها تصبح المساجد (مساجد الله)، أما إذا تخلف شرط من هذه الشروط عندها تصبح (مساجد للضرار)، لا يُراد بها وجه الله، بل هي مجرد خدعة يراد بها إيقاع الضرر بأمة لا إله إلا الله وبث الفرقة والفتنة بين صفوف المسلمين.

يقول تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلُقَنَّ إِنَّ أَرْدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (١٠٧) لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ الْمَسْجِدَ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهُ بِيَهُ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة].

:

وردت هذه الشروط في سورة البقرة، عندما حكى القرآن الكريم كيف أسس نبي الله إبراهيم أبو الأنبياء أول بيت وضع للناس في مكة، وهو المسجد الحرام، حيث يقول سبحانه:

{وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِن الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [البقرة].

القاعدة الأولى في بناء (مساجد الله) وليس مساجد الضرار، هي قاعدة التوحيد الخالص، والحنيفية السمحاء، التي وضع قواعدها أبو الأنبياء إبراهيم ×، تلك النبوة التي وضعت حجر الأساس في إعادة توجيه مسار البشرية نحو التوحيد الخالص والإخلاص لرب العالمين، بعيداً عن أوهام تجسيد الذات الإلهية والاعتقاد بأن هذه الأصنام المنحوتة أو الموهومة يمكن لها أن تضرّ وتنفع، أو أن يكون لها شفاعة بغير الإذن الإلهي.

القاعدة الثانية التي قررتها الإرادة الإلهية، والتي وردت في الآيات السابقة، أن الإمامة مرحلة تالية ومنتمة للبعثة الإبراهيمية، وهي ذروة التكامل في حركة

النبوة، وهي باقية وممتدة في أمة محمد ' أو أمة التوحيد التي ورثت الحنيفية السمحاء وحملت رسالتها إلى يوم الدين: {قَالَ وَيَنْذِرُ النَّاسَ} [البقرة: ١٢٤]، فجاء الجواب: نعم، تكون الإمامة في ذريتك، ولكن لا ينالها إلا من حمل نفس الصفات والمؤهلات التي حملها أبو الأنبياء إبراهيم × {قَالَ لَا يَنْالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤].

أما القاعدة الثالثة التي اكتسبها المكان، والذي أصبح بيتاً لله بركة إبراهيم وإسماعيل، ثم أضحي مثابة للناس، هو (الأمن)، وهو ليس أمن النظم الحاكمة القمعية المستبدّة، بل أمان الله، وأمان الإيمان، وأمن المجتمع المسلم من الوقوع في الفتن والضلال؛ لتأتي هذه النفوس آمنة يوم الفرع الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق، ومن ثم فهو أمن الأمة، وأمن المجتمع المسلم المتراحم والخاضع لله رب العالمين، {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ءَٰمَنٌ وَهُمْ مُّسْتَدُونَ} [الأَنْعَام: ٨٢].

الأمن الحقيقي هو الأمن من الفرع الأكبر، وهو سلوك طريق الهداية وصراط الله المستقيم، {لَا يَخْزِيهِمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمُ الْمَلٰٓئِكَةَ هٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠٣].

الأمن الحقيقي هو نزع الذرائع التي تدفع الناس لارتكاب الجرائم، خاصة جرائم القتل، وأسوأها تلك التي تُرتكب باسم الدين، وهي الظاهرة التي عرفها تاريخنا الإسلامي من خلال ارتكابات الجماعات الخوارجية الضالة والمضلّة، والتي عاودت ظهورها في الآونة الأخيرة على نطاقٍ واسع، بعد أن استولى قادة هذا التيار، بالتعاون والتنسيق مع التيارات السلطوية، على مساجد الله، وجعلوا منها أداةً لإدامة ظلمهم وإرهابهم.

أما القاعدة الرابعة التي ينبغي توفرها في بيت الله، أو مساجد الله، فهي الطهارة والتطهير.

أ. الطهارة الحسيّة، عبر اتّباع مجموعة القواعد الشرعيّة التي تحقّق هذه الطهارة، مثل التطهّر من النجاسات المادّيّة والغسل والوضوء.

ب. والطهارة المعنويّة، من الشرك والوثنيّة، {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} [الحج: ٣٠].

والطهارة الحسيّة والمعنويّة للمساجد لا تتحقّق إلا بالتجرّد لله ربّ العالمين، وابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، ومن ثمّ تنزيه المساجد عن أن تكون مقرّاتٍ للدعاية للنظم الطاغوتيّة المعادية لتطلّعات الأمّة، والمتحالفة في آنٍ واحد مع النظام الطاغوتيّ الاستكباريّ العالميّ.

أن تكون المساجد أسيرة بيد هؤلاء الطغاة المستبدّين، فهي أبعد ما تكون عن الطهر والتطهر.

القاعدة الخامسة هي حدود المكان، وهي قواعد البيت وحدوده، {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ}، وهي المهمّة التي تعطي المسجد موقعاً وعنواناً محدّداً، وهي في النهاية مهمّة مكّملة للقواعد والأسس التي أوردناها سابقاً، مثل النبوّة والإمامة والتوحيد والتطهير، ولكنّها لا تكفي بمفردها لأن تمنح المكان صفة مساجد الله، أو بيت الله.

هكذا، ووفقاً لكتاب الله عزّ وجلّ، لا يكفي على الإطلاق أن يُبنى مكان يحمل الشكل الخارجيّ للمسجد وتجري زركشته من الداخل بآيات القرآن الكريم لكي ينال صفة (مساجد الله).

شكّل الدور الذي اضطلع به أبو الأنبياء إبراهيم، ووصيّ ووارث علمه إسماعيل '، في بناء المسجد الحرام، ورفع قواعده، وتطهيره، النواة الصلبة للأمّة الإسلاميّة جيلاً بعد جيل، {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةً لَكَ}، التي التحق بها بعد ذلك كلّ من اعتنق ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، وهي أمّة تحتاج إلى تواصل مدد الهداية الربّانيّ جيلاً بعد جيل،

وصولاً إلى يوم تحتاج فيه البشرية جمعاء، والأمة المسلمة على وجه الخصوص، التي رسم معالم تواجدها من خلال بناء المسجد الحرام، إلى رسول الله الأعظم، خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ' ليكمل المهمة ويضع اللبنة الأخيرة في صرح النهضة والترقي البشري، وصولاً للكلمات الإلهية التي لا غنى للإنسان السوي عنها، { رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }.

لقد رسمت تلك الآيات معالم حركة النبوة الإبراهيمية، وارتباطها ببناء المسجد الحرام الذي يتوجه المصلون إليه بأفئدتهم ووجوههم ويرتبطون به ارتباط النجوم بمركز دورانها.

النبوة والطهارة والإمامة والأمن من الضلال، حيث يجتمع كل هذا في مكان له أربعة أركان، يضع الناس فيه جباههم على الأرض سجداً لله، مخبتين، ممثلين له، وهو ما يشكل قاعدة الانطلاق نحو الأمام، نحو الرقي والكمال والحكمة والتزكية والحضارة.

شتان بين أماننا وأمام غيرنا من الأمم التي رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت لها، وتمادت في المعاصي، ويقولون سيغفر لنا، وسؤل لهم الشيطان أعمالهم وصدّهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون.

وشتان أيضاً بين أمةٍ لزمت طاعة نبيها وإمامها، وأمةٍ اتخذت الشياطين أولياء من دون الله، { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢١﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ } [الأعراف].

قلنا من قبل: إنّ (مساجد الله) ليست حالة قائمة بذاتها، ولا منفصلة عن حزمة المبادئ والقواعد التي أرساها التوحيد الإبراهيمي، والتي أوردتها كتاب الله عز وجل في الآيات السابقة.

يقول تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ١١٤].

حاولت أن أفهم هذه الآية من خلال كتب التفسير فلم أعثر على ما يشفي غليلي.

الجريمة التي ارتكبتها هؤلاء الظلمة هو منعهم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعيهم في خرابها، وهي جريمة لا تخصّ مسجداً دون مسجد، بل هو أمر متعلّق بكلّ المساجد.

لو كان المجرم شخصاً أو مجموعة من الأشخاص، لقال سبحانه: (ومن أظلم ممن منع مسجداً لله أن يذكر فيه اسمه) ولم يقل (مساجد الله) بصيغة العموم<sup>(١)</sup>.

لم يحدث على مدى التاريخ الإسلامي أن تعرضت مساجد العالم الإسلامي لحالة منع عام أن يذكر فيها اسمه.

وحتى عندما تعرّضت المساجد في بقعة من البقاع لعمل تخريبي، كانت هناك بقاع وبقاع تزخر بأعداد وافرة من المساجد التي (يذكر فيها اسم الله)، أقلّه من الناحية الشكلية.

لا يتعلّق الأمر من وجهة نظرنا بالكفار الصرحاء؛ لأنّ عداءهم للإسلام معروف، وليس هناك من يطالبهم بالعدل الذي هو نقيض الظلم.

نلاحظ أيضاً أنّ كلمة (سعى في خرابها) تحمل معنى التراخي، وليس التخريب والهدم الفوري الذي لا يحتاج لأكثر من قرار ينفذه مجموعة من عمال

الهدم، وقد حدث هذا بالفعل عندما حكمت الشيوعية بعض بلدان العالم الإسلامي.

الاتهام الوارد في الآية الكريمة، من وجهة نظرنا، موجّه لأعداء رسول الله ' وأهل بيته ^ الذين سعوا لتفريغ مساجد الله من محتواها التوحيدّي الإبراهيمي، ومن كلّ ارتباط بخطّ الولاية والإمامة، ومن ثمّ فقد كان هذا تخريباً لها، ومنعاً لها أن يذكر فيها اسمه على وجه الحقيقة، وإن احتفظت هذه المساجد بشكلها الخارجي.

ألم يقل الحجاج الثقفي واصفاً مدينة رسول الله ' : «الحمد لله الذي أخرجني من أمّ نتن، أهلها أخبث بلد وأغشّه لأمر المؤمنين، وأحسدهم له على نعمة الله، والله لولا ما كانت تأتيني كتب أمير المؤمنين فيهم، لجعلتها مثل جوف الحمار، أعواداً يعوذون بها، ورمّة قد بليت»، يعني بذلك: منبر رسول الله ' وقبره '. فبلغ جابر بن عبد الله قوله، فقال: «إن وراءه ما يسوؤه، قد قال فرعون ما قال، ثمّ أخذه الله بعد أن أنظره»<sup>(١)</sup>.

كما ذكر ابن عبد ربّه في (العقد الفريد) لائحة الأسباب التي دعت العلماء لتكفير الحجاج الثقفي، ومن بينها قوله عندما رأى الناس يطوفون بقبر رسول الله ' ومنبره: إنّها يطوفون بأعواد ورمّة.

وكلمة (رمّة) هنا يقصد بها ذلك الملعون المقام الطاهر للنبي الأكرم ' !!

!

ليس ثمّة فارق جوهري!!

روى ابن جرير الطبري: وفي سنة ٥٠ للهجرة أمر معاوية بمنبر رسول الله أن يحمل إلى الشام، فحرّك، فكسفت الشمس حتى رُئيت النجوم باديةً يومئذ، فأعظم الناس ذلك، فقال: لم أرد حمله، إنّما خفت أن يكون قد أرض فنظرت



إليه، ثم كساه يومئذٍ، وذكر محمد بن عمر أنّه حدّثه بذلك خالد بن القاسم عن شعيب بن عمرو الأمويّ، قال محمد بن عمر: حدّثني يحيى بن سعيد بن دينار عن أبيه، قال: قال معاوية: إنّني رأيت أنّ منبر رسول الله وعصاه لا يُتركان بالمدينة وهم قتلة أمير المؤمنين عثمان وأعداؤه، فلما قدم طلب العصا، وهي عند سعد القرظ، فجاءه أبو هريرة وجابر بن عبد الله، فقالا: يا أمير المؤمنين، نذكرك الله عزّ وجلّ أن تفعل هذا، فإنّ هذا لا يصلح، تخرج منبر رسول الله من موضع وضعه، وتخرج عصاه إلى الشام، فانقل المسجد، فأقصر وزاد فيه ستّ درجات، فهو اليوم ثمانى درجات، واعتذر إلى الناس ممّا صنع، قال محمد بن عمر: وحدّثني سويد بن عبد العزيز عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن أبان بن صالح عن قبيصة بن ذؤيب قال: كان عبد الملك قد همّ بالمنبر، فقال له قبيصة بن ذؤيب: أذكرك الله عزّ وجلّ أن تفعل هذا، وأن تحوّل، إنّ أمير المؤمنين معاوية حرّكه فكسفت الشمس، وقال رسول الله: من حلف على منبري آثمًا فليتبوّأ مقعده من النار، فتخرجه من المدينة وهو مقطع الحقوق بينهم بالمدينة، فأقصر عبد الملك عن ذلك، وكفّ عن أن يذكره، فلمّا كان الوليد وحجّ، همّ بذلك، وقال: خبراني عنه، وما أراني إلّا سأفعل، فأرسل سعيد بن المسيّب إلى عمر بن عبد العزيز فقال: كلّم صاحبك يتّق الله عزّ وجلّ ولا يتعرّض لله سبحانه ولسخطه، فكلمه عمر بن عبد العزيز فأقصر وكفّ عن ذكره، فلمّا حجّ سليمان بن عبد الملك أخبره عمر بن عبد العزيز، بما كان الوليد همّ به وإرسال سعيد بن المسيّب إليه، فقال سليمان: ما كنت أحبّ أن يذكر هذا عن أمير المؤمنين عبد الملك، ولا عن الوليد، هذا مكابرة وما لنا ولهذا؟؟!! أخذنا الدنيا فهي في أيدينا ونريد أن نعمد إلى علّم من أعلام الإسلام يوفد إليه فنحمله إلى ما قبلنا هذا ما لا يصلح<sup>(١)</sup>.

المعنى الذي نستخلصه ممّا سبق أنّه لا أحد اجترأ على تفريغ مساجد الله من

مضمونها ومن أهم أركانها، مثلما اجترأ الأمويون القدامى وأحفادهم من الوهابيين الجدد الذين يرون إزالة رموز النبوة والولاية من مساجد الله واجباً شرعياً عقائدياً، وهو (تطهير للمساجد من الأنصاب والأوثان والأزلام) الذي لا يختلف عما قام به رسول الله ' ومن قبله أبو الأنبياء إبراهيم من تطهير أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين.

لقد فرغت أغلب المساجد عبر الأمويين وأحفادهم الوهابيين بالفعل من كل ما يربط المسلمين ربطاً حقيقياً بخالقهم، وهو خط الولاية الذي أمروا بالتزامه، حيث حل محلّه منهج التدين بالبدع والأهواء، ورغم كل ذلك، فهم يطلقون على بدعهم (التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)، وهذا عين المقصود بقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا}، أي: حرف هذه المساجد عن مهمتها الأساسية كحاضنة للتوحيد الإبراهيمي، ونقطة انطلاق لتزكية وتعليم الأمة الإسلامية.

الثمرة المرة والفاجعة التي حصدها المسلمون وقادة التيار المعادي للولاية، هو انعدام الأمن وانتشار الإرهاب، {أَوَلَيْكَ مَا كَانُوا لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا حَافِينَ}. {

حيث أصبح قادة هذا التيار يعانون من الخوف وانعدام الأمن، بعد أن تحول كثير من المساجد إلى نقاط انطلاق لبث الفتنة وإطلاق دعاوى التكفير، وأصبحت ظاهرة (التطرف) هي القانون السائد في أغلب المجتمعات الإسلامية؛ لأن من سل سيف البغي قطع به، وكما تزرع تحصد!!

وبدلاً من أن تصبح بيوت الله {مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا}، أصبحت قاعدة لبث الدعاية الأموية والوهابية التكفيرية تارة أخرى، ومنطلقاً لاستباحة دماء المسلمين، ومركزاً لوضع الخطط للعدوان على الأبرياء الأمنين.

ورغم أن أغلب النظم السياسية الحاكمة الآن تشكّل امتداداً للحكم

الأمويّ، إلّا أنّها قد وقعت في البئر التي حفرتها، وأضحت الآن تتلفّ حولها في حيرة، في محاولة للبحث عن مخرج من ورطة انعدام الأمن وانتشار الإرهاب الناجمة عن انتشار الفكر الوهابيّ التكفيريّ المعادي للنبوة والولاية، إلّا أنّها تسعى جاهدة في الوقت نفسه للتصدّي لكلّ من يسعى لإعادة ربط المسلمين بحقيقة التوحيد الإبراهيميّ ووصلهم بمنهج الولاية، أي: أنّهم يفعلون الشيء ونقيضه، وهو ما يعدّ نوعاً من انعدام العقل والخسران المبين.

لا نرى مخرجاً للمسلمين من ورطة انعدام الأمن وتفشّي ظاهرة الإرهاب إلّا بالعودة إلى القواعد الإبراهيميّة الخمس التي بني عليها أوّل بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً، (المسجد الحرام)، وهي: التوحيد والنبوة والإمامة والأمن والتطهير.

\* \* \*

## الهوامش:

- (١) انظر: الراغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٣٩٦ - ٣٩٧، مادة (سجد)، تحقيق صفوان عدنان داوودي، وقد نقلنا كلامه ملخصاً.
- (٢) الأحسائيّ، ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي ٢: ١٣، ح ٢٦، الطبعة الأولى، مطبعة سيّد الشهداء، قم.
- (٣) التعميم على المساجد في الآية الكريمة - بمجرّده - لا يصلح لأن يكون دليلاً على عدم وقوع حادثة خاصّة في التاريخ كانت قد طالت مسجداً أو مساجد معيّنة، بل جاز أن يكون كذلك، والتعميم لإفادة التحريم مطلقاً. (التحريم).
- (٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٣: ٧٧٥.
- (٥) الطبريّ، الإمام أبو جعفر، تاريخ الطبريّ ٥: ٢٣٨ - ٢٤٠.

## التوحيد الوهابي اليهودي

### في بحث العلاقة بين ابن تيمية وابن ميمون

□ الدكتور أحمد راسم النفيس (\*)

يختلف البحث في قضايا تاريخ الفكر عنه في قضايا التاريخ، البحث في قضايا التاريخ يشبه البحث الجنائي، حيث يجب إثبات الوقائع بالدليل الذي لا يقبل التأويل، أما قضايا الفكر فيكفي إثبات تطابق الأفكار لإثبات أن ثمة مصدراً بشرياً أو شيطانياً واحداً لها {وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِرُؤُوسِ الْإِنْسَانِ أَوْلِيَّاهُمْ لِيَجْذِبُوا إِلَيْهِمْ إِنْ أَسَمُواهُمْ} [الأَنْعَام: ١٢١].

الماركسيّة في أمريكا اللاتينية في أقصى الجنوب الغربي للعالم هي نفسها ماركسيّة روسيا في أقصى الشمال الشرقي، ولا حاجة بنا للبحث عن أول من تبنّى هذه الفكرة هنا أو هناك، رغم أن كارل ماركس كان أوروبياً ألمانياً. من المعلوم أن محمد بن عبد الوهاب كان عالماً في (توحيده) على ابن تيمية،

(\*) كاتب وباحث في الفكر الديني والسياسي/ مصر.

وأن كتاب «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» هو مجرد تلخيص لكتاب ابن تيمية «اقتضاء الصراط المستقيم: مخالفة أصحاب الجحيم»، ويمكن لمن أراد التأكد من ذلك أن يقارن بين الكتاب الأصل «الاقتضاء» والكتاب الملخص «التوحيد»!!

ولكن من أين اقتبس ابن تيمية نظريته التوحيدية التي لم يسبقه بها أحد من الأولين، وخالفها أغلب الآخرين، بل وانتفض عليه أهل زمانه وأودعوه السجون والمعتقلات؟!

هل كان ما قدمه ابن تيمية من رؤى ونظريات هي من بنات أفكاره؟ أم أنه اقتبس من غيره وكان أكثر جرأة في مخالفته لوصية سيد الأوصياء وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، والتي قال فيها:

«أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَضْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحِ وَعِظْ مُتَعِظْ، وَامْتَحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدْرِ. عِبَادَ اللَّهِ، لَا تَرْكُنُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ، وَلَا تَنْقَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ؛ فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمُنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرْفِ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُجَدِّدُهُ بَعْدَ رَأْيٍ، يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَا يُلْتَصِقُ، وَيُقَرِّبَ مَا لَا يَتَقَارَبُ»<sup>(١)</sup>.

في اعتقادنا، أن ابن تيمية، وأتباعه إلى يومنا هذا، قاموا، وبنجاح لا نظير له، بدور ناقل الردى على ظهره من موضع إلى موضع لرأي يحدّثه بعد رأي، من خلال إلصاق ما لا يلتصق، وتقريب ما لا يمكن له أن يتقارب أو يلتحم. أمّا سرّ نجاحهم المدوّي، فهو أنّ هذه الأمة كانت، ولا زالت، تُؤثّر قيادة العميان على قيادة ذوي البصر والبصيرة، وترى أنّ الشروخ والفوالق التي تمزّق شمل الأمة وتفتّت كيائها هي الضمان الأكيد للوحدة والمنعة!!

يا لها من أمةٍ أسلمت قيادها للعميان { وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا } [الإسراء: ٧٢].

ولنطرح السؤال بصورة مختلفة قليلة.

عاش ابن تيمية في الفترة من نهاية القرن السابع الهجري وحتى القرن الثامن الهجري (٦٦١-٧٢٨هـ)، وقبل هذا، كان هناك العديد من الكتب التي طرحت تصوّراً للعقيدة الإسلامية، دار النقاش فيها حول صفات الذات الإلهية والجبر والاختيار، ولكن لم يرد فيها تناول لمسألة التوسّل والوسيلة باعتبارها من القضايا العقديّة.

فمن أين جاء ابن تيمية بهذه القضية وانفرد باعتبار (التوسّل) شركاً مُخرِجاً من الملة، مضيفاً لذلك ضرورة هدم أضرحة الأنبياء والأئمّة بعد أن أعلنها أصناماً وأوثاناً تُعبد من دون الله؟!!

من ناحية أخرى، فقد وُلد ابن ميمون عام ١١٣٥ ميلادي، الموافق لعام ٥٢٩ هجرية، وجاء إلى مصر قبل سقوط الدولة الفاطميّة ببضعة أعوام، وتوفي عام ١٢٠٤ ميلادية، الموافق لـ ٦٠٠ هجرية، أي: بعدما يقارب من ٣٥ عاماً أمضاها في بلاط الدولة الأيوبيّة طبيباً ومستشاراً، بل وواضعاً لأساس الدولة الصهيونيّة المعاصرة، وقبل مولد ابن تيمية بستين سنة فقط لا غير.

اختير ابن ميمون طبيباً خاصاً لنور الدين علي، أكبر أبناء صلاح الدين، وللقاضي الفاضل البيساني وزير صلاح الدين. واستخدم ابن ميمون نفوذه في بلاط السلطان لحماية يهود مصر، ولما فتح صلاح الدين فلسطين أقنعه ابن ميمون بأن يسمح لليهود بالإقامة فيها من جديد<sup>(١)</sup>.

يقول عبد اللّطيف البغداديّ، الذي زار مصر في هذه الفترة، في كتابه «الإفادة والاعتبار»:

«وكان قصدي في مصر ثلاثة أنفس: ياسين السيمياوي، والرئيس موسى ابن ميمون اليهودي، وأبو القاسم الشارعي، وجاءني موسى فوجدته فاضلاً في الغاية، قد غلب عليه حبّ الرئاسة، وخدم أرباب الدنيا، وعمل كتاباً في الطبّ،

كما عمل كتاباً لليهود سمّاه كتاب (الدلالة)، ولعن من يكتبه بغير اللسان العبرانيّ (ووقفتُ عليه، فوجدته كتاب سوء يُفسد أصول الشرائع والعقائد، بما يظنّ أنّه يصلحها)، لاحظ!!

كان ابن ميمون طبيب البلاط الأيوبي، وهي مكانة رفيعة جعلته صاحب كلمة مسموعة وشفاعة مقبولة لديهم، حيث يذكر المؤرخون أنّ شمويل ابن يهوذا بن تبون، وكان وقتئذٍ يترجم «دلالة الحائرين» إلى العبريّة، طلب منه أن يأذن له بزيارته، فحدّره من الظنّ أنّه سيحدّثه في أيّ موضوع علميّ، ولو مدّة ساعة واحدة بالليل أو بالنهار؛ لأنّ عمله اليومي يجري على النحو الآتي:

«فأنا أقيم في الفسطاط، بينما يقيم السلطان في القاهرة على بعد مسيرة (ميل واحد ونصف ميل). وواجباتي نحو نائب السلطان جدّ ثقيلة؛ فعليّ أن أزوره في كلّ يوم في الصباح الباكر، وإذا ما كان هو أو أحد أبنائه منحرف المزاج فلن أجزؤ على مغادرة القاهرة، بل عليّ أن أقيم معظم النهار في القصر. ولا أعود إلى الفسطاط إلى ما بعد الظهر... وأكون وقتئذٍ قد أوْشكتُ أن أموت من الجوع. ولكنني أجد غرفة الاستقبال مزدحمة بالناس، من رجال الدين، وموظفي الدولة والأصدقاء والأعداء، فأنزل عن دابّتي، وأغسل يدي، وأرجو مرضاي أن يصبروا عليّ حتى أتناول بعض المرطبات، وتلك هي الوجبة الوحيدة التي أتناولها كلّ يوم. ثمّ أستقبل مرضاي... وأظلّ كذلك إلى أن يحلّ الليل، فأصف لهم الدواء وأنا مستلقٍ على ظهري من فرط التعب، حتى إذا جنّ الليل تكون قواي قد خارت حتى لا أستطيع الكلام. ولهذا لن يستطيع إسرائيل أن يجتمع بي على انفراد إلّا في يوم السبت. ففي ذلك اليوم يُقبل عليّ جميع المصلّين، أو الكثرة الغالبة منهم على أقلّ تقدير، بعد صلاة الصبح، ليتلقوا عليّ بعض العلم...»

يرى البعض في الظاهرة الميمونيّة دلالة على تسامح الأيوبيّين مع المخالفين في الدين، إلّا أنّ الضرورة تُليّ علينا أن نتذكّر أنّ نفس هذا العصر هو الذي شهد

أكبر عملية تغيير ديموغرافية تعرّضت لها مصر، حيث جرى إبعاد العناصر الفاطمية ونفيهم من القاهرة، وقد تمت هذه الخطوة على مراحل، بدأت بإخراج السودان وتشريدتهم من القاهرة، ومُزّقوا كلّ ممزّق، كما أنّ رجال صلاح الدين قاموا بالاستيلاء على ممتلكات كلّ من ينتمي إلى الدولة البائدة، حتى لقد بلغ الأمر بأنصاره أنّ كلّ من استحسن منهم داراً من أملاك أتباع الفاطميين وأشياعهم أخرج منها سكّانها واستوطن بها، كما بلغت إجراءات التهجير ذروتها عام ٥٦٩هـ بعد اكتشافه (للمؤامرة المزعومة)، الأمر الذي دفعه إلى نفي وتهجير خدام القصر إلى أقصى بلاد الصعيد. ومن الواضح، أن الإجراءات الأخير قد قضى، وبشكل نهائي، على وجود تجمّعات سكّانية كبيرة للشيعة في القاهرة. ولكي تتواصل عملية التغيير السكّاني، حرص صلاح الدين على تشجيع الهجرات السكّانية إلى مصر بشكل عام، وبالإضافة إلى الأجناد والعسكريين، فلقد قدم إلى مصر في ذلك العهد عدد كبير من الناس على اختلاف أجناسهم من المناطق المختلفة<sup>(١)</sup>.

أمّا حظّ النصارى في مصر، فلم يكن أفضل كثيراً من حظّ الشيعة، فقد «اختفى في ذلك العصر الاحتفال الرسمي بأعياد النصارى، حيث كان الفاطميون يشاركونهم أعيادهم، فاختلفت هذه المشاركة الرسمية من الدولة، حيث كان الفاطميون يضربون في هذا العيد خرايب من ذهب ويفرقونها على أرباب الدولة برسم التبرّك بها، فبطل ذلك في دولة صلاح الدين»<sup>(٢)</sup>.

إذاً، لم يكن هناك تسامح ولا يحزنون، بل قتل وتهجير جماعي، ومحو للأماكن، فكيف يمكن لنا أن نفسر هذه القسوة مع الشيعة والنصارى، ونفسر ذلك (التسامح) مع موسى بن ميمون؟!

الأطم من هذا، أنّ موسى بن ميمون قد استخدم نفوذه في البلاط الأيوبي أولاً (لحماية يهود مصر)، وهو ما لا نعترض عليه، إلّا أنّ من حقّنا أن نسأل عن



السّر الذي حال دون أن تمتدّ هذه الحماية لملايين المصريين من ضحايا يوسف بن أيّوب.

أمّا الأطمّ من هذا الأطمّ، فهو ما ذكره المؤرّخون: «ولمّا فتح صلاح الدين فلسطين أقنعه ابن ميمون بأن يسمح لليهود بالإقامة فيها من جديد». يُضاف إلى ذلك: ما يقوله المؤرّخون أيضاً: وعبر القرون توالى الفتاوى، حول ضرورة بناء الهيكل، والذي أصّل لذلك (موسى بن ميمون) الذي زار القدس عام ١٢٦٧م، (أثناء العصر الأيوبي) ولفت انتباه اليهود إلى ضرورة بناء هيكل، ليكون رمزاً لوحدهم.. هيكل مركزيّ وحيد موحد يكون بديلاً عن أماكن عبادتهم في الكنّس، بحيث يتوقّف عصر الحاخامات، ويبدأ عصر الكهنة ممّن يعودون بالعبادة من بدعة المزامير إلى عادة تقديم الأضاحي والقربان. وذهب موسى بن ميمون إلى أنّ الهيكل الثالث لن يُبنى بأيدي بشرية، وإنّما سينزل كاملاً من السماء.

إنّه إذاً من فتح باب الاستيطان اليهوديّ في فلسطين، وهو المؤسّس الحقيقي للمشروع الصهيونيّ المعاصر، وليس «حاييم ويزمان»، ولا «بن غوريون»، أو حتى «نتن ياهو».

يقول ابن ميمون في كتابه «دلالة الحائرين»:

معلوم أنّ أبانا إبراهيم عليه السلام نشأ في ملّة الصابئة، ومذهبهم أن ليس ثمّ إله إلّا الكواكب، وأنّ الشمس هي الإله الأعظم، وكذلك أيضاً قالوا: إنّ سائر السبعة كواكب آلهة، لكنّ النيرين أعظم، كما قالوا بقدم العالم، وزعموا بأنّ آدم مولود من ذكر وأنثى، ولكنّهم يعظّمونه ويقولون: إنّّه كان نبياً رسول القمر.

وبحسب تلك الآراء، أقام الصابئة الأصنام للكواكب أصنام الذهب للشمس، وأصنام الفضة للقمر، وقسموا المعادن والأقاليم للكواكب، وبنوا

الهياكل، واتَّخذوا فيها الأصنام، وزعموا أنَّ قوى الكواكب تفيض على تلك الأصنام، فتتكلَّم تلك الأصنام وتفهم وتعقل وتوحي للناس وتعلِّم الناس منافعهم. كذلك قالوا في الأشجار، التي هي من قسمة هذه الكواكب؛ إذ أفردت تلك الشجرة لذلك الكوكب وغرست به، وفعل لها وفعل بها، كذا فاضت روحانيَّة ذلك الكوكب على تلك الشجرة، وتوحي للناس، وتكلِّمهم في النوم، تجد كلَّ ذلك منصوباً في كتبهم التي أنبَّهك عليها، وهؤلاء كانوا أنبياء البعل، وأنبياء العشتروات، المذكورين عندنا، الذين تمكَّنت عندهم هذه الآراء حتى تركوا الربَّ ونادوا: أيُّها البعل أجبننا، كلُّ هذه لشهرة تلك الآراء وفشاء الجهل وكثر هذيان العالم حينئذٍ في هذا النوع من الخيالات، فنشأت فيها آراء، وصار منهم مشعبد ومتفائل وساحر، ومن يرقى رقية، ومن يسأل جاناً، أو تابعه، ومن يستشير الموتى.

وقد بيَّنا كيف قام أبونا إبراهيم بنقض تلك الآراء حتى نبى، فكمل الغرض، فأمر بقتل هؤلاء ومحو آثارهم واستئصال شأفتهم وهدم مذابحهم ومنع من تبع شيئاً من سيرهم تلك.

وقد علمت من نصوص التوراة في عدَّة مواضع: أنَّ القصد الأوَّل من الشريعة كلّها إزالة عبادة الأصنام، ومحو أثرها، وكلَّ ما يتعلَّق بها، حتى ذكرها، وكلَّ ما يؤدِّي إلى شيء من أعمالها، مثل الجانِّ والتابعة والإمرار من النار والعراف والمشعبد والمتفائل والساحر ومن يرقى رقيةً ويستشير الموتى والتحذير من التشبُّه بشيء من أعمالهم هذه.

فما أعظم كلَّ فريضةٍ تخلَّصنا من هذه الغلطة العظيمة وتردِّنا إلى الاعتقاد الصحيح، وهو أنَّ ثمَّ إلهاً خالق كلِّ هذه، وهو الذي ينبغي أن يُعبد ويحبَّ ويُخاف، لا تلك المظنون بها أنَّها آلهة، وأنَّ هذا الإله الحقَّ لا يحتاج في القرب منه وحصول رضاه لأمر فيها مشقَّة بوجه.

ويواصل ابن ميمون: إنَّ كثيراً من الشرائع إنَّما يبيِّن لي معناها وعرفني عللها: وقوفي على مذاهب الصابئة وآرائهم وأعمالهم وعبادتهم، وقراءتي لكتبهم، وأكبر كتاب لذلك هو كتاب «الفلاحة النبطية» لابن وحشية، وهذا الكتاب مملوء من هذيانات عابدي الصنم، ومما تميل إليه أنفُس العوام، مثل الطلسمات واستنزال الروحانيات والسحر والجنِّ والغيلان التي تأوي البراري....

فهذه كلُّها هي أسفار عبادة الصنم التي أخرجت للسان العربي، وهي مشتملة على أكثر آراء الصابئة وأعمالهم، المشهور بعضها في العالم، أعني: بنيان الهياكل، واتخاذ الصور من المسبوكات والحجارة فيها، وبنيان المذابح، والتقريب عليها: إمَّا ذبائح أو طعام أو اجتماع للصلوات، ويجعلون فيها مواضع معظَّمة جدًّا يسمونها هيكل الصورة العقلية....

ومعرفة تلك الآراء وتلك الأعمال هو باب كبير جدًّا في تعليل الفرائض؛ لأنَّ شريعتنا كلُّها أصلاً، وقطبها الذي عليه تدور، هو محو تلك الآراء من الأذهان، وتلك الآثار من الوجود، لمحوها من الأذهان، ولمحوها من الوجود، قال: تنقضون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتمحون أسماءهم من تلك المواضع. انتهى<sup>(١)</sup>.

من حقِّ القارئ أن يتساءل عن الفائدة من عرض آراء هذا الحاخام اليهودي الذي يتحدَّث عن الصابئة ومعتقداتهم، في حين يقودنا البحث إلى أنَّ الأفكار التي طرحها هذا اليهودي الصهيوني (الذي تمكَّن، ومن خلال موقعه في البلاط الأيوبي، أن يؤسِّس للوجود اليهودي في فلسطين)، كانت ولا زالت بالغة التأثير في الواقع المعاصر للعالم الإسلامي، والدليل على ذلك: هي خفَّة العقل التي يتحدَّث بها بعض المؤرِّخين عن ابن ميمون (الفيلسوف المسلم)!!

ومن ذلك ما كتبه بعضهم في موقعه الإلكتروني:

أمَّا موسى بن ميمون، فقد عاش في المحيط العربي والإسلامي، بعد فيلون

بسته قرون، فقد وُلِدَ في قرطبة سنة ١١٣٥ ميلادية، وتوفّي في القاهرة سنة ١٢٠٤ ميلادية، واشتهر بأنّه أهمّ شخصيّة يهوديّة خلال العصور الوسطى، كما اشتهر كتابه (دلالة الحائرين) بأنّه واحد من أهمّ الكتب التي دوّنها اليهود. كان ابن ميمون قد تلقّى العلم على يد ثلاثة من العلماء المسلمين، فتلقّى مباشرةً من ابن الأفلح، ومن أحد تلاميذ ابن الصائغ .. وتلقّى من ابن رشد بشكلٍ غير مباشر، حين عكف - كما يذكر ابن ميمون نفسه - على دراسة مؤلّفات ابن رشد طيلة ثلاثة عشر سنة.

والمطالع في أحد أهمّ كتب ابن ميمون (دلالة الحائرين) لا يجد إلّا صدىً لأفكار فلاسفة الإسلام وعلماء الكلام، خاصّةً الأشاعرة، ولذلك، فحين ألّف (إسرائيل ولفنسون) كتابه (موسى بن ميمون، حياته ومصنفاته)، وهو الكتاب المنشور بالعربيّة في القاهرة سنة ١٩٣٦م، كتب الشيخ مصطفى عبد الرزاق مقدّمة الكتاب، فقال فيها: إنّ موسى ابن ميمون يعدّ من الفلاسفة المسلمين! ثم ذكر العديد من الأدلّة المؤيّدّة لذلك.

وفي مقدّمة تحقيقه لكتاب (دلالة الحائرين) يقول الدكتور حسين آتاي: إذا أخذنا في الاعتبار أنّ الشهرستاني قد عدّ حنين بن إسحاق النصراني فيلسوفاً إسلامياً، فإنّه لا وجه للترفة بينه وبين موسى بن ميمون الإسرائيلي.. وكما يعتبر الفلاسفة اليهود المشاركين في الفلسفة الغربيّة - يقصد أمثال: اسبينوزا وكارل ماركس وبرجستون - في بلاد الغرب، فلاسفةً غربيّين، فإنّ الفلاسفة اليهود والنصارى الذين شاركوا في الفلسفة الإسلاميّة، وعاشوا في العالم الإسلاميّ آنذاك، يُعتبرون فلاسفةً إسلاميّين ؛ فمحمّد أبو بكر بن زكريا الرازي، مع أنّه كان لا يعتنق ديناً ما، فقد اعتُبر من بين فلاسفة المسلمين. وعلى ذلك، فالفلاسفة أمثال موسى بن ميمون لا يُعتبرون فلاسفةً من ناحية الشكل فحسب، لمجرّد انتسابهم للمجتمع الإسلامي، بل لمشاركتهم في ثقافة ذلك

المجتمع أيضاً؛ لذلك، فموسى بن ميمون فيلسوف إسلامي من ناحية الشكل ومن ناحية الموضوع؛ لأنه نشأ في ذلك المناخ الفكري، فساهم فيه، وأضاف إليه بقدر ما أخذ منه. وقولنا: إنه فيلسوف إسلامي، لا يعني: أنا نقول بأنه مسلم، آمنَ بالإسلام ديناً - كان موسى بن ميمون قد أشهر إسلامه وهو في المغرب، ثم ارتدَّ في مصر - بل هو فيلسوف إسلامي بالمعنى الثقافي الحضاري فحسب. والدارس للثقافة الإسلامية - ولا يزال الكلام هنا للدكتور آتاي - حين يقرأ كتابه «دلالة الحائرين» يرى أن موسى بن ميمون حتى في مناقشاته لنصوص التوراة، إنما يصدر عن فكر وثقافة إسلامية، وأنه عندما ينتقد المتكلمين المسلمين يكون نقده لهم بأسلوب خالٍ من الشدة التي ينتقد بها المتكلمون المسلمون بعضهم بعضاً، وأنه ينتقد بني دينه بشكلٍ أشد .. إذاً، فابن ميمون يُعتبر فيلسوفاً إسلامياً<sup>(١)</sup>.

هنيئاً لنا بابن ميمون وابن زيدان رضي الله عنهما!!

إنه فيلسوف من فلاسفة الإسلام - كما يزعم الشيخ مصطفى عبد الرزاق - في تقديمه لكتاب (إسرائيل ويلفنسون) عن ابن ميمون الذي أطنب فقال: «أبو عمران موسى بن ميمون فيلسوف من فلاسفة الإسلام؛ فإنَّ المشتغلين في ظلَّ الإسلام بذلك اللون من ألوان البحث النظري، مسلمين وغير مسلمين، يسمون منذ أزمان فلاسفة الإسلام»<sup>(٢)</sup>.

إنه إذاً (فيلسوف من فلاسفة الإسلام)، كما يقول هؤلاء البسطاء (تأثراً؟! ) (وتأثيراً وهذا مؤكَّد) وهنيئاً للصهاينة بأعداءٍ يقود مسارهم الفكري حفنة من الحمقى والمغفلين.

الرجل كما وصفه عبد اللطيف البغدادي: (يريد أن يُفسد أصول الشرائع والعقائد، بما يظنُّ أنه يصلحها)، والوصف الصحيح لما قدَّمه الرجل في كتابه (يريد أن يُفسد العقائد بما يُوهم أنه يصلحها، لا بما يظنُّ أو يُظنُّ) فهؤلاء الخبثاء

ليسوا حقى أو مغفلين مثل قادة الفكر العربيّ المعاصر الذين لا يعنيههم إلّا حصّتهم من الشهرة والمال!!

!

لقد جاء الرجل في موعده مع التاريخ الذي كان يشهد في ذلك الوقت أبشع عملية إبادة للحجر والبشر والعقل الإسلاميّ على يد القائد الأيوبي يوسف بن أيّوب حيث تمثّل هذا في القضاء على الدولة الفاطميّة وتصفية موجوداتها ومنتجاتها الفكرية والثقافية والعقلية، وتمهيد الأرض أمام إقامة الكيان الصهيوني في الأرض الفلسطينية المقدّسة، تلك المهمّة التي لا يمكن لها أن تكتمل إلّا من خلال تهويد المسيحية والإسلام.

أمّا تهويد المسيحيّة الغربيّة فقد أصبح الآن حقيقة واقعة يعرفها قراء الصحف والمجلات الذين يقرأون يومياً مصطلح «المسيحيّة الصهيونية».

أمّا تهويد الإسلام أو الاختراق الصهيونيّ للإسلام، فهو ذلك اللّغز الذي ما زال يحتاج إلى من يفكّ رموزه، وهذا ما نحاول القيام به في هذا الكتاب.

كيف يمكن أن يكون الصهيونيّ موسى بن ميمون القابع في بلاط صلاح الدين (حامي حمى العروبة والإسلام!!) (فيلسوفاً مسلماً)، وهو في الوقت نفسه (فاتح باب الاستيطان الصهيونيّ في فلسطين ومؤسس الهيكل الثالث).

إنّها البلاهة بعينها، وإن أردت الدقّة قلت: إنّها الخيانة بعينها، ولا عجب أن ينجح الصهاينة الآن في التلاعب بقيادة أمة لا تعي ولا تقرأ، وإن قرأت لا تفهم، ناهيك عن أنّها لا تعتبر بما لحق بها من مأسّ قريبة أو بعيدة.

!

تُرى من هؤلاء الذين يقصدهم ابن ميمون بالصابئة (المسؤولين عن خراب

العالم وفساد العقائد والذين يتعيّن محو آرائهم من الأذهان، وآثارهم من الوجود)، ومَن هؤلاء الذين (يتعين نقض مذابحهم وكسر أنصابهم ومحو أسمائهم من تلك المواضع)؟! هل كان هناك ثمة وجود للصابئة في مصر التي كانت فاطميّة عند وصول ذلك الصهيونيّ، ثمّ أضحت أيوبيّة، فكان أن احتفى به المرتزقة الأيوبيّون في نفس الوقت الذي طرد فيه مئات الآلاف من شيعة أهل البيت إلى المنافي والفيافي والقفار والهند وجنوب أسوان؟!!

الجواب واضح، ولا يمكن أن يفهمه إلّا من تمرّس على الاستماع للصهاينة المعاصرين، الذين يصرّحون بشيء ويقصدون شيئاً آخر لمجرّد وجود تماثل معه في بعض الصور والأشكال.

الصابئة الذين يقصدهم مستشار صلاح الدين يوسف بن أيوب وطبيبه الخاصّ، هم المسلمون، وهو المصطلح القديم المستخدم من قبل قريش في وصف المسلمين الأوائل، تماماً مثلما يصف الصهاينة المعاصرون (المقاومين) بـ (الإرهابيّين) و(المخربين).

يقول أبو أنس ماجد البنكاني في كتابه عن الصابئة:

أصبحت هذه الكلمة علماً لكلّ من أسلم وتبع النبيّ محمّداً، حيث كان كفّار قريش يسمّون من أسلم بالصابئ. ألا ترى أنّه لما بُعث محمّد وصفه المشركون بالصابئ، وربما دعوه بـابن أبي كبشة، الذي هو أحد أجداد أمانة الزهرية أم النبيّ، كان أظهر عبادة الكواكب في قومه فزعموا أنّ النبيّ ورث ذلك منه!! وفي حديث عمران بن حصين أنهم كانوا في سفر مع النبيّ ونفذ ماؤهم فابتغوا الماء فلقوا امرأة بين مزادتين على بعير، فقالوا لها: انطلقي إلى رسول الله، فقالت: الذي يقال له: الصابئ، قالوا: هو الذي تعنين، وساق حديث تكثير الماء.

وكانوا يسمّون المسلمين (الصبابة)، كما ورد في خبر سعد بن معاذ أنّه كان صديقاً لأمية بن خلف، وكان سعد إذا مرّ بمكة نزل على أميّة، فلمّا هاجر النبيّ

إلى المدينة انطلق سعد ذات يوم معتمراً، فنزل على أمية بمكة، وقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلّي أطوف بالبيت، فخرج به، فلقيهما أبو جهل، فقال لأمية: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ قال: سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم الصباة.

كما يروي ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة قصّة بالغة الدلالة تُظهر أنّ التيار الأمويّ القرشيّ المعادي للإسلام كان يرى أنّ الدعوة التي حملها رسول الله محمد 'تمثّل امتداداً للدعوة الصابئية التي حملها جدّ النبيّ لأمه (أبو كبشة)، الذي نسب إلى المعتقد الصابئي.

قال ابن أبي الحديد: روى الزبير بن بكار في (الموفقيات) وهو غير متهم على معاوية ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة؛ لما هو معلوم من حاله من محاببة عليّ عليه السلام، والانحراف عنه: قال المطرف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبى يأتيه فيتحدث معه، ثم ينصرف إلي فيذكر معاوية وعقله ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيتُه مغتماً فانتظرتُه ساعة، وظننتُ أنّه لأمر حدث فينا، فقلت: مالي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به. إنك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنّك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بنى هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإنّ ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه، فقال: هيهات هيهات! أي ذكر أرجو بقاءه! ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: أبو بكر، ثمّ ملك أخو عدي، فاجتهد وشمر عشر سنين فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: عمر، وإن ابن أبي كبشة ليُصاح به كلّ يوم خمس مرات: (أشهد أنّ محمداً رسول الله)، فأى عملي يبقى، وأى ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلّا



دفناً دفناً.

الصابئة إذاً في الوجدان السياسي الأموي - وهم الذين حاربوا نبي الإسلام قبل الفتح وبعد الفتح ويوم صفين - هم المسلمون، وعلى رأسهم محمد بن عبد الله (ابن أبي كبشة) رأس الصابئة!! ومن المفيد أيضاً أن يطلع القارئ على ما ورد في موقع التاريخ المسيحي تحت عنوان «مكة (مكة) معابد الله إله القمر الوثني» حيث يفترى هؤلاء على نبيّنا ' زاعمين أن المسلمين يعبدون إله القمر<sup>(١)</sup>. لا يحتاج المرء أن يكون عبقرياً ليدرك أن الصابئة الذين نوّه عنهم (الفيلسوف المسلم) ابن ميمون ودعا لإبادتهم وتحطيم أصنامهم من الوجود هم نحن المسلمون!!!

كان على السذج الذين أوردنا مدائحهم سابقاً لابن ميمون أن ينتبهوا أن هذا اليهودي، وجرياً على عادة أسلافه ممن حاربوا نبيّنا محمداً ' يجمع بين خصلتين: الأولى: إنكاره للنبوّة المحمدية، والثاني: عداؤه لها، وهو في ذلك يختلف عن غيره من أهل الكتاب ممن اكتفوا برفض الاعتراف ولم يتجاوز الأمر بهم إلى حدّ العدااء الصريح.

نتنقل إلى ابن تيمية (شيخ الإسلام) المزعوم، وهو يكرّر وينقل عن ابن ميمون، ربّما بصورة حرفيّة، واقرأوا النصّ التالي، نقلاً عن كتاب اقتضاء الصراط المستقيم:

«وكذلك نهى عن اتخاذ القبور مساجد، وإن كان المصلي عندها لا يصلي إلا لله، لئلا يفضي ذلك إلى دعاء القبورين والصلاة لهم، وكلا الأمرين قد وقع؛ فإنّ من الناس من يسجد للشمس وغيرها من الكواكب، ويدعو لها بأنواع الأدعية والتعزيات، ويلبس لها من اللباس والخواتم ما يظنّ مناسبتها لها، ويتحرّى

الأوقات والأمكنة والأبخرة المناسبة لها في زعمه، وهذا من أعظم أسباب الشرك الذي ضلّ به كثير من الأولين والآخرين، حتى شاع ذلك في كثير ممّن ينتسب إلى الإسلام، وصنّف فيه بعض المشهورين كتاباً سَمّاه: السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم على مذهب المشركين من الهند والصابئين والمشرّكين من العرب وغيرهم، مثل طمطم الهندي وملكوشا البابلي وابن وحشية وأبي معشر البلخي وثابت بن قرّة، وأمثالهم ممّن دخل في الشرك، وآمن بالجبّ والطاغوت، وهم منتسبون إلى أهل الإسلام، (لاحظ أنّ نفس هذه الأسماء وردت في دلالة الحائرين، وأنّه يُدرّجهم في إطار الإسلام، بينما يسمّيهم ابن ميمون بالصابئة)، كما قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۚ وَلَيْكُمُ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنَ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا } [النساء: ٥١-٥٢]، وقد قال غير واحد من السلف: الجبّ: السحر، والطاغوت: الأوثان، وبعضهم قال: الشيطان، وكلاهما حقّ، وهؤلاء يجمعون بين الجبّ الذي هو السحر، والشرك الذي هو عبادة الطاغوت، كما يجمعون بين السحر وعبادة الكواكب، وهذا ممّا يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام، بل ودين جميع الرسل أنّه شرك محرّم، بل هذا من أعظم أنواع الشرك الذي بُعثت الرسل بالنهي عنه، ومخاطبة إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه لقومه كانت في نحو هذا الشرك، وكذلك قوله تعالى: { وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ } [الأنعام: ٧٥]، فإنّ إبراهيم عليه السلام سلك هذه السبيل؛ لأنّ قومه كانوا يتخذون الكواكب أرباباً يدعونها ويسألونها، ولم يكونوا هم ولا أحد من العقلاء يعتقد أنّ كوكباً من الكواكب خلق السموات والأرض، وإنّما كانوا يدعونها من دون الله على مذهب هؤلاء المشركين». انتهى.

من حقّقنا ومن واجبنا أن نستفسر من ابن تيمية عن سرّ هذا التطابق الذي

يكاد أن يكون حرفياً بين كلامه وكلام ابن ميمون، حتى أن التطابق يصل إلى اقتباس المراجع، فكلاهما يقتبس من ابن وحشية، وهذا يجعل منه حجة على الصابئة المسلمين، وذلك يجعله حجة على المسلمين الصابئة.

ولا شك أن لابن تيمية ميزة يتفوق بها على ابن ميمون وقدرة أكبر على تحقيق الغرض الأساسي، كونه (شيخاً للإسلام)، ومن ثم فهو لن يعاني صعوبة إدراج المسلمين في خانة المشركين وعبداء الأوثان، تمهيداً لتوجيه الضربة القاضية لهم، وهي هدم أوثانهم ومحوها من الأذهان، هذا طبعاً بعد تحديد هذه الأوثان، التي سيتضح بعد قليل أنها أضرحه الأنبياء والأئمة تمهيداً لإزالتها نهائياً من الأذهان والقلوب ليسود الأرض (التوحيد الذي هو حق الله على العبيد).  
يمتاز ابن تيمية بقدرة على أسلمة أفكار ابن ميمون من خلال استخدام كلمة (أو) الساحرة... وتأمل هذا النص التيموي:

«والخليل صلوات الله عليه أنكر شركهم بعبادة الكواكب العلوية وشركهم بعبادة الأوثان التي هي تماثيل وطلاسم لتلك الكواكب أو هي تماثيل لمن مات من الأنبياء والصالحين وغيرهم وكسر الأصنام»..

فالتماثيل هي طلاسم لتلك الكواكب أو لمن مات من الأنبياء. هل هي للكواكب أم للأنبياء؟!  
إما هذه أو تلك!!

ولكنه على كل حال فنّ الأسلمة، عبر الدحرجة والاستغفال!!  
إنه فنّ أسلمة الأفكار الصهيونية الميمونية عبر دحرجة المعاني والتلاعب بالألفاظ، وعلى القارئ الغبي أن يأخذ كلام ابن تيمية (أو) كلام ابن ميمون، وكلاهما يخلط بين الكواكب والأنبياء، وبين المسلمين والصابئة، اعتماداً على فلاسفة آخر الزمان الذين يأخذون هذه الكلام السام على علّاته، رغم أن هذه الاتهامات لا تخص المسلمين من قريب أو بعيد، ولكن شيخ الإسلام قام

بأسلمته ودحرجة كرة النار إلى عقر دارنا لتحرقنا وتحرق كل الأغبياء الذين يحسنون ظناً بالصهاينة وأزلامهم حتى ولو تلقبوا بألقاب الإسلام والإسلام منهم براء.

فقط كل ما هو مطلوب منك أيها المسلم أن تقبل أن تُوصف من قبل (ابن ميمون) أو (نتنياهو) بأنك صابئي إرهابي مشرك نجس، وأن اليهود وحدهم هم شعب الله المختار!

إنه نفس ما صرح به محمد بن عبد الوهاب في كتابه المسمى بـ (التوحيد) عندما اتهم المسلمين بعبادة الأوثان قائلاً: «ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله». (باب: ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان... التصريح بوقوعها، أعني: عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة)!!

!!

من أين جاء هؤلاء بهذا الادعاء عن عبادة المسلمين لإله القمر؟! تحدثنا سابقاً عن جماعة المغفلين الذين أشاد بعضهم بالخدمات الجليلة التي قدمها ابن ميمون للإسلام والمسلمين، وهو ما لا يختلف عن إشادة بعض (الزعماء السياسيين) بتوجهات نتنياهو وشارون السلمية!!

ولكن هل كان هؤلاء هم أول من اخترع هذا الاتهام ووفر مادته؟! الجواب: لا.... ويمكن لمن قرأ ما يُسمى بـ (كتب الصحاح) أن يدرك أن حالة البلاهة والغفلة وربما الخبث وسوء النية لم يخترعها ابن تيمية، وإن أردت الدقة قُلْتَ: إن الاختراق اليهودي للإسلام لم يبدأ مع (شيخ الإسلام)؛ لأن الأمر أقدم من هذا. ودونك ما رواه البخاري في (صحيحه):

٥٥٣- حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ، قَالَ حَدَّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ مُعَاوِيَةَ، قَالَ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ،

عَنْ قَيْسٍ، عَنْ جَرِيرٍ، قَالَ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً - يَعْنِي الْبَدْرَ - فَقَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُصَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا". ثُمَّ قَرَأَ { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ } [ق: ٣٩]، قَالَ إِسْمَاعِيلُ افْعَلُوا لَا تَفُوتَنكُمْ.

٨١٤- حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، قَالَ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَعَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ اللَّيْثِيُّ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، أَخْبَرَهُمَا أَنَّ النَّاسَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ: هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ. قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يُخْشِرُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبَقِيَ هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ. فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبُّنَا. فَيَدْعُوهُمْ فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ الرُّسُلِ بِأَمَّتِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ، وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبِقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرَدِلُ ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَيَخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ فَيَخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ قَدْ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءٌ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حِمِلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ

الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، مُقْبِلٌ  
بِوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ فَيَقُولُ يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا،  
وَأَحْرَقَنِي ذُكَاؤُهَا. فَيَقُولُ هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فُعِلَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذَلِكَ  
فَيَقُولُ لَا وَعِزَّتِكَ. فَيُعْطِي اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ  
النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى الْجَنَّةِ رَأَى بَهْجَتَهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ قَالَ:  
يَا رَبِّ قَدَّمَنِي عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيعَ  
أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ سَأَلْتَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا أَكُونُ أَشَقَى خَلْقِكَ.  
فَيَقُولُ فَمَا عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَهُ، فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُ  
غَيْرَ ذَلِكَ. فَيُعْطِي رَبُّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَقْدُمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا بَلَغَ  
بَابَهَا، فَرَأَى زَهْرَتَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ النَّصْرَةِ وَالشُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ  
يَسْكُتَ، فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ اللَّهُ وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ،  
أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ لَا  
تَجْعَلْنِي أَشَقَى خَلْقِكَ. فَيَضْحَكُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذُنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ  
فَيَقُولُ تَمَنَّ. فَيَتَمَنَّى حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ أُمْنِيَّتُهُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَمَنَّ كَذَا وَكَذَا.  
أَقْبَلَ يُذَكِّرُهُ رَبُّهُ، حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الْأُمَانِيُّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ.  
قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ لِأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ لَكَ ذَلِكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَمْ أَحْفَظْ مِنْ رَسُولِ  
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَوْلَهُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ إِنِّي سَمِعْتُهُ  
يَقُولُ: ذَلِكَ لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ. انتهى.

الحديث إذاً عن عبادة بعض المسلمين (لرب القمر) لم تأت من فراغ، بل  
جاءت مادتها من تلك الخرافات والأكاذيب التي غصت بها هذه الكتب، والتي  
يستميت البعض ويصر على اعتبارها صحيحة، ويرفضون القيام بأي مراجعة  
لها، بل ويرون فيمن يطالب بهذه المراجعة زنديقاً يريد أن يهدم الإسلام ويقضي

عليه.

كيف يمكن لمسلم يقرأ في كتاب الله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، أن يصدّق أكذوبة (رؤية الله على هيئة القمر)، أي: مثل القمر، حتى ولو كانت هذه الرؤية المزعومة يوم القيامة؟!

المسلم الذي يقرأ قول الله تبارك وتعالى: {وَمَنْ آيَنَتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [فصلت: ٣٧]، لا يمكن مقارنته أو مشابهته بالصائبي الذي يتصوّر (سواء كان هذا صدقاً أو افتراءً عليهم) أنّ هذه الكواكب هي آلهة تُعبد من دون الله، وما هي إلا خلق من خلقه، وآية من آياته كما جاء في النصّ القرآني.

الادّعاء على الإسلام والمسلمين بما لم يكن يوماً ما عقيدة لهم هو افتراء وقح وخائب، وهذا هو دأب أعداء الأنبياء والمرسلين الذين لم يقصّروا في الافتراء عليهم بما لا حاجة ملحة لذكره في هذا المقام.

:

النموذج أو القالب النظري الذي أسّس له ابن ميمون وأسس عليه، هو نموذج الصابئة، الذين يؤمنون بأنّ الكواكب هي الآلهة وقيمون الهياكل لعبادتها ويضعون فيها الأصنام والتماثيل ويتقربون لهذه الآلهة بتقديس هذه الأصنام والذبح لها واستشارتها إلخ إلخ، وهو نفس القالب النموذج الذي قام ابن تيمية بأسلمته ووضعنا فيه، ولكن هذه المرّة من أسفل إلى أعلى، أي: أنه لم يبذل جهداً كبيراً في إثبات أنّ المسلمين يعبدون الكواكب وقيمون لها الهياكل، بل بدأ من اتهامنا بصناعة الهياكل (الأضرحة، الأصنام، التماثيل) ثمّ التقرب بها إلى الإله (اللي بالي بالك) وهو، بكلّ تأكيد، ليس هو الله الواحد الأحد الفرد

الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

فالمساجد التي توجد بها أضرحة الأنبياء والأئمة هي نفسها هياكل عبادة النجوم التي يتعين إزالتها من الوجود ومن الأذهان كما قال ابن ميمون. أما ابن تيمية فكان واضحاً فاضحاً في حملته على قبور (هياكل) أنبياء (إله القمر) الذي يفترى علينا هو وابن ميمون ومعاوية بن أبي سفيان وموقع التاريخ القبطي بعبادته، قائلاً في كتابه: اقتضاء الصراط.. غير المستقيم: «فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين والملوك وغيرهم يتعين إزالتها بهدم أو بغيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين، وتكره الصلاة فيها من غير خلاف أعلمه، ولا تصحّ عندنا في ظاهر المذهب لأجل النهي واللّعن الوارد في ذلك، ولأحاديث أخر، وليس في هذه المسألة خلاف لكون المدفون فيها واحداً».

أما محمد بن عبد الوهاب، فكان أكثر وضوحاً من أساتذته المشار إليهم سابقاً، عندما قال: إنّ «بعض هذه الأمة يعبد الأوثان».

لماذا يصّر صاحب التوحيد التيمويّ الوهابي الميمونيّ الصهيونيّ على اعتبار أنّ التوسّل بالموتى هو شرك بالله؟!

الجواب: إنّ ابن ميمون كان منكراً للبعث الجسديّ، وهي قضيّة، كانت ولا زالت، مثار خلاف بين اليهود، ما بين منكر ومثبت.

يقول آلان أنترمان: ووفقاً لما ذكره الراي شيئا، فإنّ المرء إذا مات انقطع وعيه بما يحدث على الأرض. ودعم رأيه بما ورد في سفر الجامعة (لكن الموتى لا يعرفون شيئا). أمّا وجهة النظر الأخرى المعارضة، فقال بها معاصره الراي يوناثان، وهي: أن الميت يبقى واعياً حقاً بما يجري....



ورغم أن ابن ميمون يذكر عقيدة البعث كواحدة من مبادئه العقديّة الإيمانيّة، فإنّه تناولها بشكل غامض، وفي كتاباته التي ننحو نحواً فلسفياً لم يتناول إلاّ مسألة الخلود ومسألة طبيعة الروح بعد تخلصها من الجسد، وقد اتّهمه زملاؤه بإنكار عقيدة البعث وتقويض أسسها<sup>(١)</sup>.

وبينما يقول ابن ميمون: «وصار منهم مشعبد ومتفائل وساحر ومن يرقى رقية ومن يسأل جاناً ومن يستشير الموتى». نرى ابن تيمية يدلي بدلوه: «وإذا كان السفر إلى بيت من بيوت الله غير المساجد الثلاثة لا يجوز، وقد جاء في قصد المساجد من الفضل ما لا يحصى، فالسفر إلى بيوت الموتى من عباده أولى أن لا يجوز».

وهكذا فقد اعتبر ابن تيمية السائر على نهج أستاذه ابن ميمون حذو القذّة بالقذّة والنعل بالنعل، أضرحة الأنبياء والأئمة الطاهرين مجرد بيوت للموتى!! لا حاجة بنا أن نذكر بقوله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ} [البقرة: ١٥٤]،

وقوله سبحانه وتعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} ﴿١٣٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

ومن ثمّ، فالذين يرفضون التواصل بين من يمشون على الأرض من الأحياء وبين سادات الأمة من الأنبياء والأوصياء، الذين هم، وبكل تأكيد، أحياء عند ربهم يرزقون، هم إمّا من الصهاينة الذين يكرهون هذه الرموز ويرون فيهم أعداء دائمين للمنهج الصهيوني الاستكباري، أو من الملاحدة الذين حكى عنهم كتاب الله العزيز: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [الجاثية: ٢٤]،

لهذا قال ابن تيمية في كتابه «الردّ على المنطقيين»<sup>(١)</sup> ط ٦ (ص ٤٥٤ وما بعدها):

إنّ الصابئة نوعان: صابئة حنفاء وصابئة مشركون. أمّا الصابئة الحنفاء فهم بمنزلة من كان متبعاً لشريعة التوراة والإنجيل قبل النسخ والتحريف والتبديل من اليهود والنصارى، وهؤلاء يحمدهم الله وأثنى عليهم. والثابت أن الصابئين قوم ليس لهم شريعة مأخوذة عن نبي، وهم قوم من المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين، ولكنهم عرفوا الله وحده، ولم يُحدثوا كفراً، وهم متمسكون (بالإسلام المشترك)، وهو عبادة الله وحده وإيجاب الصدق والعدل وتحريم الفواحش والظلم ونحو ذلك ممّا اتّفقت الرسل على إيجابه وتحريمه، وهم يقولون (لا إله إلا الله) فقط، وليس لهم كتاب ولا نبي. والصحيح أنّهم كانوا موجودين قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأرض اليمن. وأمّا الصابئة المشركون فهم قوم يعبدون الملائكة ويقرؤون الزبور ويصلون، فهم يعبدون الروحانيات العلوية.

لقد قام (التوحيد الميموني التيموي الوهابي) على الأسس التالية:

١. أنّ المسلمين هم جماعة من الصابئة، بعضهم حنفاء وبعضهم مشركون وثنيون يعبدون الأوثان، كما قال ابن تيمية فيما ذكرناه سابقاً.
٢. إنكار البعث والمعاد والحياة الآخرة، ومن ثمّ عدم جواز التواصل مع (الموتى)، وهم الأنبياء والأئمة والصالحين.
٣. ضرورة إزالة الأصنام والأوثان (أضرحة الأنبياء والأئمة) ومحوها من الوجود تمهيداً لإزالتها من المعتقد والأذهان بالكامل.
٤. إنكار نبوة محمد ' الذي لم يأت بشيء من عنده، وإنما قام بنقل ما ورثه عن جدّه (أبي كبشة)، وهو ما صرّح به بنو أمية أكثر من مرة (فلا خبر جاء ولا وحي نزل)، وما يستتبع ذلك من إنكار لوجود أئمة أهل بيت النبوة؛ إذ لا

نبوة، ومن ثم لا بيت.

٥. تشريع حروب الإبادة التي تعرض لها النبي ' وأهل بيته عليهم السلام، والآن مقاماتهم وأضرحتهم، عودة بنا إلى الوضع الأصلي (الصابئة الخنفاء). هذا هو أصل الحكاية.

\* \* \*

### الهوامش:

- (١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٤.
- (٢) <http://www.marefa.org/index.php>
- (٣) عدنان محمد فايز الحارثي، عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي: ص ٤٠٣ - ٤٠٦، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، باختصار.
- (٤) المصدر نفسه: ص ١١١ - ١٣٠، باختصار.
- (٥) موسى ابن ميمون، دلالة الحائرین، ترجمة: حسين أتاى. الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- (٦) <http://www.ziedan.com/awham/٤.asp>
- (٧) إسرائيل ويلفنسون، موسى ابن ميمون، مقدّمة الكتاب.
- (٨) ويمكن لمن أراد المزيد أن يطلع على الرابط التالي:  
[http://www.coptichistory.org/new\\_page\\_١٩٦.html](http://www.coptichistory.org/new_page_١٩٦.html)
- (٩) آلان نترمان، اليهود عقائدهم الدينية وعباداتهم: ص ٦٧ - ٦٨، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، الهيئة العامة للكتاب.
- (١٠) ابن تيمية، الرد على المنطقيين: ص ٤٥٤، ط ٦.

## حتى لا تُغدر انتفاضة مصر

□ الأستاذ حسن ملاط (\*)

لا تزال تحركات الشعب المصري متواصلة منذ ٢٥ فبراير/ كانون الثاني. والملاحظ أنَّ وتيرة هذا التحرك لم تتراجع. وهذا فيه دلالة على أنَّ جذوة الحراك لا تزال متوقدة عند الشعب المصري الحي. وقد ترافق هذا الحراك مع جهود تُبذل من قبل شخصيات قريبة من النظام القائم، أي: أنَّها لا توحى بالمصادقية. فإذا أخذنا على سبيل المثال محمد البرادعي، فهذه الشخصية قريبة من الأمريكان وموثوقة لديهم. ففي حال تسلَّم هذا الشخص مسؤولية التحدث باسم الحراك الشعبي فسوف يوصل الحراك حيث يريد السيد الأمريكي، أي: مصالحة مع رموز النظام «المباركي»، والإبقاء على إتفاقية كامب ديفيد التي فرضت الذل على الشعب المصري. وبذلك ينتقل الشعب المصري من إذلال «مبارك» إلى «مبارك» آخر. وبذلك تكون الانتفاضة قد عُذرت.

أمَّا عن الشخصية الثانية، عمرو موسى، فهو لا يختلف عن البرادعي، وكذلك لا يختلف عن الرئيس الحالي. وبذلك تكون الانتفاضة قد ضحّت بنفسها حتى لا يفوز الشعب المصري بأية إيجابية.

(\*) باحث ومحاضر في الفكر السياسي/ طرابلس، لبنان.

نحن لا ندّعي بأننا أحرص على انتفاضة الشعب المصري أكثر من الشعب نفسه. ولكن كلّ هذا الحرص من قبل أهل الانتفاضة لا يعفينا من التحدّث بالهواجس التي نحملها؛ حفاظاً على هذه الانتفاضة التي نحسب أنفسنا من جنودها.

عند بدء الانتفاضة، تعطلت جميع الأعمال في مصر. ومع تطوّر هذا الحراك حاول النظام القضاء على هذا الحراك المبارك بواسطة الشرطة بلباسها الرسمي. ولكنّ الشرطة لم تتمكن من القضاء على هذا الحراك. وحيث إنّّه قد وقع عدد من الشهداء تحت سمع العالم، لذلك اضطرّ النظام القمعي إلى استبدال الشرطة بلباسها الرسمي إلى الشرطة بالثياب المدنية، وذلك بهدف تخفيف الضغط الدولي عليه. وكذلك لم يتمكّن من القضاء على الانتفاضة؛ لذلك لجأ إلى البلطجية من الخارجين على القانون وأمثالهم. وحتى بواسطة هؤلاء لم يتمكن النظام من القضاء على الانتفاضة، فلجأ إلى الحديث عن مفاوضة المعتصمين. وهنا بيت القصيد؛ فالإتفاق على شخصية المفاوضين هي النقطة الأهم بالنسبة للمفاوضات. فقد تبين أنّ المنتفضين لم يتفقوا على الشخصيات التي تقوم بالمفاوضات. خاصة إذا علمنا أنّ محركي الانتفاضة لا يتبعون إلى الأحزاب الرسمية المعترف بها من قبل النظام، ولا حتى الأحزاب الغير شرعية مثل الإخوان المسلمين، على سبيل المثال. فكيف تقوم إذن هذه المفاوضات. فاللجان المفاوضة لا تمثل بالفعل المنتفضين، فكيف تفاوض عنهم؟ هنا بيت القصيد. وقد شكلت لجنة، أطلقوا عليها إسم لجنة الحكماء، علماً أنّ المنتفضين لا يعملون بالحكمة، إنما يقومون بعمل اعتراضى من أجل القضاء على نظام ظالم استمر باضطهادهم لمدة ثلاثين سنة. فهذه اللجان يمكننا أن نعتبر أنها جزء من النظام بشكل أو بآخر. وبذلك تكون الانتفاضة قد أجبرت النظام على مفاوضة نفسه. ومن المؤكد أنّ الإنتفاضة لم تقم من أجل ذلك.

ما العمل؟؟!

إنَّ عدم القيام بتطوير أساليب العمل الاعتراضي من قبل الانتفاضة سوف يؤدي، عاجلاً أو آجلاً إلى تجميد الانتفاضة. إنَّ اقتصار العمل على الإعتصام في ميدان التحرير سوف يَمكِّن النظام من الالتفاف على الانتفاضة. ويمكن أن يتم ذلك بعزل هذا الميدان عن آلية العمل خارج هذا الميدان، خاصة وأن القاهرة مدينة كبيرة. فيصبح الميدان نقطة منتفضة في بحر هادئ. وهذا لا يجعل البحر هائجاً.

من هنا ضرورة اللجوء إلى أساليب في النضال لا تمكِّن النظام من الالتفاف على الانتفاضة المباركة. نحن على يقين أنَّ الشعب الذي قام بهذه الانتفاضة المباركة يملك من المبادرات والبدائل ما يجعلنا نتعجب من إمكاناته على الإبداع والخلق. ولكن هذا لا يعفينا من الاقتراح. مثال ذلك الخروج من الميدان لتعطيل عجلة العمل التي يريدها النظام، لمحاصرة الانتفاضة واعتبارها معزولة عن الشعب الذي تمثل مصالحه. كما ومن الممكن أن تلجأ إلى التظاهر في مختلف شوارع المدن، أي العديد من المظاهرات في مختلف شوارع المدن. وبذلك تبدو المدينة بكاملها منتفضة، وبالتالي مصر بمجموعها. أو القيام بإضرابات متلاحقة تعطل أي إمكانية للنظام بخلق نوع من الاستقرار يلتف به على الإنتفاضة المباركة. كما وأن هناك أشكالاً متعددة من الأساليب التي تمكن الانتفاضة من تعطيل كل محاولات النظام التعطيلية.

ليس هذا فحسب، بل على الانتفاضة أن تضع ضمن أولوياتها إمكانية طرح تشكيل حكومة من المنتفضين مهمتها إدارة البلاد بمعزل عن النظام، إذا أصرَّ على عدم الإستجابة للمتفضين. وخطوة كهذه يمكن أن تجبر الجيش على الاختيار بين النظام البائد والنظام الجديد. المهم أن البدائل يجب أن تكون حاضرة باستمرار. فالثورة خلقت وإبداع.

وعلى الشعب المنتفض أن يلتفت إلى أنه وإن انتصر في مطالبته بإسقاط النظام، فإن مهمته لن تنتهي، فإن المؤامرات عليه سوف تبدأ، لكي تسلبه المقصد الأساسي الذي يصبو إليه من خلال إسقاطه للنظام.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. علينا أن نعيش للمستقبل، فاليوم نقوم بما علينا القيام به، ولكن باتجاه المستقبل. إن إعطاء الأعداء إمكانية الغدر بهذه الانتفاضة سوف يكلف شعوبنا العربية ثمناً كبيراً. فمصر أم الدنيا وقبلة الشعوب العربية. وهذا ما يجعل مسؤولية المصريين مسؤولية مضاعفة. وهذا ما يجعل قلوبنا معلقة بهذه الانتفاضة المباركة، نتابعها ساعة بساعة ولحظة بلحظة. وأخيراً نقول: «تفاءلوا بالخير تجدوه».

\* \* \*

## تفسير الميزان السمات والخصائص

□ الشيخ محفوظ حسين الزويد (\*)

ربما لا تكون مبالغة ولم يكن تجاوزاً للحقيقة إذا قيل: «إنّ تفسير الميزان دائرة معارف قرآنيّة كبرى»<sup>(١)</sup>، يتيمة دهرها، تحتضن بين دفتيها الفلسفة الإلهية، والعقيدة الإسلاميّة، والشريعة المحمديّة، والأخلاق الربانيّة، والمفاهيم والرؤية الكونية الدينيّة.

وهو تفسير فريد من نوعه في بيان النقاط العلمية الجليّة والدقيقة والحساسية، بشكل كافٍ ووافٍ، ونضد بين المعاني الظاهريّة والباطنيّة للآيات القرآنيّة وبين المنهج العقلي والنقلي.

ويحتوي على نكات وبصائر ومطالب فيها إبداع وجمال، فمنذ بزوغ نوره الأوّل أخذ العلماء والمحقّقون يتجاذبون قبسات أنواره، وأصبح لعشاق المعارف القرآنيّة ينبوعاً، بل بحرّاً كلّما غاصوا في أعماقه نالوا لؤلؤاً ومرجاناً، وكلّما شربوا من مائه ازدادوا عطشاً ليغتربوا غرفة بعد غرفة.

(\*) محاضر في الحوزة العلمية بالأحساء.



يقول السيد الطهراني ع وهو من تلامذة العلامة ع:

«لقد بلغت أهميّة هذا التفسير وما ينطوي عليه من نقاط قوة وجذب حدّاً  
أمكن أن يقدّم للعالم على أنّه قاعدة لعقائد الإسلام والشيعّة، بل يمكن بثّه بين  
جميع المذاهب والمدارس ودعوة أصحابها على أساسه إلى الإسلام والتشيع»<sup>(١)</sup>.  
ويقول أيضاً:

«بين يديّ أكثر من ثلاثين تفسيراً قمت بمطابقتها، وهي من أهمّ تفاسير  
الشيعّة والسنة، بيدّ أنّي لم أجد أعذب وأشهى من تفسير الميزان، ولا أكثر جاذبيّةً  
وشمولاً منه، فالميزان وكأنّه قد عُزل عن بقية التفاسير، ودفع بها إلى زاوية  
النسيان بهذا القدر أو ذاك وأخذ مكانها»<sup>(٢)</sup>.

وحقّاً ما قيل: إنّّه ناسخ التفاسير على نحو الإطلاق والعموم.

وجاءت هذه القيمة العظيمة لهذا التفسير الذي فاق الكلّ، نتيجة أمور امتاز  
بها العلامة الطباطبائي ع، منها: الاطلاع الواسع على جميع الظواهر القرآنية،  
والمعرفة العميقة والدقيقة لسنة المعصومين <sup>٨</sup> المتسالم عليها، وتبحّره في  
العلوم العقليّة من منطق وكلام وفلسفة وعرفان وغيرها، والعلوم النقلية  
كالحديث والدراية والفقه والأصول والتاريخ.

وقد اهتمّ العلامة الطباطبائي ع كثيراً بترتيب وتنضيد هذا الأثر القيم  
والثمين، حيث إنّّه رجع إلى أكثر من ١٨٠ مرجعاً ومصدراً، في التفسير  
والروايات واللغة والتاريخ والاجتماع وبقية العلوم، وبعضها يتكوّن من عدّة  
مجلّدات.

ولذا قد يُخيّل لمن يتصفّح صفحات هذا التفسير ويعيش معه بعقله الصافي  
وروحه الشفّافة والنقيّة كأنّه كتب بقلم الوحي الربّانيّ.

وحقّاً ما قيل:

«إنّه ليس بالإمكان لهذا التفسير أن يقرأ كما تقرأ المجلة والصحيفة والكتاب

الروائي، بحيث يكون بمقدور أي شخص أن يتناول الكتاب ويقرأه ليفهمه مباشرة، كلاً، بل هذا التفسير هو كتاب درسي يحتاج فهمه إلى أستاذ»<sup>(١)</sup>.

وكيف لا يكون كذلك وقد خطته الأنامل الطاهرة للسيد محمد حسين الطباطبائي ع صاحب النبوغ الفكري، والذهنية الوقادة، والابتكارات العلمية والفلسفية، والمتبحر في العرفان والفقه والأصول والرياضيات والعلوم الغربية. وهو الذي هجم به العلم على حقيقة البصيرة، وباشر روح اليقين، وعاش في هذه الدنيا ببدنه لا بروحه؛ لأن روحه متعلقة بالملاء الأعلى، تخلق بالأخلاق الإلهية الذي طوى المقامات العرفانية العالية، والجامع بين الوجدانيات والأذواق القلبية والعلوم والكمالات الفكرية، وبين العلم والعمل.

:

تفسير الميزان جوهرة الثمينة في المكتبة القرآنية، يفوق غيره من التفسير ويمتاز عليها بأنه الأجمع للمباحث القرآنية بكل أبعادها، هذا الأثر القيم جاء تأليفه في أوج التحولات التفسيرية - في القرن الرابع الهجري -، وبرز إلى النور في هذا الجو المتأثر بالإننتاجات التفسيرية، جعل نفسه حكماً في هذا المضمار العلمي المليء بالمتجاذبات التي ربما تصل إلى التناقض والمغالطات؛ لذا كان يقتبس من المفسرين دون أن يشير إليهم - لله در هذا الخلق السامي -، ثم يرد عليهم حلاً ونقضاً مبيناً مواطن الضعف والخطأ فيها.

ومواجهة الإشكالات والشبهات والإثارات على الفكر الديني الإسلامي، من قبل التيارات والاتجاهات الشرقية والغربية، والمتأثرين من أبناء المجتمع الإسلامي بالفكر العلماني والليبرالي.

ولكل ذلك أصبح تفسير الميزان قبلة المتعطشين إلى زلال الحقيقة والمعرفة

وعشاق العلم والبحث والتحقيق.

ينقل السيد الطهراني ع عن السيد موسى الصدر أن العالم الكبير والمحقق التحرير الشيخ محمد جواد مغنية ع قال: «عندما حلّ تفسير الميزان بين يدي عطّلت مكتبتني، وانكبت على مطالعته، بحيث لم يكن على طاولتي كتاب غيره»<sup>(١)</sup>.

ويقول العلامة الشهيد المطهري ع:

«لم يكتب تفسير الميزان جميعه بوحى التفكير، فأنا اعتقد أن الكثير من موضوعاته هي إلهامات غيبية، وقلما تعرض لي مسألة من المسائل الإسلامية والدينية لا أجد مفتاح حلّها في الميزان»<sup>(٢)</sup>.

يقول السيد الطهراني ع:

«يُعدّ تفسير الميزان فريداً من نوعه في بيان النقاط الدقيقة والحساسة، والوقوف بوجه المغالطات التي تنطوي عليها كلمات المعاندين، وهو فريد لشموله وجامعيته، حتى يمكن القول بحق: لم يكتب تفسير مثله منذ عصر صدر الإسلام».

ويقول أيضاً:

«وقلت له - السيد العلامة الطباطبائي - مرّة: حين أنكبّ على مطالعة هذا التفسير وأكون مشغولاً به، وتواجهني بعض الأوقات مسألة كيفية ربطك للآيات بعضها ببعض بحيث تغدو كالسلسلة التي تتوازن حلقاتها فيما بينها، ثمّ تستخرج عن طريق التطبيق (التطبيق فيما بين الآيات نفسها وليس بإسقاط معارف أخرى عليها من خارجها) لا أملك في التعبير عن هذه الحالة إلا أن أقول: جرى على قلمك - أثناء الكتابة - الوحي والإلهام الإلهي. لم يزد السيد على أن يهزّ رأسه ويقول: هذا من حسن نظرك فقط، وإلا فأنا لم أفعل شيئاً»<sup>(٣)</sup>.

ويقول أيضاً:

«وقلت للأستاذ الطباطبائي يوماً: لم يأخذ هذا التفسير الشريف مكانه اللائق به بعدُ في أوساط الحوزات العلميّة، ولم تُدرك قيمته الواقعيّة. وإذا قدّر لهذا التفسير أن يدرّس في الحوزات، ويتمّ التباحث حول محتواه وأفكاره، بحيث يخضع للبحث والنقد والتحليل بشكل مستمرّ، فيمكن عندئذٍ أن تُدرك قيمته ولكن بعد مئتي سنة».

:

من السمات التي انفرد بها تفسير الميزان عن غيره من التفاسير: طريقته الخاصة، وهي: تفسير الآية بالآية، أو تفسير القرآن بالقرآن، بأن يفسّر القرآن نفسه بنفسه، كما جاء مضمونها في الروايات.

يقول العلامة  $\&$ : «وسمّيت الآيات القرآنية مثاني؛ لأنّ بعضها يوضّح حال البعض ويلوي وينعطف عليه، كما يشعر به قوله: ﴿كُنْزًا مُّتَشَبِّهًا مِّثَاقِي﴾ [الزمر: ٢٣]؛ حيث جمع بين كون الكتاب متشابهاً يشبه بعض آياته بعضاً، وبين كون آياته مثاني، وفي كلام النبيّ ﷺ: ' في صفة القرآن: يصدّق بعضه بعضاً. وعن عليّ  $\times$  فيه: ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض. أو هي جمع مثني بمعنى التكرير والإعادة، كناية عن بيان بعض الآيات ببعض»<sup>(١)</sup>.

«وهذا من عجيب أمر القرآن، فإنّ الآية من آياته لا تكاد تصمت عن الدلالة ولا تعقم عن الإنتاج، كلّما ضمّت آية إلى آية مناسبة أنتجت حقيقة من أبكار الحقائق، ثمّ الآية الثالثة تصدّقها وتشهد بها، هذا شأنه وخاصّته، وسترى في خلال البيانات في هذا الكتاب نبذاً من ذلك، على أنّ الطريق متروك غير مسلوک، ولو أنّ المفسّرين ساروا هذا المسير لظهر لنا إلى اليوم ينابيع من بحاره العذبة وخزائن من أثقاله النفيسة»<sup>(١)</sup>.

فالقرآن صادر من مبدأ واحد؛ ولذا يكون القرآن بحكم الكلام والخطاب

الواحد، ولذا لا يمكن التفكيك بين جزئياته، فإن برزت لنا بحسب الظاهر نقطة خفاء فيه يمكن إجلاؤها بما فيه من جهة الوضوح والبيان والتبيان، وبذلك الآيات تفسر نفسها.

وهذه الطريقة فتحت الكثير من العقد المغلقة، وأن معرفة (باب) يفتح منها ألف باب) يمكن بواسطتها رؤية القرآن الكريم بتمامه كأبواب إلهية مفتحة. إن طريقة تفسير القرآن بالقرآن نتج عنها الكثير من الفوائد والميزات التي انفرد بها هذا التفسير.

منها: أنه فصل الآيات الأصلية التي تمد وتغذي الظواهر من الآيات الفاتحة لبواطن القرآن.

ومنها: أنه ميّز التفسير عن التأويل الذي هو وراء المعنى لا اللفظ، حيث إن تشخيص الحقيقة والمجاز العقليين يكون من مختصات العقل والوحي، لا اللغة، ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] (١).

أيضاً من النتائج التي نحصل عليها من خلال تفسير القرآن بالقرآن: أننا نستطيع أن نقسم الآيات القرآنية إلى آيات أساسية وآيات فرعية، وكيفية ظهور الآيات الأساسية في الآيات الفرعية، وكيفية رجوع الآيات الفرعية إلى الأساسية.

فعندما يبحث العلامة × حول آية من الآيات يستوعب بحثه كل القرآن، حيث إنه إما أن يبحث الآيات الموافقة بعنوان الاستدلال أو الاستمداد. أو يبحث الآيات التي لا تكون في ظاهرها اللفظي متوافقة معها فيشرحها ويفسرها بنحو يبين أن لا تناقض في البين، وأن أي احتمال للتناقض مردود؛ لأن ذلك لا يتفق مع انسجام والتثام القرآن الكريم الذي هو معجز في ذاته وبياناته. فيقول في هذا المجال:

«متعرض للجليل والدقيق من المعارف الإلهية الفلسفية، والأخلاق

الفاضلة، والقوانين الدينية الفرعية من عبادات ومعاملات وسياسات واجتماعيات، وكل ما يمسّه فعل الإنسان وعمله، كلّ ذلك على أساس الفطرة وأصل التوحيد، بحيث ترجع التفاصيل إلى أصل التوحيد بالتحليل، ويرجع الأصل إلى التفاصيل بالتركيب. وقد بيّن بقاؤها جميعاً وانطباقها على صلاح الإنسان بمرور الدهور وكروورها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكُنْتُ عَزِيزٌ ۝٤١ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فهو كتاب لا يحكم عليه حاكم النسخ، ولا يقضي عليه قانون التحول والتكامل»<sup>(١)</sup>.

وأيضاً: من النتائج المهمة جداً: استحكام طبيعة أصل التفسير القرآني، بحيث نحصل على نتيجة في غاية الأهمية من جانب القيمة العلمية، وهي أنّ الحصيصة العلمية بكلّ أبعادها التي جاءت في النهج القرآني خالية من الاختلافات الجذرية في أسسها وأصولها العلمية، وينتج عن ذلك: أنّه ليس هناك أيّ اختلاف في أصل المتن، وهو القرآن الكريم<sup>(٢)</sup>.

يقول العلامة &: «وهذا الكتاب جاء به النبي ' نجومًا، وقرأه على الناس قطعاً قطعاً في مدّة ثلاث وعشرين سنة في أحوال مختلفة وشرائط متفاوتة، في مكّة والمدينة، في الليل والنهار، والحضر والسفر، والحرب والسلام، في يوم العسرة وفي يوم الغلبة، ويوم الأمن ويوم الخوف، ولإلقاء المعارف الإلهية، وتعليم الأخلاق الفاضلة، وتقنين الأحكام الدينية في جميع أبواب الحاجة، ولا يوجد فيه أدنى اختلاف في النظم المتشابه كتاباً متشابهاً مثاني، ولم يقع في المعارف التي ألّفهاها والأصول التي أعطّاها اختلاف يتناقض بعضها مع بعض، ويتنافى شيء منها مع آخر، فالآية تفسّر الآية، والبعض يبيّن البعض، والجملة تصدّق الجملة، كما قال علي X: ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض. ولو كان من عند غير الله لاختلف النظم في الحسن والبهاء والقول

في الشداقة والبلاغة والمعنى من حيث الفساد والصحة، ومن حيث الإتقان والمتانة»<sup>(١)</sup>.

ويبرهن العلامة & على ضرورة تفسير القرآن بالقرآن بثلاثة أمور:

أولاً: أن القرآن نور، والنور لا يحتاج إلى غيره.

ثانياً: أن التحدي القرآني منوط بما يلي:

أ. أن الوضوح من لوازمه، حيث إن مفاهيمه واضحة بالنسبة إلى المخاطب به.

ب. أن فهم القرآن لا يحتاج ولا يعتمد على أي شيء آخر.

ثالثاً: أنه قد وردت روايات كثيرة تدعونا للتمسك والأخذ بالقرآن الكريم، وأن القرآن هو المعيار لمعرفة صدور الرواية عن النبي ، فلو كان فهم القرآن متوقفاً على الروايات للزم منه الدور.

ولا بد أن نلفت النظر إلى أن منهجية تفسير القرآن بالقرآن تختلف عن طريقة أخرى، وهي ضرب القرآن بالقرآن التي ورد النهي عنها. حيث إن هناك farkاً بينهما حكماً وموضوعياً، فقد قال الإمام الصادق ×: «فما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلا كفر»<sup>(٢)</sup>.

وهو عبارة عن: فصل حقيقة القرآن الواحدة وخلطها، وقطع أواصر الارتباط بين الآيات القرآنية، وأن لا يلحظ جانب الاتصال بين الآيات، ولا بين الآية الواحدة، فيبتر الاتصال بين صدر الآية وذيلها، وهو نوع من تفسير القرآن بالرأي؛ ولذا تمّ النهي عنه بشدة من جانب الأئمة الأطهار<sup>٨</sup>.

من الميزات التي امتاز بها العلامة الطباطبائي & : التبحر العميق في الأصول العقلية، فقد ترشّح ذلك في تفسير الآيات، وقد استفاد من تلك الأسس العقلية البيئية أو المبيئية، فكان يفسر الآية على أن لا تكون مخالفة لأي دليل عقلي قطعي؛ لأن أي احتمال يناقض الموازين القطعية العقلية باطل في ذاته، وإن وجود

التناقض بين العقل والوحي مرفوض؛ لأنّه لا يمكن أن يكون بين الحجّتين الإلهيتين تباين، فالعقل مصباح منير والوحي صراط مستقيم؛ ولا يمكن الاستفادة من أحدهما دون الآخر.

ومّا امتاز به هذا التفسير: اشتماله على بحوث إضافية، فمنها: الروائيّة والاجتماعيّة والتاريخيّة، والكلاميّة، والفلسفيّة، والعلميّة...

وقد استلزم ذلك الشموليّة والعموميّة له، ومسايرته للأفكار والاتّجاهات العصريّة، ومقارنة الفكر الدينيّ الإسلاميّ بقيّة الأفكار والاتّجاهات الأخرى، الدينيّة والإلحاديّة، ومعالجة الكثير من الشبهات والإشكالات التي تثار على الدين، سواء من داخل المجتمع الإسلاميّ أو من خارجه.

ومن نقاط الامتياز لهذا التفسير: دفاعه عن فكر مدرسة أهل البيت <sup>٨</sup>، وبيان حقيقة التشيع ومعتقداته، وأصوله وفروعه، ببيانٍ دقيق وعميق، من خلال بيان تفسير الآيات والسنة الشريفة، من كتب المدرستين، من دون أن يثير حفيظة أحد على الآخر.

فعند بحثه في آية التطهير وبيان أنّها نزلت في أهل البيت <sup>٨</sup> يقول: «إنّ الآية نزلت في النبي <sup>٩</sup> وعليّ وفاطمة والحسين <sup>٨</sup> خاصّة لا يشاركهم فيها غيرهم.

وهي روايات جمّة تزيد على سبعين حديثاً، يربو ما ورد منها من طرق أهل السنة على ما ورد منها من طرق الشيعة، فقد روتها أهل السنة بطرق كثيرة عن أم سلمة وعائشة وأبي سعيد الخدري وسعد ووائل بن الأسقع وأبي الحمراء وابن عباس وثوبان مولى النبي <sup>٩</sup> وعبد الله بن جعفر وعليّ والحسن بن علي <sup>٩</sup> في قريب من أربعين طريقاً.

وروتها الشيعة عن عليّ والسجاد والباقر والصادق والرضا <sup>٨</sup> وأمّ سلمة وأبي ذرّ وأبي ليلي وأبي الأسود الدؤلي وعمرو بن ميمون الأودي وسعد بن أبي



وقاص في بضع وثلاثين طريقاً.

فإن قيل: إنّ الروايات إنّما تدلّ على شمول الآية لعلّي وفاطمة والحسين <sup>٨</sup>، ولا ينافي ذلك شمولها لأزواج النبي <sup>٩</sup>، كما يفيد وقوع الآية في سياق خطابهنّ.

قلنا: إنّ كثيراً من هذه الروايات - وخاصة ما رويت عن أمّ سلمة، وفي بيتها نزلت الآية - تصرّح باختصاصها بهم وعدم شمولها لأزواج النبي <sup>(١٠)</sup>.

وفي بحثه في سبب نزول سورة الإنسان، وإنكار البعض بأنّها ترتبط بأهل البيت <sup>٨</sup>، وأنها نزلت في مكة، يقول &: «وفي الدرّ المنثور: أخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس، قال: نزلت سورة الإنسان بالمدينة. وفيه: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى: { وَيُطْعَمُونَ أَطْعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ } الآية، قال: نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله <sup>٩</sup>».

أقول: الآية تشارك سائر آيات صدر السورة ممّا تقدّم عليها أو تأخّر عنها في سياق واحد متّصل، فنزولها فيهما <sup>٩</sup> لا ينفكّ نزولها جميعاً بالمدينة.

وفي الكشف: وعن ابن عبّاس أنّ الحسن والحسين مرضا، فعادهما رسول الله <sup>٩</sup> في ناسٍ معه، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر عليّ وفاطمة وفضّة - جارية لهما -: إن برءا ممّا بهما أن يصوموا ثلاثة أيّام، فشفيا وما معهم شيء. فاستقرض عليّ من شمعون الخيري اليهوديّ ثلاث أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل وقال: السلام عليكم أهل بيت محمّد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنّة. فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلّا الماء وأصبحوا صياماً. فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل

ذلك. فلما أصبحوا أخذ عليُّ بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله ' فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوؤني ما أرى بكم، فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها، فساء ذلك، فنزل جبريل، وقال: خذها يا محمد هنّاك الله في أهل بيتك، فأقرأه السورة.

أقول: الرواية مروية بغير واحد من الطرق عن عطاء عن ابن عباس ونقلها البحراني في غاية المرام، عن أبي المؤيد الموفق بن أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس، وعنه بإسناد آخر عن الضحاك عن ابن عباس، وعن الحموي في كتاب فرائد السمطين بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس، وعن الثعلبي بإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس، ورواه في المجمع، عن الواحدي في تفسيره<sup>(١)</sup>.

هذه لمحة مختصرة حول خصوصيات هذا السفر النفيس والقيّم، والتي أردت أن أتعرف بها على هذا الكتاب أولاً وبالذات ، وأداء لبعض الحقّ نحو صاحب الكتاب ثانياً.

وأعترف مطأطئ الرأس ذليلاً أمام شخصك الشامخ الجليل يا سيدي العلامة بالقصور والتقصير، فسلام عليك يوم ولدت، وسلام عليك يوم نزعت الخلعة المادّية، وتجردت عن عالم المادّة والأدران، ورحلت عن هذه الدنيا الدنية مطمئناً، وسلام عليك يوم تبعث حيّاً مسروراً.

\* \* \*

الهوامش:

(١) مؤلف كتاب الميزان السيد محمد حسين الطباطبائي، شرع في هذا التفسير في حدود سنة ١٣٧٤ هـ وأنهاه في ليلة القدر: ٢٣ رمضان لسنة ١٣٩٢ هـ، ويتكون من عشرين مجلداً.

- (٢) رسالة التشيع: ص ٣٥٣.
- (٣) المصدر نفسه: ٣٥٤.
- (٤) في لقاء مع السيد محمد باقرا همداني، رسالة التشيع: ٤٧٢.
- (٥) الشمس الساطعة: نسخة الكترونية.
- (٦) تطوّر الدرس الفلسفي: ١٩٠.
- (٧) العلامة الطباطبائي ملامح في السيرتين الشخصية والعلمية: ٣٥٤.
- (٨) الميزان في تفسير القرآن ١٢: ١٩٠.
- (٩) المصدر نفسه ١: ٧٥.
- (١٠) سيرة العلامة الطباطبائي ٤٧.
- (١١) الميزان في تفسير القرآن ١: ٦٤.
- (١٢) سيرة العلامة الطباطبائي: ٤٧.
- (١٣) الميزان في تفسير القرآن ١: ٦٨.
- (١٤) بحار الأنوار ٨٩: ٣٩.
- (١٥) الميزان في تفسير القرآن ١٦: ٣١٧.
- (١٦) المصدر نفسه ٢٠: ١٤٤.

## ارحطوووووا

سوف لن ننسى لكم هذا الجميلا

□ الشاعر: أحمد مطر

ارفعوا أفلامكم عنها قليلا...  
واملؤوا أفواهكم صمتاً طويلا...  
لا تحيوا دعوة القدس.. ولو بالهمس...  
كي لا تسلبوا أطفالها الموت النيبلا...  
واتركوا القدس لمولاها...  
فما أعظم بلواها...  
إذا فرّت من الباغي لكي تلقى الوكيلا...

\* \* \*

طفح الكيل.. وقد آن لكم أن تسمعوا قولاً ثقيلاً...  
نحن لا نجهل من أنتم.. غسلناكم جميعاً...

وعصرناكم.. وجففنا الغسيلا...  
إننا لسنا نرى مغتصب القدس يهودياً دخيلاً...  
فهو لم يقطع لنا شبراً من الأوطان...  
لو لم تقطعوا من دونه عنا السبيل...  
\* \* \*

أنتم الأعداء يا من قد نزعتم...  
صفة الإنسان من أعماقنا جيلاً فجيلاً...  
واغتصبتم أرضنا منا وكنتم...  
نصف قرنٍ لبلاد العرب محتلاً أصيلاً...  
\* \* \*

أتعدون لنا مؤتمراً؟  
كلا.. كفى.. شكراً جزيلاً...  
لا البيانات ستبني بيننا جسراً...  
ولا قتل الإدانات سيجديكم فتيلاً...  
نحن نرجو كل من فيه بقايا خجل.. أن يستقيلاً...  
نحن لا نسألکم إلا الرحيل...  
وعلى رغم القباحات التي خلفتموها...  
سوف لن ننسى لكم هذا الجميلاً...  
ارحلوا...

\* \* \*

أم تحسبون الله لم يخلق لنا عنكم بديلاً...  
أيّ إعجاز لديكم...  
هل من الصعب على أيّ امرئ أن يلبس العار...  
وأن يصبح للغرب عميلاً...  
أيّ إنجاز لديكم...  
هل من الصعب على القرد إذا ملك المدفع.. أن يقتل فيلاً...  
ما افتخار اللصّ بالسلب...  
وما ميزة من يلبد بالدرب.. ليغتال القتيلاً...  
احملوا أسلحة الذلّ وولوا.. لتروا...  
كيف نحيل الذلّ بالأحجار عزّاً.. ونذلّ المستحيلاً...  
ارحلوا.. ارحلوا...  
سوف لن ننسى لكم ذاك الجميلاً...

\* \* \*

## قسمة الاشتراك

رسالة الثقلين  
مجلة اسلامية جامعة

/

( )

( )

☐ : ☐ ☐

أرسل هذه القسيمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:  
. . .



.....

:

)

:



:

(

/

( )

:

عليه

( )

:



.( )

:

:

.





The ahl – ul Bayt (a)  
World Assembly

## **RISALATUTH - THAQALAYN**

**A General Islamic Periodical**

**Vol . 17, No . 68, Winter 2011**